«الرحالة ك»

عبد الرحمن الكواكبي

النص الكامل

الطبعة السابعة

2015

طبائع الاستبداد و مصارع الاستعباد

دراسة وتحقيق:

د. محمد جمال طحان

دار صفحات

الرحالة ك

طبائع الاستبداد
ومصارع الاستعباد

صفحات

في فكر حضاري متجدد

الكتاب: الرحالة ك

طبائع الاستبداد
ومصارع الاستعباد

تأليف: عبد الرحمن الكواكبي

دراسة وتحقيق: د.محمد جمال طحان

الإصدار السابع 2016 م

عدد النسخ: 1000

عدد الصفحات: 186 / القياس: 13.5 × 21

ISBN: 978-9933-495-38-1

محفوظة
جميع الحقوق

دار صفحات للدراسات والنشر والتوزيع

سورية - دمشق - ص.ب 3397

هاتف: 095 13 22 11 00963

تلفاكس: 013 33 22 11 00963

موبايل: 818 411 991 00963

info@darsafahat.com

الإمارات العربية المتحدة - دبي

جوال 942 442 528 00971

Darsafahat.pages@gmail.com

الإشراف العام: يزن يعقوب

www.darsafahat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

الإهداء	7
المُقدِّمة	9
طبعات طبائع الاستبداد	15
ماهيّة الاستبداد وطرائق مواجهته	23
فاتحة الكتاب	41
مقدمة	45
ما هو الاستبداد	51
الاستبداد والدِّين	61
الاستبداد والعِلْمُ	85
الاستبداد والمجد	95
الاستبداد والمال	113
الاستبداد والأخلاق	133
الاستبداد والتّربية	153
الاستبداد والتَّرقِّي	169
الاستبداد والتّخلُّص منه	201
المصادر والمراجع	221

الإهداء

إلى

أبي

والأَبِيِّ في كُلِّ آنٍ

جمال

مُقَدِّمَة

الاستبدادُ كلمةٌ مُستبعَدَةٌ ومنفيَّةٌ مـن دوائر المعـارف، ومُحَظَرٌ تداولـها بين النّاس، ويمارسه يحرص على أنْ يبقيه مصدراً يحيط به الغموض من كُلّ جانب حتّى لا يتسنّى للنّاس تحقيق مقولـة (اعـرف عـدوّك أوّلاً) وبالتـالي؛ حتّى لا يتمكّنوا من التّغلّب عليه.

إنَّ الاستبداد، فضلاً عن أنّه يحاول التّملّص من التّحديـد لابساً أثواباً تمويهيـة مُتنوّعـة، فإنَّ لـه أشـكالاً مُتعـدّدة تتطـوّر وتتبدّل مـع تقـدُّم الحيـاة الإنسانية، بفضل ما يُوفّره له مُنظّروه من أساليب جديدة.

فهل وصلنا إلى أُفُق مسدود فيما يتعلّـق بمسألة الدّيمقراطيّـة، أم أنَّ فـي جعبـة التّراث أفكـاراً يمكـن أنْ تعـبر بنـا إلـى شـواطئ الوحـدة والدّيمقراطيّـة والتّقدُّم؟ وما الخطوات الآيلة إلى ذلك؟

سؤال تتجـدَّد مشـروعيّته فـي ظـلّ مـا يُسـمّى بالنّظـام العـالمي الجديـد، والتّحوّلات الكونية المتسارعة، وواقع التّجزئة القطري؛ حيثُ لا يعـترف أيّ قطر إلاّ بسيادته، ويتغنّى بحُسن سياسته، ويُعَبِّرُ - بشكل أو بآخر - عن فقدان الثّقة المتبادَل بين حكّام الأقطار العربية.

وسؤال مهمٌّ في عتمة الخطى الحثيثة نحو انهيار الصّمود العربي وتقديم سلسلة من التّنـازلات، والتّهافت المخجـل علـى المفاوضـات مـع إسـرائيل،

تمهيداً للاعتراف الرّسمي بالكيان الصّهيوني في فلسطين ، وتطبيع العلاقات مع مَن استنزفوا ثروات الأمَّة العربية وشربوا دماء أجدادنا وأبنائنا ، وكانوا حجَّة الاستبداد في كُلّ آن .

وسؤالٌ مربكٌ في زمن الشّعار الذي ترفعه معظم النُّظُم العربيّة القائمة : « إنقاذ ما يمكن إنقاذه » لتمرير التّمسُّح (بالجوخ) الأمريكي ومصافحة مَنْ كان ـ وما يزال ـ أهمّ أسباب عُقَدنا النّفسيّة .

هذا ؛ في حين يجري إغفال دور الدّيمقراطيّة ودور الجماهير العربيّة في التّحرّك السّياسي التّكتيكي والاستراتيجي ، تحت إبط تراتبية هرميّة قوامها قبول الجماهير بوصاية الحُكّام ، وقبول الحُكّام بوصاية أمريكا ونظامها العالمي الجديد تحت ستار « ليس بالإمكان أبدع ممّا كان » .

وتردّى حال الأمّة من سيّئ إلى أسوأ ، مع عدم الاعتراف بأنَّ القطريّة قد أثبتت إخفاقها الذّريع بجدارة لا تُحسد عليها ، ومع استمرار الصّراع القومي ـ الدّيني بين فصائل يجمع بينها الكبتُ والحرمان ، ويكمن خلاصها في تفجير التّعامل مع الواقع باستكانة واستسلام ، وفي شجب التّعصُّب على أيٍّ شكل جاء .

من هذه المقدّمة نعبر إلى مغامرة استشفاف المستقبل التي حاولها مُفَكِّرونا ، بناءً على فهم الواقع وفهم التّاريخ ، وتأسيساً على فَهْم الذّات وفَهْم الآخرين . لعلَّ التّراكم المعرفي يفتح لنا كوّة على مستقبل أفضل . ومن هنا تأتي أهميّة العودة إلى التّراث .

إنّنا نعاني من أزمة تطوُّر حضاري ، ولابُدَّ لنا ـ للخروج من هذه الأزمة ـ من أنْ نبدأ أوّلاً بوضع المعايير الصّحيحة لمفاهيمنا ، بعد أنْ نتفحّص إمكاناتنا

من خلال معرفة ما نحن مُؤَهَّلون له حقّاً، حتّى لا نُحدث خلخلة بين ما نريد وما نفعل. ومن أحد مآزق الفكر العربي مشكلة التّعامل مع التّراث.

التراث ليس مشكلة الماضي، وإنّما هو مشكلة الحاضر الذي ننطلق منه نحو المستقبل. والعودة إلى التّراث، في زماننا العربي هذا، ذات شجون. وبصرف النّظر عن موقفنا تجاه ما نراه مظلماً أو مضيئاً فيه، تبقى العودة مُتعِبة ومحزِنة حين نقف أمام مَنْ سبقونا بوجودهم، وبإبداعاتهم أيضاً.

فإذا كان التّراث من صُنع الإنسان ونتاجاً للنّشاط الإنساني في مراحل تاريخية متعاقبة، فإنَّ تفعيله هو أيضاً من صُنع الإنسان ومن اختياره. وإذا كان الانتماء إلى التّراث لا اختيار لنا فيه، فإنَّ تفعيله فينا وبنا هو من اختيارنا.

والمشكلة التي تُؤَرِّق قارئ التّراث أرقاً مزدوجاً، أنّه سيجد فيه كثيراً من الإجابات عن تساؤلاته، أو أنَّه سيهتدي - من خلاله - إلى كثير من الحلول لمشكلات عصره. وذلك لأنَّ المجتمع العربي لم يتغيَّر تغيُّراً جذريّاً عمَّا تركه روَّاد النّهضة العربيّة، فما زالت أكثر سلبيّاته قائمة، ولم نلحظ فيه من تغيُّر سوى استعماله لتقنيات لم ينتجها هو، ولم يتمكّن من استيعابها بعد.

فلماذا إذن لا نركب هذا المركب الخشن لنستوعب بعض قراءاتنا، ونُوظّفها بما يخدم الإنسان - إنساننا المطحون حتّى العظام - خاصّة حين ندرس عصراً أسهم بالتّأثير المباشر في عصرنا، وأنتج بعض أفكارنا؟!

من هنا تأتي أهمّيّة عبد الرّحمن الكواكبي، وتأتي أهمّيّة كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) الذي نُقدّمه عسى أنْ نتعلّم من الماضي كي لا نلدغ من الجحر مرّتين. ويأتي نشر كتاب «طبائع

الاستبداد ومصارع الاستعباد » استكمالاً لدراسة أفكاره التي بدأت في « أمّ القرى » الذي حرصت دار صفحات على إخراجه بما يليق .

إنّنا نُقدِّم ـ هنا ـ مقارنةً بين طبعات مختلفة للكتاب النّفيس (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)، ونختار النّصوص بدقّة من بين ما يزيد على ثلاثين طبعةٍ مختلفة، ونحصِّنها بالحواشي والتّفسيرات اللازمة، ونُعَرِّف بالأعلام والمعالم الوارد ذكرها في الكتاب، ولم نتوانَ عن توصيف الكتاب، وعن تقديم دراسةٍ تحليليّة وافية لطبائع الاستبداد.

وأودُّ الإشارة إلى أنَّني سمحتُ لنفسي بتصويب بعض الأخطاء في بعض الآيات والأشعار، متجاوزاً في ذلك ما قام به سواي.

وإنَّني إذ أُنجز هذا العمل ـ يوم صدور طابع بريدي في سورية يحمل صورة الكواكبي بمناسبة مرور مائة عام على وفاته ـ أتذكّر ما عاناه الكواكبي في موطنه من قهر حرص عليه المفسدون في الأرض. وهذا يعني أنَّ المفسدين يزولون، والذي يبقى وحده؛ هو ذلك النّهج المخلص الذي يعتني به المبدعون الصّادقون مع أنفسهم بعيداً عن منافع شخصية آنية موالية لزيد أو عمرو، لأنَّ كليهما سيموت، ولا تبقى إلاّ الآثار التي تصنع التّاريخ، الذي مهما جهد المتنفِّذون في تزييفه، سيعود إلى سياقه الصّحيح في خاتمة المطاف، فتمتلئ نفسي بالرّضى بالرّغم من الهمِّ الكبير الذي أعانيه.

يكبر الهمُّ حين ترى الوطن يذوي أمام عينيك وأنت تكتفي بالقول، في حين يقوم الآخرون بفعل قَهْرِكَ مُستعينين عليكَ بذَويكَ. حينذاك تتجسّد الفاجعة؛ حيث تذهب إلى العمل حاملاً همومك، فَيَفْجَؤُكَ رئيس الدّائرة

بقرارات عرجاء تعمل على تذكيرك دائماً بأنَّها دائرته الخاصة، وأنَّك وسواك تعملون في محيط خاص يملكه وراثة عن جدِّه أو عن أبيه.

عندما يكبر الهمُّ، تصبح المجابهة أصعب، ولكنَّها - أيضاً - تغدو ضرورية أكثر؛ لأنَّها خلاصنا الوحيد من الذُّلِّ الذي نحن فيه.

حلب في 30 جمادى الأولى 1423 — د. محمد جمال طحان

8 آب 2002 — J. tahhan @ scs - net. Org

طبعات طبائع الاستبداد

عنوانه الكامل « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » مُحرِّرُها هو الرّحالة ك.

نُشر لأوَّل مرَّة في « المؤيَّد » المصرية لصاحبها (علي يوسف) وذلك بين سنة (1318 و 1320 هجري = 1900 و 1902 ميلادي)، ثمَّ وسَّع الكواكبي تلك الأبحاث ونشرها في كتاب.

وقد عثرنا على طبعة أنجزتْها مطبعة الجمالية بمصر، بدون تاريخ، وتتألف من / 126/ صفحة من القطع الصّغير. مُحرِّرُها هو الرّحالة ك. وهناك طبعة مشابهة عليها تاريخ / 1931 م/ .

وثمَّة طبعة قديمة، بدون تاريخ، مطبوعة في (مطبعة الدُّستور العثماني) بشارع محمد علي، على نفقة (إبراهيم فارس) صاحب المكتبة الشّرقية في مصر، وتقع هذه الطّبعة في / 152/ صفحة من القطع الصّغير.

كما أنَّ هناك طبعة أنجزتْهَا المكتبة التّجارية بمصر في مجلَّد واحد مع « أم القرى » عام / 1931 م/ . وطبعة « الدَّار القومية للطّباعة والنّشر » في القاهرة، ضمن سلسلة (كُتُب ثقافية) برقم / 27 / . ومُؤرَّخة في 5 كانون الأوَّل / 1959 / وتقع في صفحتَيْن ومئة.

وطبعة على نفقة (محمد عطية الكتبي) في مطبعة (الأمَّة) بدرب الشّعلان، وتقع في / 127/ صفحة من القطع الصّغير، وصُدِّرَت بأنَّها

« لفيلسوف الإسلام وعلاّمة الشّرق المرحوم المبرور السّيد عبد الرّحمن الكواكبي الملقَّب بالسّيد الفراتي ». كما أنَّ هناك طبعات كثيرة متشابهة وهي من القطع الصّغير، وتتراوح بين / 126 / و / 148/ صفحة، وبدون تواريخ. ويمكننا أنْ نَعُدَّ تلك الطّبعات كُلَّها طبعة أولى، وسنرمز لها بالحرفَيْن (ط. ق)، وهي تخلو - جميعها - من فهرس الأبحاث، ويقول الكواكبي في مُقدِّمة تلك الطّبعات: « إنَّني في سنة ثماني عشر وثلاثمئة وألف، وُجِدتُ زائراً في مصر [...] فنشرتُ في بعض الصّحف الغرّاء أبحاثاً علمية سياسية في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، منها ما درستُهُ، ومنها ما اقتبستُهُ [...]. ثمَّ كَلَّفني بعض الأعزّاء لجمع شمل تلك الأبحاث، تعميماً للفائدة، فأضفتُ إليها بعض زيادات، وحوَّلتُهَا إلى هيئة هذا الكتاب ». (1)

أمَّا الطّبعة الثّانية فقد صدرت عن المطبعة العصرية بحلب، وفيها زيادات على سابقتها، ومذكور فيها أنَّها طبعة مُنقَّحة، إلاّ أنَّها مليئة بالأخطاء، وخاصّة في صيغ الشّواهد القرآنية. وهي طبعة مشابهة لطبعة صدرت عن (دار المعارف بمصر) في أوّل شارع الفجالة، ومنشورة على أنَّها الطّبعة الأولى. ولكنَّنا نجد الكواكبي يقول في مقدمتها: « ... ثمَّ في زيارتي مصر ثانية، أجبتُ تكليف بعض الشّبيبة، فوسَّعتُ تلك المباحث، وأضفتُ إليها طرائق التّخلّص من الاستبداد »، ونشرتُ ذلك في كتاب سَمَّيتُهُ « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد... » ممّا يدلُّ على أنَّ هذه الطّبعة هي الثّانية، ففيها يتحدَّثُ الكواكبي عن زياداته. وقد لاحظناه في بحث (ما هو الاستبداد) وفي بحث (الاستبداد والدِّين) إضافات غير قليلة، وهناك

(1) في طبعات طبائع الاستبداد القديمة كلّها، ص2/ 3.

فقرات مُضافة تحت عنوان (ما طبيعة الاستبداد؟ ولماذا يكون المستبدُّ شديد الخوف؟ ولماذا استولى الجبن على رعية المستبدِّ؟). وسنرمز لهذه الطّبعة بالحرفَيْن (ط. م)؛ أي طبعة مُعدَّلة.

أما الطّبعة التي يمكن أنْ تُعَدَّ ثالثة فهي الصّادرة عن المطبعة الرّحمانية بمصر، ومُدوَّن على الكتاب: يُطلب من المكتبة التّجارية الكبرى بأوَّل شارع محمد علي بمصر، لصاحبها مصطفى محمد، (1350 هجري = 1931 ميلادي)، ومُحرِّرُها هو الرّحالة ك. وتقع هذه الطّبعة في / 136/ صفحة من القطع الصّغير، وفيها زيادات بخطِّ المؤلف نفسه، وقد ضُمَّت إليها صفحات إضافية تعادل ضعف المطبوع، وقد كُتبت في رأس الصّفحة مُقدِّمة مُعَدَّلة بخطِّ المؤلف عبارة: مُحرِّرُها هو 465، عبد الرّحمن الكواكبي 465. وتتصدَّرها مُقدِّمة مُعَدَّلة بخطِّ يد المؤلِّف، جاء فيها: «إنَّني في سنة ثماني عشر وثلاثمئة وألف هجرية، هجرتُ دياري سرحاً في الشّرق، فزرتُ مصرَ، واتخذتُها لي مركزاً أرجع إليه [...] في زيارتي هذه لمصر، نشرتُ في أشهر جرائدها بعض مقالات سياسية تحت عنوانات: ما هو الاستبداد؟ وما تأثيره على الدِّين؟ على العلم؟ على التّربية؟ على الأخلاق؟ على المجد؟ على المال؟ إلى غير ذلك. ثمَّ في زيارتي مصر ثانية أجبتُ تكليف بعض الشّبيبة، فوسَّعتُ تلك المباحث، خصوصاً في الاجتماعات، كالتربية والأخلاق، وأضفتُ إليها طرائق التّخلُّص من الاستبداد، و نشرتُ ذلك في كتاب سمَّيتُهُ (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) [...] ثمَّ في زيارتي هذه، وهي الثّالثة، وجدتُ الكتاب قد نفد في برهة قليلة، فأحببتُ أنْ أعيد النّظر فيه وأزيده زيداً مما درستُهُ فضبطتُهُ، أو ما اقتبستُهُ وطَبَّقتُهُ. وقد صرفتُ في

هذا السّبيل عمراً عزيزاً وعناءً غير قليل »[2]. وفي هذه النّسخة إضافات كثيرة في أبحاث « الاستبداد والمجد » و « الاستبداد والمال » و « الاستبداد والأخلاق » وسواها. وسنضرب بعض الأمثلة على اختلاف الطّبعات في حينه، رامزين إلى هذه النّسخة بالحرفَيْن (ط. مخ)؛ أي طبعة مخطوطة.

وعلى هذه الطّبعة اعتمد حفيد الكواكبي (الدّكتور عبد الرّحمن) حين أشرف على طباعة الكتاب سنة (1377 هجري = 1957 ميلادي)؛ حيث اعتُمدت تلك الطّبعة على أنّها الأولى، لأنَّ فيها تنقيحاً بخطِّ المؤلّف نفسه، ومُؤَرَّخة في (1320 هجري = 1902 ميلادي).

ثمَّ طُبعت ثانية في سنة (1393 هجري = 1973 ميلادي) بدار القرآن الكريم في بيروت، وتقع في / 160/ صفحة من القطع المتوسِّط، وهي مطابقة للطّبعة الأولى الموثَّقة.

وقد استُهلَّت هذه الطّبعة الجديدة بكلمة توضيحية للدكتور عبد الرّحمن الكواكبي يقول فيها عن الكتاب: « ظهر هذا الكتاب إلى النّور مطبوعاً منذ أكثر من سبعين عاماً، وأُعيد طبعه مرَّات وفق الأصل الذي بدا به أوّل مرَّة، حتّى ظهرت بين أوراق المؤلّف نسخة من الطّبعة الأولى مُنقَّحة بخطِّ يده « وتوليتُ نشر النّسخة المنقَّحة لأوّل مرَّة في عام (1957)، وحفظتُ المخطوط الأصلي في مديرية الوثائق التّاريخية التّابعة لوزارة الثّقافة بدمشق »[3] تلي ذلك صورتان لورقتَيْن من الأصل بخطِّ المؤلّف وتعديلاته.

---

(2) الصّفحات (1و2) من المقدمّة في النّسخة المودَعَة بدار الوثائق التاريخية بدمشق، وثيقة رقم(1)، ولديَّ نسخة مُصورَّة منها.

(3) يشير د. عبد الرّحمن إلى « أنَّ بعض دور النّشر العربية دأبت على طباعته دون الأخذ بالتنقيح الذي أشرنا إليه » طبائع الاستبداد، ط2، 1973، ص7.

ولكنَّنا ـ دفعاً للالتباس ـ قُمنا بتعديل هذه الطَّبعة بشكل يتوافـق والمخطوطة. وسنرمز إلى طبعة / 1973م/ ، حين استخدامها، بالحروف (ط . ح).

وقـامت مُؤخَّراً مُؤسَّسـة نـاصر للثّقافـة فـي بيروت بنشـر الكتـاب عـام / 1980 م/ تحت سلسـلة الاجتمـاع برقـم / 32 / ، وتحـت عنـوان فرعـي هـو « خزانة الفكر العربي » ، وجاء في / 127 / صفحة من القطـع الصّغير، مـع فهرس للأبحاث، ولكنّنا ـ من خلال المقارنة ـ وجدنا أنَّها تخلط بين الطّبعـات القديمة والجديدة، ولم نعثر لها على منهج في نشر طبعتها تلك. (3)

ثمَّ طُبع الكتاب في (دار الشّرق العربي) حلـب / بيروت، طبعـة ثالثـة (1411 هجـري = 1991 ميـلادي) جـاءت فـي / 160 / صفحـة مـن القطـع المتوسِّط، وقد أحصيتُ في هذه الطّبعة أكثر من ستِّين خطأً طباعياً. (3)

وعثرتُ، مُؤخَّراً، على طبعة قدَّم لها أسعد السّحمراني، ونشـرتْهَا دار النّفائس في بيروت عام 1992 م، ولكنَّـها اعتمـدت علـى نسـخة قديمـة وغير مُنقَّحة أو مزيدة من الكتاب، مما يُسيء إلى فكـر الكواكبـي، ويجعـل اعتمـاد الدّارسين على تلك الطّبعات غير مجدٍ لفهمه. (4)

أمّا الطّبعة التي عكست مدى اهتمامنا الرّسمي بالتّراث وحرصنا عليه، فهي تلـك التـي أنجزتـها بعـض الصّحـف الرّسـميّة (الثّورة ـ السّفير ـ البيـان ـ الأيّـام ـ الحيـاة) بالتّعـاون مـع دار المـدى ضمـن سلسـلة (الكتـاب للجميـع)

---

(4) الغريب أنَّ أسعد السّحمراني في كتابه « الاستبداد والاستعمار وطُرُق مواجهتهما عند الكواكبي والإبراهيمي » الصّادر عن دار النّفائس في بيروت عام 1984م، يورد ضمن مصادره، الأعمال الكاملة للكواكبي، في طبعتها المُعَدَّلة عام 1975م، ثمَّ يطبع كتاب « طبائع الاستبداد » ويُقدِّم له، اعتماداً على النّصِّ القديم المشوَّه، وفي دار النّفائس ذاتها عام 1992م.

عام/ 2002/ . . وقد جاءت تلك الطّبعة في/ 133/ صفحة من القطع الوسط، وكأنّها نسخةٌ مُصوَّرة عن طبعة عام / 1973/ ، وبدى فيها الحرص حتَّى على الأخطاء المطبعيّة التي وردت، وقد أحصيتُ فيها تسعة أخطاء في الآيات القرآنيّة، فضلاً عن أخطاء أخرى تتعلّق بالحديث الشّريف أو ببعض الأعلام. هذا بالرّغم من أنّني أرسلتُ رسائل عدّةً مرّات إلى سبعة من أعضاء الهيئة الاستشاريّة للسّلسلة مُنَبِّهاً إلى الأخطاء الواردة في الطّبعات القديمة، ومُبدياً استعدادي التّطوُّع بالعمل لإصدار الكتاب بشكله اللائق، وكانت الرّسالة على الشّكل الآتي:

الأستاذ المحترم

تحية طيبة؛ وبعد:

أسعدني صدور الكتاب الأوّل من سلسلة (الكتاب للجميع)، وقرأتُ الأسماء التي تنوون إصدار كُتُبها تباعاً، ومن بينها المفكّر النّهضوي عبد الرّحمن الكواكبي من خلال كتابه «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد».

ولأنَّ للكتاب طبعات مختلفة كُلّها ناقصة وغير صحيحة، باستثناء طبعة عام / 1957/ ، التي أُعيد طبعها عام / 1973/ ، وأصدرها حفيده الدّكتور عبد الرّحمن الكواكبي عن دار القرآن الكريم، ثمَّ قمتُ بضبطها وتحقيقها ضمن أعماله الكاملة التي صدرت عن مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت عام / 1995/ ، وحرصاً منّي على نجاح مشروع (الكتاب للجميع)، وعلى إصدار كُتُبه بالشّكل اللائق والصّحيح، يسعدني أنْ

أهديكم - إنْ رغبتم - دراستي وتحقيقي لكتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) على الشّكل الآتي:

صورة للكواكبي

مُقدِّمة (منهجية) صفحتان علىCD

حياته / 3 / صفحات فولسكاب على CD

تحليل طبائع الاستبداد / 10/ صفحات فولسكاب على CD

الكتاب الأساسي مع التّحقيق / 120/ صفحة.

وثائق مُصوَّرة لطبعات الكتاب المختلفة، وتعديلاته بخطِّ ابنه / 15/ صفحة.

وإنني إذ أُبدي استعدادي لإرسالها لكم، أتمنَّى عليكم اعتمادها في إصدار الكتاب.

وأرجو أنْ يتمَّ إصداره خلال شهر حزيران ليتوافق ذلك مع مرور مئة عام على وفاته؛ حيثُ توفي في / 14/ حزيران عام 1902، الموافق 5 ربيع الأوَّل سنة 1320 هـ.

وتفضلوا بقبول فائق التّقدير والاحترام

حلب في 9/ 2/ 2002 — د. محمد جمال طحّان

(ثمَّ أعيد إرسالها في 14/ 3/ 2002) E-mail : J- tahhan@scs-net.org

ص. ب 8997 - هـ 2276085 - 2284441

فاكس 2267674 حلب - سورية

ولم يستجب أحد لندائي باستثناء الأستاذ فخري كريم، الذي تفضّل بالاتّصال بي هاتفياً مُبدياً أسفه من إمكانيّة الاستجابة، لأنّ الأمر يتعلّق بهيئة استشاريّة وإجراءات كثيرة وتكاليف طباعيّة تتطلّب إعادة كتابة الكتابِ المُنجَز على الحاسوب.

وهكذا صدر الكتاب في أواخر الشّهر الخامس من هذا العام (2002)، وحرصاً منّي على تقديم التّراث العربي بصورته الصّحيحة آثرتُ المضيّ في المشروع بدَعْم من **دار صفحات** لنشر «طبائع الاستبداد» بما يليق؛ وذلك بعد أنْ نشرتْ **دار صفحات** كتاب الكواكبي الأوّل (أم القرى) وظهر إلى النّور بما يليق أيضاً.

وإذا لاحظ النُّقّاد الكرام نقصاً فإنّي أتحمّله وحدي.

ماهيّة الاستبداد وطرائق مواجهته

كَتَبَ الكواكبي رؤوس مقالات " طبائع الاستبداد " في حلب، وكان يُعَدِّلها باستمرار، ثمَّ وَسَّعَ تلك الأبحاث ونشرها في كتاب سَمَّاه « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » تتصدَّره عبارة : « وهي كلمات حقّ وصيحة في واد، إنْ ذهبت اليوم مع الرِّيح، لقد تذهب غداً بالأوتاد » مُحرِّرُها هو الرّحالة (ك).

يتألَّف الكتاب من تمهيد ومُقدِّمة وتسع مقالات تحت عناوين :

(ما هو الاستبداد، الاستبداد والدِّين، الاستبداد والعلم، الاستبداد والمجد، الاستبداد والمال، الاستبداد والأخلاق، الاستبداد والتربية، الاستبداد والتَّرَقِّي، الاستبداد والتخلُّص منه).

والكتاب - كما هو واضح - مجموعة مقالات يربط بينها الاستبداد الذي يُشَكِّلُ محوراً يحاول المؤلِّف تبيين أسبابه وأعراضه وعلاقاته وآثاره وبدائله.

يبدأ الكواكبي تمهيده بالقول: ' أقول وأنا مسلم عربي مضطر للاكتتام ' وهذا يمكن أنْ يُعدَّ مجموعة جرائم خطيرة في نظر الحُكْم القائم، (أقول) جريمة تحدٍّ، (وأنا مسلم عربي) جريمتا انتماء، (مضطر للاكتتام) جريمة إشارة إلى القامع. ولكنَّ المؤلِّف اغتنم فرصة وجوده في مصر، وفسحة الحريَّة النّسبيّة التي تنعم بها على عهد (العباس الثّاني، النّاشر

لواء الأمن علـى أكنـاف مُلكـه)، ممَّـا أتـاح لـه إمكانيـة التّصريـح عمَّـا يجـول بخاطره في مشكلات بلاده.

وهو - بعد أنْ يعرض آراء الباحثين فـي سبب الانحطـاط - يتوصَّـل إلـى النّتيجة الآتية : (تمحَّص عنـدي أنَّ أصـل هـذا الـدّاء هـو الاسـتبداد السّياسـي، ودواؤه دفعـه بالشّـورى الدّسـتورية). ويبسط بعـض مبـاحث كتابه، والتغييرات التي طرأت عليها، والمشاقّ التي تكبَّدهـا فـي سـبيل إنجـاز الكتاب، ثمَّ يُبيِّن أغراضه منه: (إنَّما أردتُ بيان طبائع الاستبداد وما يفعـل، وتشخيص مصـارع الاستعباد ومـا يقضيه ويمضيه على ذويه... ولـي هنـاك مقصدٌ آخـر وهـو التّنبيـه لمورد الـدّاء الدّفين، عسـى أنْ يعـرف الذين قضـوا نحبـهم، أنَّـهم المُتسَبِّبُون لمـا حـلَّ بـهم، فـلا يعتبـون علـى الأغيـار ولا علـى الأقدار، إنَّما يعتبون على الجهل، وفقد الهمم، والتواكـل... وعسـى الذيـن فيهم بقية رمق من الحياة يستدركون شأنهم قبل الممات).

والكواكبـي - هنـا - إذ يـهاجم الاستبداد، لا ينفـي مسـؤولية مَـنْ يقـع عليـهم، بـل يوضّـح أنَّ المقـهور كثيراً مـا يكـون دعمـاً لقـاهره - فالمسـتبدُّون يتولاّهم مستبدٌّ، والأحـرار يتولاّهـم الأحـرار، وهـذا صريـح معنـى: (كمـا تكونـوا يُوَلَّـى عليكـم)...[5] فلـو لـم تكـن علاقـات النّـاس الاجتماعيـة فاسدة، لما سادها الاستبداد الـذي لا يتمكَّـن مـن النّـاس إلاّ فـي ظـلّ الجـهل والتعادي (إنَّ العـوام يذبحـون أنفسـهم بأيديـهم بسـبب الخـوف النّاشئ عـن الجهل والغباوة).

---

(5) نلاحظ - هنا - الدّقَّة في اختيار الألفـاظ؛ حيثُ جاء المستبدُّ (مفرداً) في الجملة الأولى، وجاء الأحرار (جمعاً) في الجملة الثّانية؛ حيثُ لا يمكن أنْ يتولّى الأحرارَ حُرٌّ واحد، بـل لابُدَّ من وجود مجموعة حاكمة، حتّى يأخذ الحُكم صبغة ديمقراطية.

ولكنّ هذه المسؤولية نسبيّة، وذلك لأنّ الاستبداد يحفر في عقول العوام لإقناعهم بالباطل. وهنا يأتي دور العلماء الرّاشدين المرشدين الذين يجهدون في توعية النّاس، وفي حَثِّهم على طلب الحريَّة. ثمّ يُبيِّن الكواكبي منهجه في تأليف الكتاب: (وقد تخيَّرتُ في الإنشاء أسلوب الاقتضاب، وهو الأسلوب السّهل المفيد)، محاولاً الابتعاد عن الإلغاز؛ لأنّ هدفه أنْ تصل أفكاره إلى أكبر عدد ممكن من مواطنيه، ليتشكَّلَ ائتلاف يتعاون على دكِّ حصون الاستبداد وفضح مساوئه.

وفي مُقدِّمة الكتاب يذكر المؤلِّف بعض مصادره العربية والإسلامية والأوروبية التي تناولت هذه المسألة، ثمّ ينتقل إلى تعريف علم السّياسة بأنَّه (إدارة الشّؤون المشتركة بمقتضى الحكمة)، أمَّا الاستبداد فهو (التَّصرُّف في الشّؤون المشتركة بمقتضى الهوى). ومن البيِّن أنّ الفرق شاسع بين العبارتَيْن، ففي مقابل (الإدارة)، هناك (تصرُّف)، وفي مقابل (الحكمة) هناك (الهوى). الإدارة فعل يتمُّ بموجب قوانين مُحَدَّدة، وبالشّكل الذي يتوافق والعقل، لتسيير الأمور العمومية وفق مصلحة الأمَّة. أمَّا التَّصرُّف فهو فعل مزاجي يتمُّ انطلاقاً من شهوات المستبدِّ ورغباته، بعيداً عن أيِّ منطق أو تفكير يصبُّ في مصلحة المجتمع. وبذلك يضع الكواكبي (التصرُّف) و(الهوى) خارج دائرة السّياسة. فبحثُهُ إذاً سياسي، وآفة السّياسة: الاستبداد.

أمَّا المقال الأوَّل (ما هو الاستبداد) فيبدأ بتحديد معنى الاستبداد، لغةً واصطلاحاً، فالاستبداد لغةً (هو غرور المرء برأيه، والأنفة عن قبول النّصيحة، أو الاستقلال في الرّأي وفي الحقوق المشتركة)، وهو اصطلاحاً: (تصرّفُ فرد أو جمع في حقوق قوم بالمشيئة وبلا خوف تبعة)، ولم يكتف

بذلك، بل نراه يُعَرِّف الاستبداد بالوصف فيقول: إنَّه (صفة للحكومة المطلقة العنان)؛ فحيثُ يغيب القانون، تتحوَّل العلاقة إلى تابع ومتبوع، وقامع ومقموع، ومُفقِر ومُفقَر، بسبب انعدام العقاب الذي يردع الحُكَّام عن جورهم.

ثمَّ يُبيِّن أشكال الحكومة المستبدَّة، فمنها حكومة الفرد المطلق الذي تَوَلَّى بالغلبة أو بالوراثة، وحكومة الفرد المنتخَب غير المسؤول، أو الجماعة المنتخَبة غير المسؤولة، وحكومة الدّستورية التي تُفَرِّق بين السُّلطات: التّشريعية والتّنفيذية والمراقبة. فَشَكْلُ السُّلطة لا ينفي عنها صفة فعلي قابل للتّنفيذ، وذلك لا يتمُّ إلاّ إذا كان الْمُنَفِّذُون مسؤولين أمام الْمُشَرِّعين، والْمُشَرِّعُون مسؤولون أمام الأمَّة.

ويرى أنَّ أشدَّ مراتب الاستبداد هي حكومة الفرد المطلق، الوارث للعرش، القائد للجيش، الحائز على سلطة دينية (وكلما قلَّ وصفٌ من هذه الأوصاف، خَفَّ الاستبداد). فهو يقيس الاستبداد بمقياس التّضمُّن والشّمول، ويحصره في أكبر عدد ممكن من الصّفات، ليُقَلِّلَ عدد الذين ينطبق عليهم المفهوم، ولنزداد معرفة بصفات الاستبداد الجوهرية.

ثمَّ يُوضِّح معنى الاستبداد لديه : (ويُراد بالاستبداد عند إطلاقه، استبداد الحكومات خاصّة لأنَّها أعظم مظاهر أضراره)، أمَّا ما عداه (فيوصف بالاستبداد مجازاً، أو مع الإضافة) وذلك لأنَّ الحكومة الاستبدادية تُسيطر على شؤون الحياة جميعها، ولا تعتمد في حُكْمها على قاعدة دستورية، سواء في الوصول إلى الحُكْم، أو في تداول السُّلطة. وهي لا تقرُّ إلاّ بما تُشرِّعه هي، وترى أنَّ وجودها بذاته هو القاعدة الدّستورية

الشّرعية الوحيدة للحُكْم. لذلك يطالب الكواكبي بوجود قانون تسير عليه الحكومة تحت إشراف الشّعب.

وعموماً، فهو يرى أنَّ الحكومة لابُدَّ أنْ تستبدَّ ما دامت غير مُراقَبَة، وما دامت قادرة على تأصيل استبدادها، من خلال جهل الأمَّة، وامتلاكها الجنود المنظّمة، لذلك فإنَّ أيّة حكومة مهما يكن ظاهرها العدل تتقلَّب إلى مستبدة متى غفل الشّعب عن مراقبتها.

بعد ذلك ينطلق الكواكبي إلى مناقشة علاقات الاستبداد، انطلاقاً من تعريفه إياه، ففي (الاستبداد والدِّين) يلاحظ أنَّ بعض العلماء يرون أنَّ الاستبداد السّياسي مُتولِّد من الاستبداد الدِّيني، لكنَّه لا يوافقهم على ذلك، بل يعتقد أنَّ البدع هي التي شَوَّهت الأديان، وما ذلك إلاّ بسبب الاستبداد.

إنَّ الاستبداد يُحرِّف الدِّين عن طريق مُدَّعي العلم الذين يحرصون على مصلحة المستبدّ، مُستغلِّين هيبة الدِّين في قلوب النّاس، ومتظاهرين بالتّمسُّك به، في حين أنَّ الأديان براء من كُلّ ما يُنسب إليها من استبداد، وخاصَّة الإسلام الذي جاء هادماً الشِّرْك، ومُحكماً لقواعد الحريَّة السّياسية، فَأَسَّسَ التّوحيد، ونزع كُلَّ سلطة تغلّبية أو دينيّة تتحكَّم في النّفوس أو في الأجسام، بل إنَّ الإسلام قد وضع شريعة حكمة إجمالية صالحة لكُلّ زمان وقوم ومكان، و (لا مجال لرمي الإسلاميّة بتأييد الاستبداد) لأنَّه ليس فيها (نفوذ ديني مطلقاً في غير مسائل إقامة شعائر الدِّين، ومنها القواعد العامّة التّشريعية) التي تصلح إطاراً عاماً لكُلّ أشكال الحكومات العادلة.

وفي الواقع، فإنّ الدِّين الذي يستبدّ ما هو سوى الدِّين الذي يُفرَغ من محتواه، ليبقى مجرَّد إطار لفكرة في يد المستبدِّين، يتيح لهم إنشاء ما يريدونه من ترويج يصبُّ في مصلحتهم، بعيداً عن حقيقة النّصِّ - الأصل. فيُعَزِّزُون التّفسيرات الجديدة التي لا علاقة لها بروح الدِّين، وما ذلك إلاّ لكي يترك النّاسُ الدِّينَ ويتعلّقوا بالتّفسيرات المبتدعة وحسب. وعلى مَرِّ الزّمان لا يجد النّاس أمامهم سوى مجموعة من أحكام وتسويفات لا تمتُّ إلى النّصِّ الأصلي بصلة. ولا يسع الكواكبي إلاّ أنْ يقول: (اللهم إنَّ المستبدِّين وشركاءهم قد جعلوا دينكَ غير الدِّين)؛ حيثُ يتسنَّى للأوَّل تحقيق مآربه، فيُسَمِّي تحريفَ الدِّين عمليةَ استلاب فكرية تستعير قوَّة نفوذ الدِّين على العوام لاسترهابهم باسمه. إنّ سَلْبَ النّاس حرياتهم وحقوقهم لا يحدث إلاّ من خلال هيمنة الجهل على العلم، في حين أنَّ الدِّين (لا يُكلِّف الإنسان قط بالإذعان لشيء فوق العقل).

ويناقش الكواكبي مسألة الاستبداد والعلم في مقاله الثّالث، فيرى أنَّ أقبح أنواع الاستبداد هو استبداد الجهل على العلم، ويُبيِّن فيه موقف المستبدِّ من العلم والعلماء، فالمستبدُّ لا يخشى علوم اللغة، ولا يخاف من علوم الدِّين القصيدية المتعلِّقة بالآخرة وبعلاقة الإنسان بربّه، وإنَّما يخاف من علوم الحياة، والفلسفة العقلية، وحقوق الأمم، (ونحو ذلك من العلوم التي تُكبِّر النّفوس، وتُوسِّع العقول، وتُعرِّف الإنسان ما هي حقوقه، وكم هو مغبون فيها، وكيف الطّلب، وكيف النّوال، وكيف الحفظ). لذلك يخاف المستبدُّ من العلماء الرّاشدين المرشدين، لا من العلماء الذين حَشَوا رؤوسهم محفوظات كثيرة كأنَّها مكتبات مُقفلة، ولا من المنافقين الذين يَسهُل شراؤهم وتوظيفهم في دولة الاستبداد ليُعَزِّزُوا الجهل: (إنَّ بين

الاستبداد والعلم حرباً دائمة وطراداً مُستمراً)، وليس من مصلحة المستبدِّ أنْ تتنوَّر الرّعية، لذلك يعمل الاستبداد على محاربة العلم الذي لا يُهدَم الاستبدادُ إلاّ به، فيسعى العلماء إلى تنوير العقول، ويسعى المستبدُّ إلى تجهيل النّاس مُعتمداً على العوام، لأنَّ (العوام هم قوَّة المستبدِّ وقُوتُهُ)، يذبحون أنفسهم بأيديهم بسبب الجهل الذي يكتنفهم. وفي حين يبذل العلماء جهدهم في بثّ العلم، لا ينفكُّ المستبدُّ يطاردهم ويُنكّلُ بهم. أمَّا التّخلُّص من الاستبداد فلا يكون بغير العودة إلى منابع ديننا الحنيف، ونحن نعلم أنَّ الإسلام هو أوّل دين حضَّ على العلم، وبَيَّنَ أهميته، من خلال أمره بالقراءة أمراً مُكَرَّراً. (والحاصل أنّه ما انتشر نور العلم في أمَّة قطّ، إلاّ وتكسّرت فيها قيود الأسر، وساء مصير المستبدِّين من رؤساء سياسة أو رؤساء دين)، لذلك يحاول المستبدُّ أنْ ينشر الجهل حتَّى ينقلب النّاس إلى مستبدِّين صغار في كنف المستبدِّ الأكبر، يستعيضون من المجد باصطناع التّمجُّد.

ويُفَرّق الكواكبي بين المجد والتّمجُّد، فيرى أنَّ المجد هو إحراز الحُبِّ والاحترام في قلوب النّاس، ولا يُنال إلاّ ببذل المال أو العلم أو النَّفْس في سبيل الجماعة.

والاستبداد يغالب المجد ليقيم التّمجُّد الذي هو خاصّة من خصائص الإدارات المستبدَّة، وهو التّقرُّب من المستبدِّ بالتّزلُّف والمراءاة والنّفاق. ويحاول المستبدُّ الإكثار من المتمجِّدين وتوسيع دائرتهم، لأنَّه فرد عاجز لا حول له ولا قوّة بغيرهم. وحاجته إلى عصابة تحميه، تدفعه كي يستوزر أسافل النّاس الذين تُغريهم مظاهر التّمجُّد والمفاخرة. ويستعين بالأصلاء الذين ينهمكون في إظهار العظمة واسترهاب النّاس.

وكلّما اشتدَّ ظلم المستبدِّ ، احتاج إلى عدد أكبر من الأعوان ليساعدوه على سياسة الطّغيان والفساد . فهل تنتظر الأمّة من هؤلاء المتمجّدين أنْ يُخلّصوها من الاستبداد؟ يجيب الكواكبي : إنّ الأمّة (ليس لها مَنْ يحكّ جلدها غيرُ ظفرها ، ولا يقودها إلاّ العقلاء بالتّنوير والإهداء والثّبات) . ويؤكّد أنّ الاستبداد مرض ، والمستبدُّ إنسان مريض لا يستطيع الخروج بنفسه من أزمته ، وإنّما الذي يُخلّصه من مصابه هو الجماهير التي تدرك حدود الدّاء ، وتعرف أعراضه ، وتشعر بثقل وطأته وفساد تصرّفاته التي تمتدُّ بأذيتها لتشمل القاهرين والمقهورين ، وتنزع عنهم آدميتهم .

وفي فصل (الاستبداد والمال) يحاول الكواكبي أنْ يبحث في نَسب الاستبداد الذي لو كان رجلاً لقال : (أنا الشّرّ وأبي الظّلم ، وأمي الإساءة وأخي الغدر ، وأختي المَسْكَنَة ، وعمّي الضّرّ ، وخالي الذّلّ ، وابني الفقر ، وابنتي البطالة ، وعشيرتي الجهالة ، ووطني الخراب ، أمّا ديني وشرفي وحياتي فالمال المال المال) . ويُعَرّف المال بأنّه قيمة الأعمال ، ولا يجتمع في أيدي الأغنياء إلاّ بالغلبة والخداع . ويبيح التّموُّل ، لأجل قضاء الحاجات ، ضمن ثلاثة شروط هي أنْ يُحصَّل المال بوجه مشروع حلال ، ولا يكون فيه تضييق على الآخرين ، ولا يتجاوز قدر الحاجة بكثير . وذلك لأنّه يرى أنّ الاحتكار والتموُّل المفرط وسلب الأراضي المشاع ، تساعد على إيجاد نوع من الاستبداد المالي الذي يُمَهِّد الطّريق للاستبداد السّياسي . وهنا استفادة المؤلّف من أفكار (روسو) و (مونتسكيو) و (الفييري) ، فضلاً عن معتقداته الإسلاميّة (فالعدالة المطلقة تقتضي أنْ يُؤخذ قسم من مال الأغنياء ويُردُّ

على الفقراء، بحيث يحصل التّعديل ولا يموت النّشاط للعمل)، لذلك فرضتْ الشّريعةُ الإسلاميةُ الزّكاةَ على الأغنياء.

ويُرجع الكواكبي أعمال البشر في تحصيل المال إلى ثلاثة أصول:

1 - استحضار المواد الأصليّة.

2 - تهيئة المواد للانتفاع بها.

3 - توزيعها على النّاس.

وهي أصول تُسمَّى: الزّراعة والصّناعة والتجارة، وكُلُّ ما لا يتصل بهذه الأصول فهو وسيلة ظالمة لتحصيل المال بغير حقّ.

ثمَّ يشير إلى أنَّ الاحتكار يدعم الاستبداد، لذلك يعمل المخلصون على محاربته، ويحرص المستبدُّ على تعزيزه. إنَّ إحدى وظائف الحكومة الأساسية هي ألاّ تسمح بالتّفاوت الفاحش بين النّاس في الدُّخول، بينما يجعل الاستبدادُ الإنسانَ غيرَ أمين على ثمرات تعبه، لأنَّه يُقَوِّي الجشع والاحتكار، ويدعم القيم القائمة على اللصوصية، ليحفظ لنفسه غفلة النّاس عن ممارساته. وفضلاً عن خَلْق التّفاوت الاقتصادي بين النّاس، فإنَّ الاستبداد يُشَجِّع الاكتناز ليدعم الخلاف بين النّاس، ويجعلهم يتصارعون لينشغلوا عنه بإحراز المال وصرفه في إفساد أخلاق النّاس بالفجور ومظاهر التّعاظم، وتعويضاً عن السّفالة الحقيقية. ويخلص المؤلّف إلى نتيجة أنَّ الذّلّ يرسخ في الأمم التي يكثر أغنياؤها المتبطّلون.

أمَّا عن علاقة الاستبداد بالأخلاق فيرى الكواكبي أنَّ للأخلاق دوراً مهمّاً في حياة النّاس، وتأثيراً كبيراً في الميادين الأخرى. فبالأخلاق تتحدَّد

علاقة الإنسان بذاته، وبعائلته، وبقومه، وبالإنسانيّة. ولا يغيب عن الأذهان ما يُلمَحُ في ثنايا أفكار الكواكبي من ربط الأخلاق بالعمل. فبحسب ما تكون أخلاق الفرد تكون أفعاله. من هنا يرى ارتباط الاستبداد بتدنّي الأخلاق، ممّا يمكن معه استلاب الآخرين واستغلالهم. والاستبداد لا يكتفي بإهمال الخير، بل إنّه (يتصرّف في أكثر الأميال الطّبيعية والأخلاق الحسنة، فيُضعفها، أو يفسدها، أو يمحوها) السّياسة الاستبدادية تسود، فيشيع الكذب والنّفاق، ويعين الاستبدادُ الأشرارَ على إجراء غيّ نفوسهم آمنين من كُلّ مؤاخذة، ممّا يجعل فقدان الثّقة، بالنّفس وبالآخرين، يُنْشَرُ في الأمّة فتتشتّت الأسرة، وتكبر صراعاتها الدّاخلية، ويمسي الفرد مُعرّضاً لسلب ماله وعرضه وكرامته، ولا يلقى في حياته سوى الملذّات البهيمية، وهو يأمل بموت قريب.

ويُحذّر الكواكبي من أنْ تنطلي على النّاس حيلة تقديم الاستبداد نفسه على أنّه الأمل الوحيد في التّقدّم، وأنّ فيه من الخيرات ما لا تناله الإدارة الحرّة (وقد يظنّ بعض النّاس أنّ للاستبداد حسنات مفقودة في الإدارة الحرة، فيقولون مثلاً : الاستبداد يُلَيّنُ الطّباع ويُلَطّفها) ويُعلّم النّاس على حُسْن الطّاعة والاعتدال، ويُقلّل الفسق والجرائم. ولكنّ ذلك غير صحيح، لأنّ تلطيف الطّباع يحصل عن فقدان الشّهامة، وتَعَلُّم الطّاعة يكون عن خوف، ولأنّ التّملّق يُسمّى - في زمن الاستبداد - اعتدالاً، والفسق قد يبدو قليلاً، ولكنّ ذلك يرجع إلى تستُّر أصحابه. كما تنقلب تسمية الجريمة، من تَعَدٍّ على الحقوق، إلى حقّ الاكتساب والإثراء والحظوة. وما ذلك سوى مظاهر كاذبة يفرضها الاستبداد على أُسَراه. فهل يمكننا أنْ نقول بعد ذلك، بوجود حسنات للاستبداد؟!

وهنا نرى الكواكبي يتجاوز (محمد عبده) الذي يُطالب بالمستبدّ العادل (مستبدٌّ يُكره المتنكِّرين على التّعارف، ويُلجيء الأهل إلى التّراحم)[6]. كما يرفض قول (الأفغاني) الذي يتيح المجال لاستبداد رجل قويّ عادل[7]. والكواكبي لا يرى في المستبدّ العادل المتوهَّم سوى استبدال مستبدٌّ بآخر، مما يُطوِّر الاستبداد ولا يمحوه، وذلك لأنَّ الحاكم لا يمكن أنْ يقيم عدلاً مع الاستبداد، لأنَّ عدالة السّياسة هي في إشراك المحكومين بالحُكْم. ويُفَرِّق بين الاستبداديْن: الشّرقي والغربي، في أسلوب ممارسة الاستبداد. فيلاحظ أنَّ المستبدّين الغربيين لا يمنعون العلم كُلَّه، وإنّما يحرصون على عدم انتشار أفكار الحرّيّة والحقوق، لكنَّ الشّرقيين يحاربون العلم مهما يكن موضوعه.

والسّياسيون جميعاً يهمُّهم جمع المال، لكنَّ الفرق بين الغربيين والشّرقيين، هو أنَّ المستبدّين الغربيين يشاركون الأمّة في كسبها، بعد أنْ يُعينوها عليه. أمّا الشّرقيّون فهم (لا يفتكرون في غير سلب الموجود). والاستبداد الغربي طويل الأمد، لكنّه يتّصف باللين. أمّا الشّرقي فإنّه سريع الزّوال، شديد الوطأة، يُخَلِّفُ مكانه لاستبداد أسوأ من سابقه.

وعموماً، فإنَّ المجتمعات الغربيّة قد تحوّلت من الاستبداد إلى الاستعمار، أمَّا الاستبداد الشّرقي فإنّه يتوجّه بممارسة العنف نحو مواطنيه.

---

(6) محمد عبده، الأعمال الكاملة، ج1، ص83.

(7) الأفغاني، الأعمال الكاملة، ص21.

وفي (الاستبداد والتربية) يرى الكواكبي أنّ الله خلق الإنسان وفيه استعداد للصّلاح والفساد. والتربية هي التي تدفع الإنسان في إحدى الطّريقَيْن، وهي تنشأ بالتّعليم والمران والقدوة الحسنة، فأهمّ أصولها وجود المُرَبِّين، وأهمّ فروعها وجود الدِّين. والاستبداد يُفسد الأصول والفروع، فيحرف التّربية عن مرماها الصّحيح، ويُقَوِّي خصال الكذب والخداع والنّفاق. إنّ الحكومة المنتظمة تتولّى تسهيل التّربية وتعميمها من خلال قوانين ترسمها لخدمتها، لذلك يعيش الإنسان، في ظلّ دولة الحريَّة، سعيداً ونشيطاً على العمل، عُدَّتُهُ التّربية الصّالحة. أمّا أسير الاستبداد فيعيش شقياً خاملاً لا هدف له من وراء تربية أبنائه، لأنّه يجد سطوة الاستبداد تُفسد ما يبنيه. وهو لا يحرص إلاّ على إخفاء (ذهبه وذهابه ومذهبه). وهكذا يعيش الأسير (يُودِّع سقماً، ويستقبل سقماً، إلى أنْ يفوز بنعمة الموت، مُضيِّعاً دنياه مع آخرته، فيموت غير آسف ولا مأسوف عليه) يُبْغِضُ المستبدَّ ولا يقدر عليه، فيصرف بأسه في معاداة أهله وجيرانه.

وكأنّنا بالكواكبي - هنا - يُرَدِّدُ صدى الآية الكريمة: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[8].

والتربية، عند الكواكبي، ليست تلقيناً وتحفيظاً؛ بحيثُ تغدو النّفوس مقبرة للكتُب، بأسلوب التّرغيب والترهيب، وإنّما هي عمليّة تقوم على الحوار والإقناع، وتتأثّر بالمحيط وبالوراثة. فأنّى للإنسان القدرة على تحقيقها في ظلّ الاستبداد الذي يُحَرِّم التّفكير والحوار!.

---

(8) سورة الإسراء، الآية 72.

لقد استطاع المؤلّف أنْ يُصَوِّر التّربية في مراحل علاقتها بالاستبداد: كيف تُمهِّد له حين تُهمَل، وكيف يألف النّاس غيابها في ظلّه، وكيف ينتشر النّفاق خشية أذى المستبدِّ، ثمَّ لا يلبث الاستبداد أنْ يهدم ما قد تبنيه التّربية من جانب بعض العلماء الذين يصرُّون على إحيائها، ويُربِّي النّاس على التّلقِّي والطّاعة من غير أنْ يستخدموا عقولهم.

إنَّ حديث الكواكبي عن الدِّين والعلم والتربية حديث متكامل، ويتعلَّق بتبيين علاقة الاستبداد بالفكر، وينتهي إلى رفض الاستلاب، وإلى الدّعوة لإنشاء فكر مُتنوِّر، مبيّناً أنَّ التّراخي وغياب النّقد يُؤدِّيان إلى تسطيح الدِّين وإلى الجهل الشّامل والتربية المفقودة. وحين يصل الكواكبي إلى (الاستبداد والتَّرَقِّي) يُقدِّم لهذا المقال بتحديد التَّرَقِّي انطلاقاً من أنَّ الحركة هي سُنَّة الخليقة، وأنَّ التَّرَقِّي هو الحركة الحيوية التي تقابل حركة الهبوط أو الموت، وأنَّ الأمم يمكن أنْ تتميَّز من خلال ملاحظة الحركة الغالبة عليها، هل هي حركة شخوص أم هبوط؟! ثمَّ يُعرِّف الأمَّة بأنَّها مجموعة أفراد يجمعها نَسب أو وطن أو لغة أو دين، وهي تترقَّى مع تَرَقِّي أفرادها. والإنسان يسعى وراء التَّرَقِّي ما لم يعترضه الاستبداد الذي يحول دون التَّرَقِّي ويُحَوِّله إلى الانحطاط. وقد يظنُّ بعض النّاس أنَّ الدِّين يقف حائلاً بين النّاس والتَّرَقِّي. ولكنَّ الحقيقة أنَّ الأديان الصّحيحة إنَّما جاءت لترقية الإنسان وتهذيب أخلاقه.

ثمَّ يُوَجِّه الكواكبيُّ العاقلَ الحريصَ على إيقاظ قومه، فيشرح له كيف يرشدهم إلى التَّرَقِّي، ويُذكِّرهم بعبر التّاريخ، وبأهداف الدِّين، حتَّى يصل بهم إلى طلب حكومة مُنتظمة تواجه الاستبداد وتتمسَّك بالشّرع، حتَّى يصير التّشريع في يد الأمَّة، وتنتشر المحاكم التي تحاكم النّاس على قدر

المساواة، وتعمل الأمّة على مراقبة عمل الحكومة حتّى لا تتعدّى حدود وظائفها ولا تُقَصِّر عنها.

هكذا يلاحظ الكواكبي أنّ أعظم الشّرور التي يُولِّدها الاستبداد، إنَّما يتمثّل في عرقلة التَّرَقِّي وتحويل سير الأمّة إلى الانحطاط. ومن هنا فإنّ أيّ تذرّع بالطّغيان لأجل تحقيق التّقدُّم هو تذرُّع مرفوض، لأنّ الاستبداد يقوم على التّبعية التي لا يمكنها تحقيق التّقدُّم على أيّ صعيد. إنّ الاستبداد يعمل على قمع حريّة العلم والدّين والفكر، فكيف يمكنه، بعد ذلك، ادّعاء طلب التّقدُّم؟!.

لقد شرح الكواكبي طبائع الاستبداد وعلاقاته، وألمّ بأشكاله الرّئيسة، لكنّه قصّر عن التّفصيل في تأثيراتها، وهذا مشروع تاريخيّاً وواقعياً، لأنّ الوعي بالاستبداد لم يكن ليبدو واضحاً - آنذاك - إلاّ في شكل حكومة مُتسلِّطة. فلم يكن من الممكن أنْ يتمّ إدراك إمكانية تلاعُب صاحب الثّروة بالقيم الاجتماعية جميعها، بما في ذلك النّظام السّياسي نفسه. ولم تكن وسائل الإعلام قادرة على تحويل الرّأي العام وتسطيحه، كما تفعل اليوم بما لديها من تقنيّات هائلة وإغراءات مُتنوّعة.

لكنّنا، من جهة أخرى، لا نُنكر وجود إشارات غامضة عنده لمثل هذه التّأثيرات. ولكنّ الحكومة، كما لاحظ الكواكبي - بحقّ - هي صاحبة الكلمة الأولى التي تتيح المجال لاستبداد المُؤسّسات الأخرى التي يسهل عليها أنْ تتأبّط - بما تملكه من قوّات - الفكر والثّروة والسّلاح.

وقبل دعوته إلى (التخلُّص من الاستبداد) ينادي الكواكبي بحكومة عادلة، شارحاً للنّاس فضائلها؛ حيثُ يعيش الإنسان في ظلّها أميناً على

حياته وملذّاته وحرّيته، يتمتّع بالعدل والمساواة، لا يخاف على ماله من مغتصِب، ولا على كرامته من مُستلِب، (وأنفع ما بلغه التَّرَقِّي في البشر، هو إحكامهم أصول الحكومة المنتظمة ببنائهم سداً متيناً في وجه الاستبداد).

وللوصول إلى ذلك يدعو المؤلّف إلى استقراء الأحداث، واستخلاص العِبر من التّاريخ الطّبيعي؛ حيثُ مرَّ الإنسان بأدوار مختلفة في الحياة من (دور الافتراس) إلى (دور الاقتناء) إلى (دور التّحضُّر)، فتجبَّرَ وتسلَّطَ، وصار قانونه أنْ يكون إمّا ظالماً أو مظلوماً. ثمَّ ترقَّى سُكَّان المدن، وتوجَّه قسم منهم إلى الصّناعة، وقسم إلى العلم، وتنوَّعت أشكال الحكومات، ولم يستقرّ النّاس على شكلٍ مُرضٍ عام.

ثمَّ يُعَدِّد خمسة وعشرين مبحثاً يراها رؤوسَ مسائل لابُدَّ أنْ تُطرح للتّدقيق من أجل التّوصُّل إلى شكل مقبول للحُكْم، وهي: ما هي الأمَّة أو الشّعب، ما هي الحكومة، ما هي الحقوق العمومية، التّساوي في الحقوق، الحقوق الشّخصية، نوعية الحكومة، وظائف الحكومة، حقوق الحاكمية، طاعة الأمَّة للحكومة، توزيع التّكليفات، إعداد المَنَعَة، مراقبة الحكومة، حفظ الأمن، حفظ السُّلطة في القانون، تأمين العدالة القضائية، حفظ الدِّين والآداب، تعيين الأعمال بقوانين، كيف توضع القوانين، ما هو القانون وقوته، توزيع الأعمال والوظائف، التّفريق بين السُّلطات السّياسية والدِّينية والتعليم، التَّرَقِّي في العلوم والمعارف، التّوسيع في الزّراعة والصّناعة والتجارة، السَّعي في العمران، السَّعي في رفع الاستبداد.

ويبدأ بالحديث عن الموضوع الأخير مُبيِّناً أنَّ رفع الاستبداد مشروط بثلاث قواعد:

1 ـ شعور الأمَّة بآلام الاستبداد .

2 ـ مقاومة الاستبداد باللِّين والتَّدرُّج .

3 ـ تهيئة البديل .

ويُحَمِّلُ، أخيراً، مسؤوليّة الاستبداد الأممَ التي تقبل الذّلَّ، وذلك لأنَّ الأمَّة مسؤولة عمّن تُحَكِّمُهُ عليها. ثمَّ ينهي كتابه بخاتمة بُشرى، لأنَّه يلاحظ أنَّ النّاس بدؤوا بالاستيقاظ بعد أنْ التفتوا إلى العلم الذي بواسطته يمكن الإنسان أنْ يعيش في مجتمع يحكمه العدل، وتسوده المحبّة والإخاء.

من خلال سبر ما جاء في « طبائع الاستبداد » نلاحظ أنَّ الاستبداد فعل من أفعال مَنْ يملك نوعاً من القوَّة الماليّة أو العدديّة أو الفكريّة أو الوراثيّة، ثمَّ يحاول أنْ يحوز على باقي القوى ليتوجّها بالقوَّة السّياسيّة التي تجعل القوى الأخرى مجرَّد توابع تتعاون معها للحفاظ على مكتسباتها من وجود واقع فاسد.

وأنَّ الاستبداد يُكَوِّن مجتمعاً استبدادياً تُسيطر عليه شبكة معقَّدة من الآسرين الذين يُخضعون النّاس، فيجعلونهم أسرى يبغضون المستبدَّ ولا يقوون على محاربته، لذلك يتعادون فيما بينهم، ويظلمون ضعفاءهم ونساءهم، فيصبح كُلُّ إنسان مظلوماً من جهة، وظالماً من جهة أخرى. ويبرز من بينهم شخص يستلم زمام السّلطة السّياسية فيتَّحد به الآخرون مُتأثِّرين بالدّعاية. وهذا النّفوذ لا يأتيه عن طريق مُؤهّلاته الشّخصيّة، وإنَّما يستمدُّه من سلسلة الأكاذيب التي يُطلقها هو وأعوانه، فيكثر عدد الذين يمارسون الاستبداد باسم الدّولة، وباسم حماية القانون، ويزداد عدد الأشخاص الذين ينبغي للمواطنين الانصياع لأوامرهم.

كما اتَّضح أنَّ للاستبداد أثراً سيئاً بكُلِّ ما له علاقة به، فيُحوِّل الدِّين إلى وسيلة استلاب، ويمنع تداول العلم، ويُفسد الأخلاق والعلاقات الإنسانيّة، ويُعزِّز التّفاوت بين النّاس ليُبقيهم في صراع دائم حول الامتلاك، ويجعلهم يتدافعون لإحراز الثّروات.

وتبيَّن أنَّ الاستبداد ضدَّ التّقدُّم، لهذا لابُدَّ من هَدْم صرحه ودَكِّ حصونه واستبداله. وتركَّزت بدائل الاستبداد في فكر الكواكبي بالمساواة والعدالة والحريَّة والشّورى الدّستوريّة.

وقد ارتبطت المساواة عنده بالعدالة، وشدَّدَ على الجانب السّياسي لهما. كما احتلَّت الحريَّة مكانة كبيرة لديه، وخاصة حريَّة الاعتقاد والتفكير، وحتَّى المشاركة السّياسية. وقد ربط الحريَّة بالوعي؛ إذ لا حريَّة من دون القدرة على امتلاكها معرفياً وشعوريّاً ومادياً.

وكان هدفه الأكبر تحقيقَ الشّورى الدّستوريّة؛ حيثُ يشارك المواطنون الحكومةَ في صُنع مصائرهم، عن طريق أهل الحلِّ والعقد في الأمَّة، ثمَّ جمع تلك البدائل كُلَّها في الإسلاميّة التي وجد أنَّها حَلٌّ شامل لمشكلات أمَّته.

وقد كان منهج الكواكبي في رفع الاستبداد يعتمد الأسلوب التّدريجي الذي ينهض بتكاتف العقول الواعية في الأمَّة، التي تُنَظِّم أساليب القيام بالإصلاح الدِّيني تمهيداً للتّغيير السّياسي.

كما جاءت آراؤه في رفض الاستبداد متوافقة وسيرة حياته، بدءاً من منصب قضائي في (راشيّا)، وانتهاء بموته الغامض كدليل حاسم على صلابة مواقفه، واستمرار تناسُقها، إلى نهاية حياته.

وهو مُفكِّر ينطلق من الواقع، ويُفكِّر بطريقة واقعيّة، فهو لم يكتف بالنّاحية السّلبية التي تصف الاستبداد، بل لقد درس طرائق مواجهته بالعلم والتعاون وتجاوز الخلافات المذهبيّة، وطالب بالتزام الشّريعة الإسلامية حلاً شاملاً، ولكي تتحقَّق العدالة يجب ألاّ تكون الحكومة مركزيّة، وأنْ يكون فيها قانون عادل وملائم ومراقَب، وأنْ تتوافر إمكانيّة محاسبة الحُكّام، بناءً على قانون مصاغ بما لا يخالف أصول الإسلام.

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة الكتاب

الحمد للّه ، خالق الكون على نظام مُحكم متين ، والصّلاة والسّلام على أنبيائه العظام ، هُداة الأمم إلى الحقّ المبين ، لاسيما منهم على النّبي العربي الذي أرسله رحمة للعالمين ، ليرقى بهم معاشاً ومعاداً على سلم الحكمة إلى علّيين .

أقول وأنا مسلم عربي مُضطر للاكتتام[9] شأن الضّعيف الصّادع بالأمر ، المعلن رأيه تحت سماء الشّرق ، الرّاجي اكتفاء المطالعين بالقول عمّن قال : وتعرف الحقّ في ذاته لا بالرّجال ، إنني في سنة ثماني عشر وثلاثمائة وألف هجرية[10] هجرتُ دياري سرحاً في الشّرق ، فزرتُ مصر ، واتخذتُها لي مركزاً أرجع إليه مغتنماً عهد الحرّيَّة فيها على عهد عزيزها[11] حضرة

(9) إشارة إلى استخدامه الاسم المستعار (الرحالة ك) في هذا الكتاب .

(10) تقابل عام (1900م) .

(11) في (ط . ق) : « عزيزها ومعزّها » .

سَمِيَ عم النّبي (العباس الثّاني)[12] النّاشر لواء الأمن على أكناف مُلْكه[13]، فوجدتُ أفكار سراة القوم في مصر كما هي في سائر الشّرق خائضةً عباب البحث في المسألة الكبرى، أعني المسألة الاجتماعية في الشّرق عموماً وفي المسلمين خصوصاً، إنما هم كسائر الباحثين، كُلٌّ يذهب مذهباً في سبب الانحطاط وفي ما هو الدّواء. وحيثُ إني قد تمحّص عندي أنَّ أصل الدّاء هو الاستبداد السّياسي ودواؤه دفعه بالشّورى الدّستورية. وقد استقرَّ فكري على ذلك ـ كما أنَّ لكُلِّ نبأ مستقراً ـ بعد بحث ثلاثين عاماً... بحثاً أظنُّه يكاد يشمل كُلَّ ما يخطر على البال من سبب يتوهَّمُ فيه الباحث عند النّظرة الأولى، أنَّه ظفر بأصل الدّاء أو بأهمِّ أصوله، ولكنْ؛ لا يلبث أنْ يكشف له التّدقيق أنَّه لم يظفر بشيء، أو أنَّ ذلك فرعٌ لأصل، أو هو نتيجةٌ لا وسيلة.

فالقائل مثلاً: إنَّ أصل الدّاء التّهاون في الدِّين، لا يلبث أنْ يقف حائراً عندما يسأل نفسه لماذا تهاون النّاس في الدِّين؟ والقائل: إنَّ الدّاء اختلاف الآراء، يقف مبهوتاً عند تعليل سبب الاختلاف. فإنْ قال: سببه الجهل، يَشْكُلُ عليه وجود الاختلاف بين العلماء بصورة أقوى وأشدّ. وهكذا؛ يجد نفسه في حلقة مُفرغة لا مبدأ لها، فيرجع إلى القول: هذا ما يريده الله بخلقه، غير مكترث بمنازعة عقله ودينه له بأنَّ الله حكيمٌ عادلٌ رحيمٌ...

---

(12) عباس حلمي بن توفيق، خديو مصر (1892 ـ 1914). حاول مقاومة الاحتلال البريطاني لمصر، خلعه البريطانيون، بعد أنْ فرضوا حمايتهم على مصر، ونفوه إلى سويسرا.

(13) في (ط. ق): كان النّصّ كالآتي: «النّاشر لواء الحرية على أكناف ملكه».

والتعديلان السّابقان يشيران إلى تراجع علاقة الكواكبي بالخديو الذي بدأت تتحسّن علاقته بالسّلطان عبد الحميد الثّاني.

وإنّي، إراحةً لفكر المطالعين، أُعدِّد لهم المباحث التي طالما أتعبتُ نفسي في تحليلها، وخاطرتُ حتّى بحياتي في درسها وتدقيقها، وبذلك يعلمون أنّي ما وافقتُ على الرّأي القائل بأنَّ أصل الدّاء هو الاستبداد السّياسي إلاّ بعد عناء طويل يرجح أنّي قد أصبتُ الغرض. وأرجو الله أنْ يجعل حُسنَ نيّتي شفيعَ سيئاتي، وهاهي المباحث:

في زيارتي هذه لمصر، نشرتُ في أشهر جرائدها[14] بعض مقالات سياسية تحت عنوانات الاستبداد: ما هو الاستبداد وما تأثيره على الدِّين[15]، على العلم، على التّربية، على الأخلاق، على المجد، على المال... إلى غير ذلك.

ثمَّ في زيارتي إلى مصر ثانيةً أجبتُ تكليف بعض الشّبيبة، فَوَسَّعتُ تلك المباحث خصوصاً في الاجتماعيات كالتربية والأخلاق، وأضفتُ إليها طرائق التّخلُّص من الاستبداد، ونشرتُ ذلك في كتاب سمَّيْتُهُ (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)[16] وجعلتُهُ هديةً مني للنّاشئة العربية المباركة الأبيّة المعقودة آمال الأمّة بِيُمْنِ نواصيهم. ولا غروَ فلا شباب إلاّ بالشّباب.

ثمَّ في زيارتي هذه، وهي الثّالثة، وجدتُ الكتاب قد نفد في برهة قليلة، فأحببتُ أنْ أعيد النّظر فيه، وأزيده زيداً مما درستُهُ فضبطتُهُ، أو ما اقتبستُهُ وطبَّقتُهُ، وقد صرفتُ في هذا السّبيل عمراً عزيزاً وعناءً غير قليل... وأنا لا أقصد في مباحثي ظالماً بعينه ولا حكومة أو أمّة مخصّصة، إنما أردتُ

---

(14) المؤيّد والعمران. وقد بيّنّا تفاصيل ذلك في مُقدّمتنا للأعمال الكاملة للكواكبي التي صدرت عن مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت، عام 1995.

(15) كذا في الأصل، والصّواب: تأثيره في الدِّين.

(16) حدث ذلك في سنة 1319 هـ، 1901م.

بيان طبائع الاستبداد وما يفعل، وتشخيص مصارع الاستعباد وما يقضيه ويمضيه على ذويه... ولي هناك قصدٌ آخر؛ وهو التّنبيه لمورد الدّاء الدّفين، عسى أنْ يعرف الذين قضوا نحبهم، أنّهم هم المُتسَبِّبون لما حلَّ بهم، فلا يعتبون على الأغيار ولا على الأقدار، إنما يعتبون على الجهل وفَقْدِ الهمم والتّواكل. . وعسى الذين فيهم بقية رَمَقٍ من الحياة يستدركون شأنهم قبل الممات...

وقد تخيَّرتُ في الإنشاء أسلوب الاقتضاب، وهو الأسلوب السّهل المفيد الذي يختاره كُتّاب سائر اللغات، ابتعاداً عن قيود التّعقيد وسلاسل التّأصيل والتّفريغ. هذا وإنّي أخالف أولئك المُؤلّفين، فلا أتمنى العفو عن الزّلل؛ إنما أقول:

هذا جهدي، وللناقد الفاضل أنْ يأتي قومه بخير منه. فما أنا إلا فاتح بابٍ صغير من أسوار الاستبداد. عسى الزّمان يوسِّعه، واللّه وليُّ المهتدين.

1320 هـ - 1902 م

مُقَدِّمَة

لا خفاءَ أنَّ السّياسة علم واسع جداً، يتفرَّع إلى فنون كثيرة ومباحث دقيقة شتَّى. وقلّما يوجد إنسان يحيط بهذا العلم، كما أنَّه قلّما يوجد إنسان لا يحتكُّ فيه.

وقد وُجد في كُلِّ الأمم المترقية علماءُ سياسيون، تكلَّموا في فنون السّياسة ومباحثها استطراداً في مدوّنات الأديان أو الحقوق أو التّاريخ أو الأخلاق أو الأدب. ولا تُعرَف للأقدمين كُتُبٌ مخصوصة في السّياسة لغير مُؤسِّسي الجمهوريات في الرّومان واليونان، وإنما لبعضهم مُؤلَّفات سياسية أخلاقية ككليلة ودمنة[17] ورسائل غوريغوريوس[18]، ومُحرّرات سياسية دينية كنهج البلاغة[19] وكتاب الخراج.[20]

وأما في القرون المتوسطة فلا تؤثر أبحاث مُفصَّلة في هذا الفن لغير علماء الإسلام؛ فهم ألَّفوا فيه ممزوجاً بالأخلاق كالرازي[21]،

(17) مجموعة من قصص الحيوان، تُمَثِّل حكمة الهند. ترجمه عبد الله بن المقفع من الفهلوية إلى العربية.

(18) غريغوريوس التّازيانزي (329 ـ 390) بطريرك القسطنطينية. كان شاعراً وخطيباً، وله رسائل شهيرة في السّياسة.

(19) كتاب شهير من كلام علي بن أبي طالب، جمعه الشّريف الرّضيّ.

(20) فرع من فروع التّأليف الفقهي، صنّف فيه كثيرون، منهم: القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، ويحيى بن آدم، وقدامة بن جعفر، وابن رجب، وغيرهم.

(21) أبو بكر محمد بن زكريا (864 ـ 932 م) من أشهر أطباء العرب، من أشهر مؤلَّفاته (الحاوي).

والطّوسي[22]، والغزالي[23]، والعلائي[24]، وهي طريقـة الفُرْسِ، وممزوجاً بالأدب كالمعري[25]، والمتنبي[26]، وهـي طريقـة العرب، وممزوجاً بالتّاريخ كابن خلدون[27]، وابن بطوطة[28]، وهي طريقة المغاربة.

أمّا المتأخِّرون من أهل أوروبا، ثمّ أميركا، فقد توسّعوا في هـذا العلـم وألّفوا فيه كثيراً وأشبعوه تفصيلاً، حتّى إنّهم أفردوا بعض مباحثه في التّأليف بمجلّدات ضخمة، وقـد ميّزوا مباحثـه إلـى سياسـة عموميـة، وسياسـة خارجيـة، وسياسـة إدارية، وسياسـة اقتصاديـة، وسياسـة حقوقيـة، إلـخ. وقسّموا كلاً منها إلى أبواب شتّى وأصول وفروع.

---

(22) نصير الدّين الطّوسي (598 ـ 673 هـ؛ 1201 ـ 1274 م) فيلسـوف فارسـي، لـه شـأن في العلوم العقلية والرّياضيات والفلك. وُلد في طوس قرب نيسابور. كتب بالعربية وله مصنفـات كثيرة، منها في الفلسفة وفي المنطق وفي التّصوّف وسواها.

(23) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (450 ـ 505 هـ؛ 1058 ـ 1111 م) فيلسوف ومُتكلِّم صوفي. لُقِّب بحجة الإسلام. من مؤلّفاته: تهافت الفلاسفة، إحياء علوم الدّين، المنقذ من الضّلال.

(24) علي بـن الحسـين بـن عبـد العـالي الكركـي العلائـي (868 ـ 940 هـ؛ 1463 ـ 1534 م) فارسي الأصل، وُلد في سورية، وعمل مستشاراً للشّاه طهماس بن إسماعيل الصّفوي، يُلقّب بالمحقِّق الثّاني.

(25) أبو العلاء المعري (363 ـ 450 هـ؛ 973 ـ 1058 م) شاعر ذو نزعة فلسفية، وُلـد فـي معرة النّعمان.

(26) أبو الطّيب أحمد بن الحسين المتنبي (303 ـ 354 هـ؛ 915 ـ 965 م) شاعر مُتكبِّر طمـوح، امتدح سيف الدّولة، ثمّ كافوراً. قُتل قرب دير العـاقول فـي عودتـه مـن فـارس إلـى بغـداد. لـه ديوان شرحه كثيرون، كتب أفضل قصائده في حلب التي عاش فيها عشر سنوات.

(27) أبو زيد عبد الرّحمن بن محمد بن خلدون (732 ـ 809 هـ؛ 1332 ـ 1406 م) واضع علم الاجتماع ومنهج التّاريخ والعمران. صاحب مُقدِّمة كتاب العبر.

(28) محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي (704 ـ 780 هـ؛ 1304 ـ 1378 م) رَحّالة مغربي وُلد في طنجـة، وطـاف العـالم فـي تسـع وعشـرين سـنة. لـه: تحفـة النُّظّـار فـي غرائـب الأمصار وعجائب الأسفار.

وأمّا المتأخِّرون من الشّرقيين، فقد وُجد من التّرك كثيرون ألّفوا في أكثر مباحثه تآليف مُستقلّة وممزوجة مثل: أحمد جودة باشا[29]، وكمال بك[30]، وسليمان باشا[31]، وحسن فهمي باشا[32]، والمؤلّفون من العرب قليلون ومُقلّون، والذين يستحقّون الذّكر منهم فيما نعلم: رفاعة بك[33]، وخير الدّين باشا التّونسي[34]، وأحمد فارس[35]، وسليم البستاني[36]، والمبعوث المدني.[37]

---

(29) أحمد جودت باشا (1238 ـ 1313 هـ؛ 1822 ـ 1895 م) مُؤرّخ وسياسي عثماني، بلغاري الأصل. ساهم في (التنظيمات) وحرّر مجلة (إقدام). من مؤلّفاته: تاريخ جودت، 12 مج. وترأس لجنة تأليف (مجلة الأحكام العدلية).

(30) كمال محمد نامق (1256 ـ 1306 هـ؛ 1840 ـ 1888 م). أديب تركي من الأحرار، كان لأدبه دورٌ بارز في القومية التّركية، وخاصة في روايته (الوطن).

(31) سليمان بن عبد الله بن يحيى الطّرابلسي الباروني (1827ـ1359 هـ؛ 1870ـ1940م). زعيم مجاهد، انتقد السّياسة العثمانية. وحين أُعلن الدستور اختير نائباً عن طرابلس في «مجلس المبعوثان».

(32) من المناضلين الأتراك ضدّ السّلطة العثمانية.

(33) رفاعة رافع الطّهطاوي (1216 ـ 1290 هـ؛ 1801 ـ 1873 م) أزهري مصري. من روّاد النّهضة العربية الحديثة. أدار مدرسة الألسن. عَرَّبَ وألّف كُتُباً كثيرة منها: تخليص الإبريز... ومناهج الألباب...

(34) نهضوي ومصلح سياسي تونسي (1237ـ 1308 هـ؛ 1821ـ 1890 م) نشأ رقيقاً، ثمّ تسلّم مناصب عديدة في الحكومة العثمانية، وحاول أنْ يُطَبّق آراءه النّهضوية فيها. له: أقوم المسالك...

(35) أحمد فارس الشّدياق (1219 ـ 1306 هـ؛ 1804 ـ 1888 م) صحفي وأديب، أنشأ صحيفة (الجوائب). له: كنز الرّغائب في منتخبات الجوائب. (7ج) والسّاق على السّاق...

(36) أديب وصحفي لبناني (1256 ـ 1302 هـ؛ 1848 ـ 1884 م) كان أحد مُحَرّري دائرة المعارف. اشترك مع والده في تحرير صحيفة الجنان و(الجنينة) و(الجنة). له: تاريخ فرنسا الحديث وتاريخ نابليون...

(37) ربما يكون أحد المشاركين في مؤتمر (أم القرى) الذي تخيّله الكواكبي في كتابه الذي يحمل الاسم نفسه. وَوَضْعُ الاسم هنا يدلُّ على طرافة الكواكبي ونزعته إلى السّخرية التي توضّحت في أسلوبه الصّحفي، كما لاحظنا سابقاً، وقد حرّف اسم المُحقّق المدني إلى المبعوث. وهذه الملاحظة تُعزّز القول إنّ كتاب طبائع الاستبداد جاء بعد كتاب أم القرى.

ولكنْ؛ يظهر لنا أنَّ المحرِّرين السّياسيين من العرب قد كثروا، بدليل ما يظهر من منشوراتهم في الجرائد والمجلات في مواضع كثيرة، . ولهذا؛ لاح لهذا العاجز أنْ أُذكِّر حضراتهم على لسان بعض الجرائد العربية بموضوع هو أهمّ المباحث السّياسية، وقَلَّ مَنْ طَرَقَ بابه منهم إلى الآن، فأدعوهم إلى ميدان المسابقة في خير خدمة ينيرون بها أفكار إخوانهم الشّرقيين وينبِّهونهم - لا سيما العرب منهم - لما هم عنه غافلون، فيفيدونهم بالبحث والتّعليل وضرب الأمثال والتّحليل (ما هو داء الشّرق وما دواؤه؟).

ولمّا كان تعريف علم السّياسة بأنّه هو «إدارة الشّؤون المشتركة بمقتضى الحكمة» يكون بالطّبع أوّل مباحث السّياسة وأهمها بحث (الاستبداد)؛ أي التّصرُّف في الشّؤون المشتركة بمقتضى الهوى.

وإني أرى أنَّ المتكلِّم في الاستبداد عليه أنْ يُلاحظ تعريف وتشخيص «ما هو الاستبداد؟ ما سببه؟ ما أعراضه؟ ما سيره؟ ما إنذاره؟ ما دواؤه؟» وكُلُّ موضوع من ذلك يتحمَّل تفصيلات كثيرة، وينطوي على مباحث شتَّى من أمهاتها: ما هي طبائع الاستبداد؟ لماذا يكون المستبدُّ شديد الخوف؟ لماذا يستولي الجبن على رعيّة المستبدِّ؟ ما تأثير الاستبداد على الدِّين؟ على العلم؟ على المجد؟ على المال؟ على الأخلاق؟ على التَّرقِّي؟ على التّربية؟ على العمران؟

مَنْ هم أعوان المستبدِّ؟ هل يُتحمَّل الاستبداد؟ كيف يكون التّخلُّص من الاستبداد؟ بماذا ينبغي استبدال الاستبداد؟

قبل الخوض في هذه المسائل يمكننا أنْ نشير إلى النّتائج التي تستقرُّ عندها أفكار الباحثين في هذا الموضوع، وهي نتائج مُتَّحدة المدلول مختلفة التّعبير على حسب اختلاف المشارب والأنظار في الباحثين، وهي:

يقول المادي: الدّاء: القوَّة، والدّواء: المقاومة.

ويقول السّياسي: الدّاء: استعباد البرية، والدّواء: استرداد الحريَّة.

ويقول الحكيم: الدّاء: القدرة على الاعتساف، والدّواء: الاقتدار على الاستنصاف.

ويقول الحقوقي: الدّاء: تغلُّب السّلطة على الشّريعة، والدّواء: تغليب الشّريعة على السّلطة.[38]

ويقول الرّبّاني: الدّاء: مشاركة الله في الجبروت، والدّواء: توحيد الله حقّاً.

وهذه أقوال أهل النّظر. وأما أهل العزائم:[39]

فيقول الأبيُّ: الدّاء: مَدُّ الرّقاب للسّلاسل، والدّواء: الشّموخ عن الذّلّ.

ويقول المتين: الدّاء: وجود الرّؤساء بلا زمام، والدّواء: ربطهم بالقيود الثّقال.[40]

---

(38) نلاحظ - هنا - أن الكواكبي يريد أنْ تكون الشّريعة (القانون) هي الإطار العام الذي يُراقَب من خلاله عملُ السّلطة (الحكومة).

(39) أهل النّظر: المفكّرون والمنظّرون والمُقَونِنُون.

أهل العزائم: أهل العمل، أو المُنَفّذون والمُمَارِسون.

ويقول الحرُّ: الدّاء: التّعالي على النّاس باطلاً، والدّواء: تذليل المتكبّرين.

ويقول المفادي[41]: الدّاء: حبُّ الحياة، والدّواء: حبُّ الموت.

---

(40) بلا زمام: أي بلا قانون مُلزِم.

القيود الثّقال: أي؛ جعل سلطة الرّؤساء مُقيّدة بالقوانين.

(41) وقد أحسن الكواكبي باختيار كلمة (المفادي) على وزن مجاهد ومقاتل، بدلاً من (الفدائي) التي ينصرف معناها إلى وصف التّكتيك القتالي، وصفاً للفعل. أما المفادي فهو الذي يفتدي بنفسه مبادئه أو وطنه ...

مَا هو الاستبدَاد

الاستبدادُ لغة هو: غرور المرء برأيه، والأنفة عن قبول النّصيحة، أو الاستقلال في الرّأي وفي الحقوق المشتركة.

ويُراد بالاستبداد عند إطلاقه استبداد الحكومات خاصّة؛ لأنّها أعظم مظاهر أضراره التي جعلت الإنسان أشقى ذوي الحياة. وأما تحكُّم النّفس على العقل، وتحكُّم الأب والأستاذ والزّوج، ورؤساء بعض الأديان[42]، وبعض الشّركات، وبعض الطّبقات؛ فيوصف بالاستبداد مجازاً أو مع الإضافة.

الاستبداد في اصطلاح السّياسيين هو: تَصَرُّف فرد أو جمع في حقوق قوم بالمشيئة وبلا خوف تبعة، وقد تَطرُق[43] مزيدات على هذا المعنى الاصطلاحي فيستعملون في مقام كلمة (استبداد) كلمات: استعباد، واعتساف، وتسلُّط، وتحكُّم. وفي مقابلتها كلمات: مساواة، وحسّ مشترك، وتكافؤ، وسلطة عامة. ويستعملون في مقام صفة (مستبدّ) كلمات: جبار، وطاغية، وحاكم بأمره، وحاكم مطلق. وفي مقابلة (حكومة مستبدّة) كلمات: عادلة، ومسؤولة، ومقيدة، ودستورية. ويستعملون في مقام وصف الرّعية (المستَبدّ عليهم) كلمات: أسرى،

---

(42) كذا في الأصل، ونرى أنّه يريد: بعض رؤساء الأديان.

(43) بمعنى: تطرأ.

ومستصغرين، وبؤساء، ومستنبتين[44]، وفي مقابلتها: أحرار، وأباة، وأحياء، وأعزّاء.

هذا تعريف الاستبداد بأسلوب ذكر المرادفات والمقابلات، وأمَّا تعريفه بالوصف فهو: أنَّ الاستبداد صفة للحكومة المطلقة العنان فعلاً أو حكماً، التي تتصرَّف في شؤون الرّعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب محقّقَيْن. وتفسير ذلك هو كون الحكومة إمَّا هي غير مُكلَّفة بتطبيق تصرُّفها على شريعة، أو على أمثلة تقليدية، أو على إرادة الأمَّة، وهذه حالة الحكومات المطلقة. أو هي مُقيَّدة بنوع من ذلك، ولكنَّها تملك بنفوذها إبطال قوَّة القيد بما تهوى، وهذه حالة أكثر الحكومات التي تُسمِّي نفسها بالمقيدة أو بالجمهورية.

وأشكال الحكومة المستبدَّة كثيرة ليس هذا البحث محلُّ تفصيلها. ويكفي هنا الإشارة إلى أنَّ صفة الاستبداد، كما تشمل حكومة الحاكم الفرد المطلق الذي تولَّى الحُكْم بالغلبة[45] أو الوراثة، تشمل أيضاً الحاكم الفرد المقيّد المنتخَب متى كان غيرَ مسؤول، وتشمل حكومة الجمع ولو منتخَباً؛ لأنَّ الاشتراك في الرّأي لا يدفع الاستبداد، وإنَّما قد يعدله الاختلاف نوعاً، وقد يكون عند الاتِّفاق أضرّ من استبداد الفرد. ويشمل أيضاً الحكومة الدّستورية المفرَّقة فيها بالكُلِّيَّة قوَّة التّشريع عن قوَّة التّنفيذ وعن القوَّة المراقِبة[46]؛ لأنَّ الاستبداد لا يرتفع ما لم يكن هناك ارتباط في المسؤولية، فيكون المُنفِّذون مسؤولين لدى المُشرِّعين، وهؤلاء مسؤولين لدى الأمَّة،

---

(44) الاستنبات أو التّنبُّت من اصطلاحات الفرنج؛ يريدون به الحياة الشّبيهة بحياة النّبات (ك).

(45) بالعنف والقوّة من غير وجه حقّ.

(46) أي: التي لا تتكامل فيها السّلطات.

تلك الأمّة التي تعرف أنّها صاحبة الشّأن كُلّه، وتعرف أنْ تراقب وأنْ تتقاضى الحساب.

وأشدّ مراتب الاستبداد التي يُتعوَّذ بها من الشّيطان هي حكومة الفرد المطلق، الوارث للعرش، القائد للجيش، الحائز على سلطة دينية. ولنا أنْ نقول كلّما قلَّ وَصْفٌ من هذه الأوصاف؛ خَفَّ الاستبداد إلى أنْ ينتهي بالحاكم المنتخب الموقت المسؤول فعلاً. وكذلك يخفُّ الاستبداد ـ طبعاً ـ كلما قلَّ عدد نفوس الرّعية، وقلَّ الارتباط بالأملاك الثّابتة، وقلَّ التّفاوت في الثّروة وكلما ترقّى الشّعب في المعارف.

إنَّ الحكومة من أيّ نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد؛ ما لم تكن تحت المراقبة الشّديدة والاحتساب الذي لا تسامح فيه، كما جرى في صدر الإسلام في ما نقم على عثمان، ثمَّ على عليّ رضي الله عنهما، وكما جرى في عهد هذه الجمهورية الحاضرة[47] في فرنسا في مسائل النّياشين وبناما ودريفوس.[48]

---

(47) المقصود هو حكومة فرنسا في أواخر القرن التّاسع عشر وأول العشرين، والمسائل هي قضايا استطاع أصحابها ـ بسبب الحرية السّائدة في فرنسا ـ إثارة الرّأي العام، ورفع الظّلم عنهم وتحقيق العدالة. (ك).

(48) والإشارة ـ هنا ـ إلى الأحداث التي رافقت منح امتياز قناة (بنما) الملاحية. وقضية دريفوس التي بدأت عام (1894 م) حينما كُشف عن برنامج أُرسل إلى الماجور شفارتز كوبن؛ الملحق العسكري الألماني بباريس، ومعه قائمة بالوثائق السّرية الفرنسية التي وَعَدَ كاتب البرنامج بتقديمها. وأدانت المحكمة العسكرية الكابتن ألفرد دريفوس (1859 ـ 1935) وهو ضابط فرنسي يهودي، اتُّهم بالخيانة العظمى، وحكم عليه بالسّجن مدى الحياة عام (1894) بجزيرة الشّيطان، ثمَّ أُعيدت محاكمته، بضغط من الجماهير (1896)، فبُرّئ، وردَّ إليه اعتباره (1906).

ومن الأمور المقرَّرة طبيعة وتاريخياً أنَّه؛ ما من حكومة عادلة تأمن المسؤولية والمؤاخذة بسبب غفلة الأمَّة أو التّمكُّن من إغفالها إلا وتُسارع إلى التّلبس بصفة الاستبداد، وبعد أنْ تتمكَّن فيه لا تتركه وفي خدمتها إحدى الوسيلتَيْن العظيمتَيْن: جهالة الأمَّة، والجنود المنظّمة. وهما أكبر مصائب الأمم وأهمّ معائب الإنسانية، وقد تخلَّصت الأمم المتمدِّنة - نوعاً - من الجهالة، ولكنْ؛ بُليت بشدة الجندية الجبرية العمومية؛ تلك الشّدة التي جعلتها أشقى حياةً من الأمم الجاهلة، وألصق عاراً بالإنسانية من أقبح أشكال الاستبداد، حتَّى ربما يَصحّ أنْ يقال: إنَّ مخترع هذه الجندية إذا كان هو الشّيطان؛ فقد انتقم من آدم في أولاده أعظم ما يمكنه أنْ ينتقم! نعم؛ إذا ما دامت هذه الجندية التي مضى عليها نحو قرنَيْن إلى قرن آخر أيضاً تنهك تجلُّد الأمم، وتجعلها تسقط دفعة واحدة. ومن يدري كم يتعجّب رجال الاستقبال من تَرَقِّي العلوم في هذا العصر ترقِّياً مقروناً باشتداد هذه المصيبة التي لا تترك محلاً لاستغراب إطاعة المصريين للفراعنة في بناء الأهرامات سخرة؛ لأنَّ تلك لا تتجاوز التّعب وضياع الأوقات، وأمَّا الجنديّة فَتُفسد أخلاق الأمَّة؛ حيثُ تُعلِّمها الشّراسة والطّاعة العمياء والاتِّكال، وتُميتُ النّشاط وفكرة الاستقلال، وتُكلِّف الأمَّة الإنفاق الذي لا يُطاق؛ وكُلُّ ذلك منصرف لتأييد الاستبداد المشؤوم: استبداد الحكومات القائدة لتلك القوَّة من جهة، واستبداد الأمم بعضها على بعض من جهة أخرى.

ولنرجع لأصل[49] البحث فأقول: لا يُعهد في تاريخ الحكومات المدنية استمرار حكومة مسؤولة مدَّة أكثر من نصف قرن إلى غاية قرن ونصف[50]،

---

(49) كذا في الأصل، والصّواب: ولنرجع إلى أصل البحث. لأنَّ فعل (نرجع) يتعدّى بـ (إلى).
(50) هذه الفكرة تدلُّ على اطّلاع الكواكبي على أفكار ابن خلدون وأعمار الدّولة لديه.

وما شَذَّ من ذلك سوى الحكومة الحاضرة في إنكلترا ، والسّبب يقظة الإنكليز الذين لا يُسكرهم انتصار ، ولا يخملهم انكسار ، فلا يغفلون لحظة عن مراقبة ملوكهم ، حتّى إنَّ الوزارة هي تنتخب للملك خَدَمَهُ وحَشَمَهُ فضلاً عن الزّوجة والصّهر ، وملوك الإنكليز الذين فَقَدوا منذ قرون كُلَّ شيء ما عدا التّاج ، لو تسنّى الآن لأحدهم الاستبداد لَغَنِمَهُ حالاً ، ولكنْ ؛ هيهات أنْ يظفر بغرة من قومه يستلم فيها زمام الجيش .

أمَّا الحكومات البدويّة التي تتألَّف رعيتها كلُّها أو أكثرها من عشائر يقطنون البادية ، يسهل عليهم الرّحيل والتّفرُّق متى مسَّت حكومتُهُم حريَّتهم الشّخصية ، وسامَتْهُمْ ضيماً ، ولم يقووا على الاستنصاف ؛ فهذه الحكومات قلّما اندفعت إلى الاستبداد . وأقرب مثال لذلك أهل جزيرة العرب ، فإنَّهم لا يكادون يعرفون الاستبداد من قبل عهد ملوك تبّع وحمير وغسان[51] إلى الآن إلاّ فترات قليلة . وأصل الحكمة في أنَّ الحالة البدوية بعيدة بالجملة عن الوقوع تحت نير الاستبداد ، وهو أنَّ نشأة البدوي نشأة استقلالية ؛ بحيثُ كُلُّ فرد يمكنه أنْ يعتمد في معيشته على نفسه فقط ، خلافاً لقاعدة الإنسان المدني الطّبع ، تلك القاعدة التي أصبحت سخرية عند علماء الاجتماع المتأخِّرين ، القائلين بأنَّ الإنسان من الحيوانات التي تعيش أسراباً في كهوف ومسارح مخصوصة ، وأمَّا الآن فقد صار من الحيوان الذي متى انتهت حضانته ؛ عليه أنْ يعيش مُستقلاً بذاته ، غير متعلّق بأقاربه وقومه كُلّ الارتباط ، ولا مرتبط ببيته وبلده كُلّ التّعلُّق ، كما هي معيشة أكثر الإنكليز والأميركان الذين يفتكر

(51) دُوَلٌ نشأت قبل الإسلام في شبه الجزيرة العربية .

الفرد منهم أنَّ تعلُّقه بقومه وحكومته ليس بأكثر من رابطة شريك في شركة اختيارية، خلافاً للأمم التي تتبع حكوماتها حتّى فيما تدين.

الناظر في أحوال الأمم يرى أنَّ الأُسَراء يعيشون متلاصقين متراكمين، يتحفَّظُ بعضهم ببعض من سطوة الاستبداد، كالغنم تلتفُّ على بعضها إذا ذعرها الذّئب، أمَّا العشائر والأمم الحرة المالك أفرادُها الاستقلالَ النّاجز فيعيشون مُتفرِّقين.

وقد تكلَّم بعض الحكماء - لا سيما المتأخِّرون منهم - في وصف الاستبداد ودوائه بجمل بليغة بديعة تُصوِّر في الأذهان شقاء الإنسان، كأنَّها تقول له هذا عدوُّك فانظر ماذا تصنع، ومن هذه الجمل قولهم:

«المستبدُّ: يتحكَّم في شؤون النّاس بإرادته لا بإرادتهم، ويحكمهم بهواه لا بشريعتهم، ويعلم من نفسه أنَّه الغاصب المتعدِّي[52] فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من النّاس يسدّها عن النّطق بالحقّ والتّداعي لمطالبته».

«المستبدُّ: عدوّ الحقّ، عدوّ الحريَّة وقاتلهما، والحقّ أبو البشر، والحريَّة أمُّهم، والعوام صبية أيتام نيام لا يعلمون شيئاً، والعلماء هم إخوتهم الرّاشدون، إنْ أيقظوهم هبّوا، وإنْ دعوهم لبّوا، وإلا فيتَّصل نومهم بالموت».

«المستبدُّ: يتجاوز الحدَّ ما لم يرَ حاجزاً من حديد، فلو رأى الظّالم على جنب المظلوم سيفاً لما أقدم على الظّلم، كما يقال: الاستعداد للحرب يمنع الحرب».

(52) المعتدي.

« المستبدُّ : إنسانٌ مستعدٌّ بالطّبع للشّر وبالإلجاء للخير[53] ، فعلى الرّعية أنْ تعرف ما هو الخير وما هو الشّر فتُلجيء حاكمها للخير رغم طبعه ، وقد يكفي للإلجاء مجرَّد الطّلب إذا علم الحاكم أنَّ وراء القول فعلاً . ومن المعلوم أنَّ مجرد الاستعداد للفعل فعل يكفي شرَّ الاستبداد ».

« المستبدُّ : يودُّ أنْ تكون رعيته كالغنم دراً وطاعةً ، وكالكلاب تذلُّلاً وتملُّقاً ، وعلى الرّعية أنْ تكون كالخيل إنْ خُدمت خَدمت ، وإنْ ضُربت شَرست ، وعليها أنْ تكون كالصقور لا تُلاعب ولا يُستأثر عليها بالصّيد كُلّه ، خلافاً للكلاب التي لا فرق عندها أُطعِمَتْ أو حُرمت حتّى من العظام . نعم ؛ على الرّعية أنْ تعرف مقامها : هل خُلقت خادمة لحاكمها ، تطيعه إنْ عَدَلَ أو جَارَ ، وخُلق هو ليحكمها كيف شاء بعدل أو اعتساف؟ أم هي جاءت به ليخدمها لا ليستخدمها؟ . والرّعية العاقلة تُقيِّدُ وحش الاستبداد بزمام تستميت دون بقائه في يدها ؛ لتأمن من بطشه ، فإنْ شمخ هزَّتْ به الزّمام وإنْ صال ربطتْهُ ».

من أقبح أنواع الاستبداد استبداد الجهل على العلم ، واستبداد النّفس على العقل ، ويُسمّى استبداد المرء على نفسه ، وذلك أنَّ الله جلّت نعمه خَلَقَ الإنسان حُراً ، قائده العقل ، فَكَفَر وأبى إلا أنْ يكون عبداً قائده الجهل . خَلَقَهُ وسخَّر له أمّاً وأباً يقومان بأوده إلى أنْ يبلغ أشُدّه ، ثمَّ جعل له الأرض أمّاً والعمل أباً ، فَكَفَرَ وما رضي إلا أنْ تكون أمّته أُمّه وحاكمه أباه . خَلَقَ له

(53) في (ط . ق) : (المستبدّ إنسان مستعدٌّ بالفطرة للخير والشّر) وما هذا إلاّ أنموذج للتّغييرات الكثيرة التي أدخلها المؤلّف على النّسخة القديمة المطبوعة ، حتّى إنَّ هذا الفصل (ما هو الاستبداد؟) بعد التّنقيحات ، يعادل ضعف مثيله في الطّبعات القديمة . ونحمل الشّيء نفسه على طول كتاب (طبائع الاستبداد).

إدراكاً ليهتدي إلى معاشه ويتّقي مهلكه، وعَيْنَيْن ليبصر، ورجلَيْن ليسعى، ويَدَيْن ليعمل، ولساناً ليكون ترجماناً عن ضميره، فَكَفَر وما أحبَّ إلا أنْ يكون كالأبله الأعمى، المقعد، الأشلّ، الكذوب، ينتظر كُلَّ شيء من غيره، وقلّما يطابق لسانه جنانه. خَلَقَهُ منفرداً غير مُتَّصل بغيره ليملك اختياره في حركته وسكونه، فَكَفَرَ وما استطاب إلا الارتباط في أرض محدودة سَمَّاها الوطن، وتشابك بالنّاس ما استطاع اشتباك تَظَالُم لا اشتباك تعاون... خَلَقَهُ ليشكره على جعله عنصراً حيّاً بعد أنْ كان تراباً، وليلجأ إليه عند الفزع تثبيتاً للجنان، وليستند عليه عند العزم دفعاً للتّردُّد، وليثق بمكافأته أو مجازاته على الأعمال، فَكَفَرَ وأبى شُكْرَهُ وخَلَطَ في دين الفطرة الصّحيحَ بالباطل ليغالط نفسه وغيره. خَلَقَهُ يطلب منفعته جاعلاً رائده الوجدان، فَكَفَرَ، واستحلَّ المنفعة بأي وجه كان، فلا يتعفَّف عن محظور صغير إلاّ توصُّلاً لمحرَّم كبير. خَلَقَهُ وبَذَلَ له مواد الحياة، من نور ونسيم ونبات وحيوان ومعادن وعناصر مكنوزة في خزائن الطّبيعة، بمقادير ناطقة بلسان الحال، بأنَّ واهب الحياة حكيم خبير جعل مواد الحياة أكثر لزوماً في ذاته، أكثر وجوداً وابتذالاً، فَكَفَرَ الإنسانُ نعمةَ الله وأبى أنْ يعتمد كفالة رزقه، فَوَكَّلَهُ ربُّه إلى نفسه، وابتلاه بظُلْم نفسه وظُلْم جنسه، وهكذا كان الإنسان ظلوماً كفوراً.

الاستبداد: يَدُ الله القوية الخفية يصفع بها رقاب الآبقين من جنة عبوديته إلى جهنَّم عبودية المستبدِّين الذين يشاركون الله في عظمته ويعاندونه جهاراً، وقد ورد في الخبر: (الظالم سيف الله ينتقم به، ثمَّ ينتقم منه)، كما جاء في أثر آخر: (مَنْ أعان ظالماً على ظلمه سَلَّطه الله عليه) ولا شك في أنَّ إعانة الظّالم تبتديء من مجرد الإقامة في أرضه.

الاستبداد: هو نار غضب الله في الدّنيا، والجحيم نار غضبه في الآخرة، وقد خَلَقَ اللهُ النّارَ أقوى المُطهِّرات، فَيُطَهِّر بها في الدّنيا دَنَسَ مَنْ خَلَقَهُم أحراراً، وبَسَطَ لهم الأرض واسعة، وبَذَلَ فيها رزقهم، فَكَفَروا بنعمته، ورضخوا للاستعباد والتَّظَالُم.

الاستبداد: أعظم بلاء، يتعجّل الله به الانتقام من عباده الخاملين، ولا يرفعه عنهم حتّى يتوبوا توبة الأنفة. نعم؛ الاستبداد أعظم بلاء؛ لأنّه وباء دائم بالفتن وجَدْبٌ مستمرٌّ بتعطيل الأعمال، وحريقٌ متواصلٌ بالسَّلْب والغَصْب، وسَيْل جارف للعمران، وخوفٌ يقطع القلوب، وظلامٌ يُعمي الأبصار، وألمٌ لا يفتر، وصائلٌ لا يرحم، وقصة سوء لا تنتهي. وإذا سأل سائلٌ: لماذا يبتلي اللّهُ عبادَهُ بالمستبدِّين؟ فَأَبْلَغُ جواب مُسكِتٍ هو: إنَّ اللّه عادلٌ مطلقٌ لا يظلم أحداً، فلا يُولَّى المستبدُّ إلا على المستبدِّين. ولو نظر السّائل نظرة الحكيم المدقِّق لوجد كُلَّ فرد من أُسراء الاستبداد مُستبداً في نفسه، لو قدر لجعل زوجته وعائلته وعشيرته وقومه والبشر كُلَّهم، حتَّى وربّه الذي خَلَقَهُ تابعين لرأيه وأمره.

فالمستبدّون يتولاّهم مستبدٌّ، والأحرار يتولاّهم الأحرار، وهذا صريح معنى: (كما تكونوا يُولَّى عليكم).[54]

ما أليق بالأسير في أرض أنْ يتحوَّل عنها إلى حيثُ يملك حريته، فإنَّ الكلب الطّليق خيرُ حياة من الأسد المربوط.

---

(54) العجلوني، كشف الخفاء...، ج2، ص 166، رقمه 1997.

السيوطي، الجامع الصّغير، ص 248، رمه 6406.

وقيل «يؤمَّر عليكم» ورُمز للحديث بالضّعف. والحديث مرسوم في الأصل «يُولَّى» من دون حذف الألف المقصورة، ونرى إمّا أنْ تثبَّت «نون» يكونوا أو أنْ تُجزم «يُولَّى».

وبالرغم من ضعف هذا الحديث، يظنُّ كثير من النّاس أنّه من القرآن الكريم.

الاستبداد والدِّين

تضافرت آراء أكثر العلماء النّاظرين في التّاريخ الطّبيعي للأديان، على أنَّ الاستبداد السّياسي مُتَوَلِّد من الاستبداد الدِّيني، والبعض يقول: إنْ لم يكنْ هناك توليد فهما أخوان؛ أبوهما التّغلُّب وأمُّهما الرّياسة، أو هما صنوان قويّان؛ بينهما رابطة الحاجة على التّعاون لتذليل الإنسان، والمشاكلة بينهما أنَّهما حاكمان؛ أحدهما في مملكة الأجسام والآخر في عالم القلوب. والفريقان مُصيبان في حكْمهما بالنّظر إلى مغزى أساطير الأوَّلين، والقسم التّاريخي من التّوراة، والرّسائل المضافة إلى الإنجيل. ومخطئون في حَقِّ الأقسام التّعليمية الأخلاقية فيهما، كما هم مخطئون إذا نظروا إلى أنَّ القرآن جاء مُؤيِّداً للاستبداد السّياسي. وليس من العذر شيء[55] أنْ يقولوا: نحن لا ندرك دقائق القرآن نظراً لخفائها علينا في طيِّ بلاغته، ووراء العلم بأسباب نزول آياته؛ وإنّما نبني نتيجتنا على مُقدِّمات ما نشاهد عليه المسلمين منذ قرون إلى الآن من استعانة مُستبدِّيهم بالدِّين.

يقول هؤلاء المحرِّرون: إنَّ التّعاليم الدِّينية، ومنها الكُتُب السّماوية تدعو البشر إلى خشية قوَّة عظيمة هائلة لا تُدرك العقول كُنْهَهَا، قوَّة تتهدَّد الإنسان بكُلِّ مصيبة في الحياة فقط، كما عند البوذية واليهودية، أو في الحياة

(55) نُفَضِّل أن تكون الجملة: وليس من العذر شيء في أنْ يقولوا..

أو: ليس من العذر في شيء أنْ يقولوا..

ويعد الممات، كما عند النّصارى والإسلام، تهديداً ترتعد منه الفرائص فتخور القوى، وتنذهل منه العقول فتستسلم للخبل والخمول، ثمَّ تفتح هذه التّعاليم أبواباً للنّجاة من تلك المخاوف نجاة وراءها نعيم مقيم، ولكنْ؛ على تلك الأبواب حُجَّاب من البراهمة والكَهَنَة والقسوس وأمثالهم الذين لا يأذنون للنّاس بالدّخول ما لم يُعظِّموهم مع التّذلُّل والصّغار، ويرزقوهم باسم نذر أو ثمن غفران، حتّى إنَّ أولئك الحُجَّاب في بعض الأديان يحجزون فيما يزعمون لقاء الأرواح بربّها ما لم يأخذوا عنها مكوس المرور إلى القبور وفدية الخلاص من مطهر الأعراف. وهؤلاء المهيمنون على الأديان كم يرهبون النّاس من غضب الله وينذرونهم بحلول مصائبه وعذابه عليهم، ثمَّ يرشدونهم إلى أنْ لا خلاص ولا مناص لهم إلا بالالتجاء إلى سكان القبور الذين لهم دالة، بل سطوة على الله فيحمونهم من غضبه.

ويقولون: إنَّ السّياسيين يبنون كذلك استبدادهم على أساس من هذا القبيل، فهم يسترهبون النّاس بالتّعالي الشّخصي والتّشامخ الحسّي، ويُذَلِّلونهم بالقهر والقوَّة وسَلْب الأموال حتّى يجعلوهم خاضعين لهم عاملين لأجلهم، يتمتَّعون بهم كأنَّهم نوع من الأنعام التي يشربون ألبانها، ويأكلون لحومها، ويركبون ظهورها، وبها يتفاخرون.

ويرون أنَّ هذا التّشاكل في بناء ونتائج الاستبدادَيْن؛ الدِّيني والسّياسي، جعلهما في مثل فرنسا خارج باريس مشتركَيْن في العمل، كأنَّهما يدان متعاونتان، وجعلهما في مثل روسيا مشتبكَيْن في الوظيفة، كأنَّهما اللوح والقلم يُسجِّلان الشّقاء على الأمم.

ويُقَرِّرون أنَّ هذا التّشاكل بين القوتَيْن ينجرُّ بعوام البشر - وهم السّواد الأعظم - إلى نقطة أنْ يلتبس عليهم الفرق بين الإله المعبود بحقّ وبين المستبدِّ المُطاع بالقهر، فيختلطان في مضايق أذهانهم من حيثُ التّشابه في استحقاق مزيد التّعظيم، والرِّفعة عن السّؤال وعدم المؤاخذة على الأفعال؛ بناءً عليه؛ لا يرون لأنفسهم حقّاً في مراقبة المستبدّ لانتفاء النّسبة بين عظمته ودناءتهم؛ وبعبارة أخرى: يجد العوام معبودهم وجبّارهم مشتركَيْن في كثير من الحالات والأسماء والصّفات، وهم هم، ليس من شأنهم أنْ يُفرِّقوا مثلاً بين (الفعّال المطلق)، والحاكم بأمره، وبين (لا يُسأل عمَّا يفعل) وغير مسؤول، وبين (المنعم) ووليّ النّعم، وبين (جلَّ شأنه) وجليل الشّأن. بناءً عليه؛ يُعظِّمون الجبابرة تعظيمهم لله، ويزيدون تعظيمهم على التّعظيم لله؛ لأنّه حليم كريم؛ ولأنَّ عذابه آجلٌ غائبٌ، وأمَّا انتقام الجبار فعاجل حاضر. والعوام - كما يُقال - عقولهم في عيونهم، يكاد لا يتجاوز فعلهم المحسوس المشاهد، حتَّى يصحّ أنْ يُقال فيهم: لولا رجاؤهم بالله، وخوفهم منه فيما يتعلَّق بحياتهم الدّنيا، لما صلّوا ولا صاموا، ولولا أملهم العاجل، لما رجَّحوا قراءة الدّلائل والأوراد على قراءة القرآن، ولا رجَّحوا اليمين بالأولياء - المقرّبين كما يعتقدون - على اليمين بالله.

وهذه الحال؛ هي التي سهّلت في الأمم الغابرة المنحطّة دعوى بعض المستبدِّين الألوهية على مراتب مختلفة، حسب استعداد أذهان الرّعية، حتَّى يُقال: إنّه ما من مستبدٍّ سياسي إلى الآن إلاّ ويتَّخذ له صفة قدسية يشارك بها الله، أو تعطيه مقامَ ذي علاقة مع الله. ولا أقلَّ من أنْ يتَّخذ بطانة من خَدَمَة الدِّين يعينونه على ظلم النّاس باسم الله، وأقلُّ ما يعينون به الاستبداد، تفريق الأمم إلى مذاهب وشيع متعادية تقاوم بعضها بعضاً، فتتهاتر قوَّة

الأمَّة ويذهب ريحها، فيخلو الجو للاستبداد ليبيض ويُفرِّخ، وهذه سياسة الإنكليز في المستعمرات، لا يُؤيِّدها شيء مثل انقسام الأهالي على أنفسهم، وإفنائهم بأسهم بينهم بسبب اختلافهم في الأديان والمذاهب.

ويُعَلِّلون أنَّ قيام المستبدِّين من أمثال (أبناء داود)[56] و(قسطنطين)[57] في نشر الدِّين بين رعاياهم، وانتصار مثل (فيليب الثّاني)[58] الأسباني و(هنري الثّامن)[59] الإنكليزي للدِّين، حتَّى بتشكيل مجالس (انكيزيسيون)[60] وقيام الحاكم الفاطمي[61] والسّلاطين الأعاجم في الإسلام بالانتصار لغلاة الصّوفية، وبنائهم لهم التّكايا، لم يكنْ إلا بقصد الاستعانة بممسوخ الدِّين وببعض أهله المُغَفَّلين على ظلم المساكين، وأعظم ما يُلائم مصلحة المستبدِّ ويُؤيِّدها أنَّ النّاس يتلقّون قواعده وأحكامه بإذعان بدون بحث أو جدال، فيودّون تأليف الأمَّة على تلقِّي أوامرهم بمثل ذلك، ولهذا القصد عَيْنِه، كثيراً ما يحاولون بناء أوامرهم أو تفريعها على شيء من قواعد الدِّين.

---

(56) الذين خلفوه في حكم الدّولة.

(57) اسم عدد من أباطرة رومان وبيزنطيين.

(58) (1527 ـ 1598) أصبح ملكاً لإسبانيا ونابلي وصقلية عقب نزول أبيه عن العرش. واصل حرب أبيه ضدَّ فرنسا، وكان مُتعصِّباً للمذهب الكاثوليكي. بلغت (محاكم التّفتيش) ذروة نفوذها إبّان حكْمه. قَمَعَ المسلمين في بلاده، وفَرَضَ ضرائب باهظة على المواطنين.

(59) (1491 ـ 1547) حكم (1509 ـ 1547) منح البابا هنري لقب (حامي الدِّين) من أجل مقاله ضدَّ لوثر. كان ينساق وراء رغباته الشّخصية.

(60) محاكم لمعاقبة المتَّهمين بالزّندقة أو مخالفة بعض أحكام الدِّين، وفيها أنواع العذاب (محاكم التّفتيش) (ك).

(61) الحاكم بأمر الله، ابن العزيز (985 ـ 1021) سادس الخلفاء الفاطميين في مصر. مال إلى آراء الإسماعيلية والتّنجيم، وفي سيرته متناقضات كثيرة.

ويحكمون بأنَّ بين الاستبدادَيْن؛ السّياسي والدِّيني مقارنة لا تنفكُّ متى وُجد أحدهما في أمَّة جرَّ الآخر إليه، أو متى زال، زال رفيقه، وإنْ صلحَ؛ أيْ ضعف أحدُهما، صلحَ؛ أيْ ضعف الثّاني. ويقولون: إنَّ شواهد ذلك كثيرة جداً لا يخلو منها زمان ولا مكان. ويُبرهنون على أنَّ الدِّين أقوى تأثيراً من السّياسة إصلاحاً وإفساداً، ويُمثِّلون بالسّكسون؛ أي الإنكليز والهولنديين والأميركان والألمان الذين قبلوا البروتستنتية، فَأثرُ التّحرير الدِّيني في الإصلاح السّياسي والأخلاق أكثر من تأثير الحريَّة المطلقة السّياسية في جمهور اللاتين؛ أي الفرنسيين والطّليان والاسبانيول والبرتغال. وقد أجمع الكُتّاب السّياسيون المُدَقِّقُون، بالاستناد على[62] التّاريخ والاستقراء؛ من[63] أنَّ ما مِنْ أمَّة أو عائلة أو شخص تَنَطَّعَ في الدِّين؛ أي تشدَّد فيه إلاّ واختلَّ نظام دنياه وخسر أُولاه وعقباه.

والحاصل أنَّ كُلَّ المُدَقِّقين السّياسيين يرون أنَّ السّياسة والدِّين يمشيان متكاتفَيْن، ويعتبرون أنَّ إصلاح الدِّين هو أسهل وأقوى وأقرب طريق للإصلاح السّياسي.

وربما كان أوَّل مَنْ سَلَكَ هذا المسلك؛ أي استخدم الدِّين في الإصلاح السّياسي هم حكماء اليونان؛ حيثُ تحيَّلوا على ملوكهم المستبدِّين في حملهم على قبول الاشتراك في السّياسة بإحيائهم عقيدة الاشتراك في الألوهية، أخذوها عن الآشوريين، ومزجوها بأساطير المصريين بصورة تخصيص العدالة بإله، والحرب بإله، والأمطار بإله، إلى غير ذلك من

---

(62) إلى.

(63) علماً أنّه.

التّوزيع، وجعلوا لإله الآلهة حقّ النّظارة عليهم، وحقّ التّرجيح عند وقوع الاختلاف بينهم. ثمَّ بعد تمكُّن هذه العقيدة في الأذهان بما أُلبست من جلالة المظاهر وسحر البيان سَهُلَ على أولئك الحكماء دفعهم النّاس إلى مطالبة جبابرتهم بالنّزول من مقام الانفراد، وبأنْ تكون إدارة الأرض كإدارة السّماء؛ فانصاع ملوكهم إلى ذلك مُكرَهين. وهذه هي الوسيلة العظمى التي مَكَّنت اليونان أخيراً من إقامة جمهوريات أثينا وإسبارطة. وكذلك فعل الرّومان. وهذا الأصل لم يزل المثال القديم لأصول توزيع الإدارة في الحكومات الملكية والجمهوريات على أنواعها إلى هذا العهد.

إنّما هذه الوسيلة؛ أي التّشريك، فضلاً عن كونها باطلة في ذاتها، نَتَجَ عنها أخيراً رَدُّ فعل أضرَّ كثيراً، وذلك أنَّها فتحت للمشعوذين من سائر طبقات النّاس باباً واسعاً لدعوى شيء من خصائص الألوهية، كالصّفات القُدْسية والتّصرُّفات الرّوحية، وكان قبل ذلك لا يتهجَّم على مثلها غير أفراد من الجبابرة، كنمرود وإبراهيم وفرعون وموسى، ثمَّ صار يدَّعيها البرهمي والبادري والصّوفي. ولملائمة هذه المفسدة لطباع البشر من وجوه كثيرة ـ ليس بحثنا هذا محلّها ـ انتشرت وعمّت وجَنَّدَت جيشاً عرمرماً يخدم المستبدِّين.

وقد جاءت التّوراة بالنّشاط، فَخَلَّصتهم من خمول الاتّكال بعد أنْ بلغ فيهم أنْ يُكَلِّفوا الله ونبيه يقاتلان عنهم، وجاءتهم بالنّظام بعد فوضى الأحلام، ورفعت عقيدة التّشريك، مُستبدلة ـ مثلاً ـ أسماء الآلهة المتعدِّدة بالملائكة، ولكنْ؛ لم يرضَ ملوك آل كوهين بالتّوحيد فأفسدوه. ثمَّ جاء الإنجيل بسلسبيل الدّعة والحِلْم، فصادف أفئدة محروقة بنار القساوة والاستبداد، وكان أيضاً مُؤيِّداً لناموس التّوحيد، ولكنْ؛ لم يَقْوَ دُعاته

الأوَّلون على تفهيم تلك الأقوام المنحطّة، الذين بادروا لقبول النّصرانية قبل الأمم المترقِّية، أنَّ الأبوّة والبنوّة صفتان مجازيتان يُعبَّر بهما عن معنى لا يقبله العقل إلا تسليماً؛ كمسألة القدر التي ورثت الإسلامية التّفلسف فيها عن أديان اليهود وأوهام اليونان. ولهذا؛ تلقَّت تلك الأمم الأبوّة والبنوّة بمعنى توالد حقيقي؛ لأنَّه أقرب إلى مداركهم البسيطة التي يصعب عليها تناول ما فوق المحسوسات، ولأنَّهم كانوا قد ألفوا الاعتقاد في بعض جبابرتهم الأوَّلين أنَّهم أبناء الله، فَكَبُرَ عليهم أنْ يعتقدوا في عيسى ـ عليه السّلام ـ صفة هي دون مقام أولئك الملوك. ثمَّ لما انتشرت النّصرانية ودخلها أقوام مختلفون، تلبَّست ثوباً غير ثوبها، كما هو شأن سائر الأديان التي سلفتها، فتوسَّعت برسائل بولس ونحوها، فامتزجت بأزياء وشعائر وثنية للرّومان والمصريين مُضافة على شعائر الإسرائيليين وأشياء من الأساطير وغيرها، وأشياء من مظاهر الملوك ونحوها. وهكذا؛ صارت النّصرانية تُعَظِّمُ رجال الكَهَنوت إلى درجة اعتقاد النّيابة عن الله والعصمة عن الخطأ وقوَّة التّشريع، ونحو ذلك مما رفضه أخيراً البروتستان؛ أي الرّاجعون في الأحكام لأصل الإنجيل.

ثمَّ جاء الإسلام مهذِّباً لليهوديّة والنّصرانيّة، مُؤسَّساً على الحكمة والعزم، هادماً للتّشريك بالكُلِّية، ومُحكماً لقواعد الحريَّة السّياسية المتوسِّطة بين الدِّيموقراطية والأريستقراطية؛ فَأَسَّسَ التّوحيد، ونَزَعَ كُلَّ سلطة دينية أو تغلبيّة تتحكَّم في النّفوس أو في الأجسام، ووضع شريعة حكمة إجمالية صالحة لكُلِّ زمان وقوم ومكان، وأوجد مدنيّة فطريّة سامية، وأظهر للوجود حكومة كحكومة الخلفاء الرّاشدين التي لم يسمح الزّمان بمثال لها بين البشر حتَّى ولم يخلفهم فيها بين المسلمين أنفسهم خلف؛ إلا بعض شواذ؛ كعمر

ابن عبد العزيز[64] والمهتدي العبّاسي[65] ونور الدِّين الشّهيد[66]. فإنَّ هؤلاء الخلفاء الرّاشدين فهموا معنى ومغزى القرآن النّازل بلغتهم، وعملوا به واتّخذوه إماماً، فأنشؤوا حكومة قَضَتْ بالتّساوي حتّى بينهم أنفسهم وبين فقراء الأمّة في نعيم الحياة وشظفها، وأحدثوا في المسلمين عواطف أخوة وروابط هيئة اجتماعية اشتراكية لا تكاد توجد بين أشقاء يعيشون بإعالة أبٍ واحد وفي حضانة أمٍّ واحدة، لكُلٍّ منهم وظيفة شخصية، ووظيفة عائلية ووظيفة قومية. على أنَّ هذا الطّراز السّامي من الرّياسة هو الطّراز النّبوي المحمدي الذي لم يخلفه فيه حقّاً غير أبي بكر وعمر، ثمَّ أخذ بالتّناقص، وصارت الأمّة تطلبه وتبكيه من عهد عثمان إلى الآن، وسيدوم بكاؤها إلى يوم الدِّين إذا لم تنتبه لاستعواضه بطراز سياسي شوري؛ ذلك الطّراز الذي اهتدت إليه بعض أمم الغرب؛ تلك الأمم التي، لربما يصحُّ أنْ نقول، قد استفادت من الإسلام أكثر ممّا استفاده المسلمون.

وهذا القرآن الكريم مشحون بتعاليم إماتة الاستبداد وإحياء العدل والتّساوي حتّى في القصص منه؛ ومن جملتها قول بلقيس ملكة سبأ من عرب تُبَّع تخاطب أشراف قومها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ۝ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ

---

(64) عمر بن عبد العزيز بن مروان (61 ـ 101 هـ؛ 681 ـ 720 م) ثامن خلفاء بني أمية (99هـ ـ 717 م) اشتهر بتقواه وتسامحه وعدله. لُقِّبَ بخامس الخلفاء الرّاشدين.

(65) المهتدي بالله، محمد بن هارون الواثق، وُلد في سامراء (222 هـ؛ 837 م) الخليفة العباسي الرّابع عشر (255 ـ 256 هـ؛ 869 ـ 870 م) سعى عبثاً إلى إصلاح مقام الخلافة، قُتل.

(66) أبو القاسم، نور الدِّين محمود بن عماد الدِّين أتابك، أبو سعيد الزّنكي (511 ـ 570 هـ؛ 1117 ـ 1174 م) أتابك حلب بعد اغتيال والده. حارب الصّليبيين. شَيَّدَ الحصون والمساجد. ودُفن في مدرسة دمشق.

فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴾[67].

فهذه القصة تُعلِّم كيف ينبغي أنْ يستشير الملوكُ الملأ؛ أي أشراف الرّعية، وأنْ لا يقطعوا أمراً إلا برأيهم، وتشير إلى لزوم أنْ تُحفظ القوَّة والبأس في يد الرّعية، وأنْ يُخصَّصَ الملوك بالتّنفيذ فقط، وأنْ يكرموا بنسبة الأمر إليهم توقيراً، وتقبّح شأن الملوك المستبدِّين.

ومن هذا الباب أيضاً ما ورد في قصة موسى - عليه السّلام - مع فرعون في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾[68]؛ أي قال الأشراف بعضهم لبعض: ماذا رأيكم؟ (قالوا) خطاباً لفرعون وهو قرارهم: ﴿أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ[69] عَلِيمٖ﴾[70] ثمَّ وصف مذاكراتهم بقوله تعالى: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم﴾[71]؛ أي رأيهم ﴿بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾[72]؛ أي أفضت مذاكراتهم العلنية إلى النّزاع، فأجروا مذاكرة سرية طبق ما يجري إلى الآن في مجالس الشّورى العمومية.

بناءً على ما تقدَّم؛ لا مجال لرمي الإسلامية بتأييد الاستبداد مع تأسيسها على مئات من الآيات البيِّنات التي منها قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي

---

(67) النّمل: 32 - 34.

(68) الأعراف 109 - 110.

(69) السّاحر: هو الدّاهية المقتدر على التّمويه والخداع. (ك).

(70) الأعراف: 111 - 112.

(71) طه: 62.

(72) طه: 62.

ٱلۡأَمۡرِ﴾[73]؛ أي في الشّأن، ومن قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾[74]؛ أي أصحاب الرّأي والشّأن منكم؛ وهم العلماء والرّؤساء على ما اتّفق عليه أكثر المفسّرين، وهم الأشراف[75] في اصطلاح السّياسيين. وممّا يُؤيِّد هذا المعنى أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ﴾[76]؛ أي ما شأنه، وحديث «أميري من الملائكة جبريل»[77]؛ أي مشاوري.

وليس بالأمر الغريب ضياع معنى ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ على كثير من الأفهام بتضليل علماء الاستبداد الذين يُحَرِّفون الكَلِمَ عن مواضعه، وقد أغفلوا معنى قيد﴿مِنكُمۡ﴾؛ أي المؤمنين منعاً لتطرُّق أفكار المسلمين إلى التّفكير بأنَّ الظّالمين لا يحكمونهم بما أنزل الله، ثمَّ التّدرُّج إلى معنى آية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾[78]؛ أي التّساوي، ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾[79]؛ أي التّساوي، ثمَّ ينتقل إلى معنى آية ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَـٰفِرُونَ﴾[80]. ثمَّ يستنتج عدم وجوب طاعة الظّالمين وإنْ قال بوجوبها بعض الفقهاء الممالئين دَفْعاً للفتنة التي تحصد أمثالهم حصداً. والأغرب من هذا جسارتهم على تضليل الأفهام في معنى (أمر) في آية: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن

(73) آل عمران: 159.

(74) النّساء: 59.

(75) أهل الحلّ والعقد.

(76) هود: 97.

(77) لم نعثر عليه في كُتُب الحديث الشّريف.

(78) النّحل: 90.

(79) النّساء: 58.

(80) المائدة: 44.

﴿نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [81] ؛ فإنَّهم لم يبالوا أنْ ينسبوا إلى الله الأمر بالفسق ... تعالى الله عن ذلك عُلُواً كبيراً، والحقيقة في معنى (أمرنا) هنا أنَّه بمعنى أمرنا ـ بكسر الميم أو تشديدها ـ؛ أي جعلنا أمراءها مترفيها فَفَسَقوا فيها (أي ظلموا أهلها) فحقّ عليهم العذاب؛ أي (نزل بهم العذاب).

والأغرب من هذا وذاك؛ أنَّهم جعلوا للفظة العدل معنى عُرفياً؛ وهو الحُكم بمقتضى ما قاله الفقهاء، حتَّى أصبحت لفظة العدل لا تدلُّ على غير هذا المعنى، مع أنَّ العدل لغةً التَّسوية؛ فالعدل بين النَّاس هو التَّسوية بينهم، وهذا هو المراد في آية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ [70]، وكذلك القصاص في آية: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [82] المتواردة مطلقاً، لا المعاقبة بالمثل فقط على ما يتبادر إلى أذهان الأُسراء، الذين لا يعرفون للتَّساوي موقعاً في الدِّين غير الوقوف بين يدي القضاة.

وقد عَدَّدَ الفقهاء مَنْ لا تُقبل شهادتهم لسقوط عدالتهم، فذكروا حتَّى مَنْ يأكل ماشياً في الأسواق؛ ولكنَّ شيطان الاستبداد أنساهم أنْ يُفسِّقوا الأمراء الظَّالمين فيردُّوا شهادتهم. ولعلَّ الفقهاء يُعذرون بسكوتهم هنا مع تشنيعهم على الظَّالمين في مواقع أخرى، ولكنْ؛ ماعذرهم في تحويل معنى الآية: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [83] إلى أنَّ هذا الفرض هو فرض كفاية لا فرض عين؟ والمراد منه سيطرة أفراد المسلمين بعضهم على بعض؛ لا إقامة فئة تُسيطر على حكامهم

---

(81) الإسراء: 16.

(82) البقرة: 179.

(83) آل عمران: 104.

كما اهتدت إلى ذلك الأمم الموفقة للخير؛ فخصّصت منها جماعات باسم مجالس نوّاب، وظيفتها السّيطرة والاحتساب على الإدارة العمومية: السّياسية والمالية والتّشريعية، فتخلَّصوا بذلك من شآمة الاستبداد. أ ليست هذه السّيطرة وهذا الاحتساب بأهمّ من السّيطرة على الأفراد؟ ومَنْ يدري من أين جاء فقهاء الاستبداد بتقديس الحُكَّام عن المسؤولية حتَّى أوجبوا لهم الحمدَ إذا عدلوا، وأوجبوا الصّبرَ عليهم إذا ظَلَموا، وعَدّوا كُلَّ معارضة لهم بغياً يبيح دماء المعارضين؟!

اللهم؛ إنَّ المستبدِّين وشركاءهم قد جعلوا دينك غير الدِّين الذي أنزلتَ، فلا حول ولا قوَّة إلاّ بكَ!

كذلك ما عُذْر أولئك الصّوفية الذين جعلتهم الإنعامات على زاوياتهم أنْ يقولوا: لا يكون الأمير الأعظم إلا ولياً من أولياء الله، ولا يأتي أمراً إلا بإلهام من الله، وإنَّه يتصرَّف في الأمور ظاهراً، ويتصرَّف قطب الغوث باطناً! ألا سبحان الله ما أحلمه!

نعم؛ لولا حُلم الله لخسف الأرض بالعرب؛ حيثُ أرسل لهم رسولاً من أنفسهم أسَّسَ لهم أفضل حكومة أُسِّست في النّاس، جعل قاعدتها قوله: «كُلُّكم راعٍ وكُلُّكم مسؤول عن رعيّته»[84]؛ أي كُلٌّ منكم سلطان عام ومسؤول عن الأمَّة. وهذه الجملة التي هي أسمى وأبلغ ما قاله مُشرِّع سياسي من الأوَّلين والآخرين، فجاء من المنافقين مَنْ حرَّف المعنى عن ظاهره وعموميّته؛ إلى أنَّ المسلم راعٍ على عائلته ومسؤول عنها فقط. كما

---

(84) رواه البخاري في مواضع كثيرة، ومسلم وأبو داود في الإمارة، والتّرمذي: الجهاد، وابن حنبل: 2/ 5، 54، إلخ..

حرَّفوا معنى الآية : ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[85] ، إلى ولاية الشّهادة دون الولاية العامة . وهكذا غيَّروا مفهوم اللغة ، وبَدَّلوا الدِّين ، وطمسوا على العقول حتَّى جعلوا النّاس ينسون لذَّة الاستقلال ، وعزَّة الحريَّة ؛ بل جعلوهم لا يعقلون كيف تحكم أمَّة نفسها بنفسها دون سلطان قاهر .

وكأنَّ المسلمين لم يسمعوا بقول النّبي عليه السّلام : « النّاس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتّقوى »[86] . وهذا الحديث من أصحّ الأحاديث لمطابقته للحكمة ومجيئه مُفسِّراً الآية ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[87] فإنَّ الله جَلَّ شأنه ساوى بين عباده مؤمنين وكافرين في المكرمة بقوله : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾[88] ثمَّ جعل الأفضلية في الكرامة للمُتَّقين فقط . ومعنى التّقوى لغة ليس كثرة العبادة كما صار ذلك حقيقة عُرفية غرسها علماء الاستبداد القائلين في تفسير (عند الله) ؛ أي في الآخرة دون الدّنيا ؛ بل التّقوى لغةً هي الاتِّقاء ؛ أي الابتعاد عن رذائل الأعمال احترازاً من عقوبة الله . فقوله : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ كقوله : إنَّ أفضل النّاس أكثرهم ابتعاداً عن الآثام وسوء عواقبها .

وقد ظهر مما تقدَّم أنَّ الإسلامية مُؤسَّسة على أصول الحريَّة برفعها كُلّ سيطرة وتحكُّم ، بأمرها بالعدل والمساواة والقسط والإخاء ، ويحضّها على

---

(85) التّوبة : 71 .

(86) العجلوني ، كشف الخفاء ... ج2 ، ص 433 . و« سواسية » مضافة . تُنظر أيضاً : خطبة حجّة الوداع .

(87) الحجرات : 13 .

(88) الإسراء : 70 .

الإحسان والتّحابب. وقد جعلت أصول حكومتها: الشّورى الأريستوقراطية؛ أي شورى أهل الحلّ والعقد في الأمَّة بعقولهم لا بسيوفهم. وجعل أصول إدارة الأمَّة: التّشريع الدّيمقراطي؛ أي الاشتراكي حسبما يأتي فيما بعد. وقد مضى عهد النّبي - عليه السّلام - وعهد الخلفاء الرّاشدين على هذه الأصول بأتمّ وأكمل صورها. ومن المعلوم أنَّه لا يوجد في الإسلامية نفوذ ديني مطلقاً في غير مسائل إقامة شعائر الدِّين، ومنها القواعد العامة التّشريعية التي لا تبلغ مائة قاعدة وحكْم، كُلُّها من أجَلِّ وأحسن ما اهتدى إليه المُشَرِّعون من قبل ومن بعد. ولكنْ؛ وا أسفاه على هذا الدِّين الحر، الحكيم، السّهل، السّمح، الظّاهرة فيه آثار الرّقي على غيره من سوابقه، الدِّين الذي رفع الإصر والأغلال، وأباد الميزة[89] والاستبداد، الدِّين الذي ظَلَمَهُ الجاهلون، فهجروا حكمة القرآن ودفنوها في قبور الهوان، الدِّين الذي فَقَدَ الأنصارَ الأبرارَ والحكماءَ الأخيارَ، فسطا عليه المستبدُّون والمُترشّحون للاستبداد، واتَّخذوه وسيلة لتفريق الكلمة وتقسيم الأمَّة شيَعاً، وجعلوه آلة لأهوائهم السّياسية، فضَيَّعُوا مزاياه، وحَيَّرُوا أهله بالتّفريع والتّوسيع، والتّشديد والتّشويش، وإدخال ما ليس منه فيه كما فعل قبلهم أصحاب الأديان السّائرة، حتّى جعلوه ديناً حرجاً يتوهَّم النّاس فيه أنَّ كُلَّ ما دَوَّنه المتفنّنون بين دفَّتَيْ كتاب يُنسب لاسم إسلامي هو من الدِّين، وبمقتضاها أنْ لا يقوى على القيام بواجباته وآدابه ومزيداته، إلا مَنْ لا علاقة له بالحياة الدّنيا؛ بل أصبحت بمقتضاها حياة الإنسان الطّويل العمر، العاطل عن كُلِّ عمل، لا تفي بتعلُّم ما هي الإسلامية عجزاً عن تمييز الصّحيح من الباطل من تلك الآراء المتشعِّبة التي أطال أهلها فيها الجدال والمناظرة؛ وما

---

(89) أي: التّمايز والتّفاوت.

افترقوا إلا وكُلٌّ منهم في موقفه الأوَّل يظهر أنَّه أَلْزَمَ خصمه الحجَّة وأسكته بالبرهان؛ والحقيقة إنَّ كلاً منهم قد سكت تعباً وكلالاً من المشاغبة.

وبهذا التّشديد الذي أدخله على الدِّين منافسو المجوس؛ انفتح على الأمَّة باب التّلوُّم على النّفس فضلاً عن محاسبة الحُكّام المنوط بهم قيام العدل والنّظام. وهذا الإهمال للمراقبة، وهو إهمال الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، قد أوسَعَ لأمراء الإسلام مجالَ الاستبداد وتجاوزَ الحدود. وبهذا وذاك ظهر حُكْم حديث: «لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليستعملنَّ الله عليكم شراركم فليسومونكم سوء العذاب»[90] وإذا تتبَّعنا سيرة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما مع الأمَّة، نجد أنَّهما مع كونهما مفطورَيْن خير فطرة، ونائلين التّربية النّبوية، لم تترك الأمَّة معهما المراقبة والمحاسبة، ولم تُطعهما طاعة عمياء.

وقد جمع بعضهم جملة ممَّا اقتبسه وأخذه المسلمون عن غيرهم، وليس هو من دينهم بالنّظر إلى القرآن والمتواترات من الحديث وإجماع السّلف الأوَّل فقال:[91]

---

(90) رواه أبو داود: الملاحم، التّرمذي: الفتن، ابن حنبل: 5/ 388، 390، 391.

(91) الإشارة ـ هنا ـ إلى ما ورد على لسان (المُحَقِّق المدني) في الاجتماع الثّاني من (أم القرى)، إذ نلاحظ تشابهاً كبيراً في وصف المقتبسات بين ما ورد هنا، وما ورد في (أم القرى)، وهذا دليلٌ آخر علم أن (طبائع الاستبداد) كُتب بعد (أم القرى)، وفيما يلي نثبت نصّ (أم القرى) للمقارنة:

وذلك أن هؤلاء المدلّسين اقتبسوا ما هنالك كلّه أو جلّه عن أصحاب التّلمود وتفاسيرهم، ومن المجامع المسكونية ومقرّراتها، ومن البابوية ووراثة السّر، ومن مضاهاة مقامات البطاركة والكردينالية والشّهداء وأسقفية كُلّ بلد، ومظاهر القدّيسين وعجائبهم، والدّعاة المبشّرين وصبرهم، والرّهبنات ورؤسائها، وحالة الأديرة وبادريتها، والرّهبنة؛ أي التّظاهر بالفقر

(اقتبسوا) من النّصرانية مقام البابوية باسم الغوثية و(ضاهوا) في الأوصاف والأعداد أوصاف وأعداد البطارقة، والكردينالية والشّهداء والأساقفة، و(حاكوا) مظاهر القدّيسين وعجائبهم، والدّعاة المبشّرين وصبرهم، والرّهبنات ورؤسائها، وحالة الأديرة وبادريتها. والرّهبنات ورسومها والحميّة وتوقيتها، (وقلّدوا) رجال الكهنوت والبراهمة في مراتبهم وتميُّزهم في ألبستهم وشعورهم، ولبس المسابح في الرّقاب، (وقلّدوا) الوثنيين الرّومانيين في الرّقص على أنغام النّاي والتّغالي في تطييب الموتى والاحتفال الزّائد في الجنائز وتسريح الذّبائح معها، وتكليلها وتكليل القبور بالزّهور. (وشاكلوا) مراسم الكنائس وزينتها، والبِيَع واحتفالاتها، والتّرنُّحات ووزنها، والتّرنُّمات وأصولها، وإقامة الكنائس على القبور، وشدّ الرّحال لزيارتها، والإسراج عليها، والخضوع لديها، وتعليق الآمال

ورسومها، والحميّة وتوقيتها، ورجال الكَهَنوت ومراتبهم وتميّزهم في ألبستهم وشعورهم، ومن مراسم الكنائس وزينتها، والبِيَع واحتفالاتها، والتّرنَحات ووزنها، والتّرنّمات وأصولها، وإقامة الكنائس على القبور وشدّ الرّحال لزيارتها والإسراج عليها، والخضوع لديها وتعليق الآمال بسكّانها. وأخذوا التّبرُّك بالآثار كالقدح والحربة والدّستار من احترام الذّخيرة وقدسية العكاز. وكذلك إمرار اليد على الصّدر عند ذكر بعض الصّالحين من إمرارها على الصّدر لإشارة التّصلُّب؛ وانتزعوا الحقيقة من السّر، ووحدة الوجود من الحلول، والخلافة من الرّسم، والسّقيا من تناول القربان، والمولد من الميلاد، وحفلته من الأعياد؛ ورفع الأعلام من حمل الصّلبان، وتعليق ألواح الأسماء المصدّرة بالنّداء على الجدران من تعليق الصّور والتّماثيل؛ والاستفاضة والمراقبة من التّوجُّه بالقلوب انحناءً أمام الأصنام. ومنع الاستهداء من نصوص الكتاب والسُّنّة من حظر الكَهَنة الكاثوليك قراءة الإنجيل على غيرهم، وسدّ اليهود باب الأخذ من التّوراة وتمسُّكهم بالتّلمود، إلى غير ذلك ممّا جاء به المدلّسون تقليداً لهؤلاء شبراً شبراً، واقتفاء لأثرهم حجراً حجراً، وهكذا إذا تتبّعنا البدَعَ الطّارئة نجد أكثرها مُقتبَساً وقليلها مُختَرَعاً.

بسكانها. و(أخذوا) التّبرُّك بالآثار: كالقدح والحربة والدّستار، من احترام الذّخيرة وقدسية العكاز، وكذلك إمرار اليد على الصّدر عند ذكر الصّالحين، من إمرارها على الصّدر لإشارة الصّليب. و(انتزعوا) الحقيقة من السّر، ووحدة الوجود من الحلول، والخلافة من الرّسم، والسّقيا من تناول القربان، والمولد من الميلاد، وحفلته من الأعياد، ورفع الأعلام من حمل الصّلبان، وتعليق ألواح الأسماء المصدَّرة بالنّداء على الجدران من تعليق الصّور والتّماثيل، والاستفاضة والمراقبة من التّوجه بالقلوب انحناءً أمام الأصنام. و(منعوا) الاستهداء من نصوص الكتاب والسُّنَّة كحظر الكاثوليك التّفهُّم من الإنجيل، وامتناع أحبار اليهود عن إقامة الدّليل من التّوراة في الأحكام[92]. و(جاؤوا) من المجوسية باستطلاع الغيب من الفلك، وبخشية أوضاع الكواكب وباتّخاذ أشكالها شعاراً للملك، وباحترام النّار ومواقدها. و(قلَّدوا) البوذيين حرفاً بحرف في الطّريق والرّياضة وتعذيب الجسم بالنّار والسّلاح، واللعب بالحيّات والعقارب وشرب السّموم، ودقّ الطّبول والصّنوج وجعل رواتب من الأدعية والأناشيد والأحزاب، واعتقاد تأثير العزائم ونداء الأسماء وحمل التّمائم، إلى غير ذلك مما هو مُشاهد في بوذيّي الهند ومجوس فارس والسِّند إلى يومنا هذا. وقد قيل إنَّه نقله إلى الإسلامية أمثال: جون وست، وسلطان علي منلا، والبغدادي، وحاشية فلان الشّيخ وفلان الفارسي، على أنَّ إسناد ذلك إلى أشخاص مُعَيَّنين يحتاج إلى تثبيت. (ولفَّقوا) من الأساطير والإسرائيليات أنواعاً من القربات، وعلوماً سمّوها لدنّيات.

---

(92) في (ط. ق): «ومنعوا الاستهداء من نصوص الكتاب والسُّنَّة، من حظر الكَهَنة والكاثوليك التّفهُّم من الإنجيل على غيرهم، وسدّ اليهود باب الأخذ من التّوراة وتمسُّكهم بالتّلمود» أ. هـ.

وكذلك يُقال عن مُبتدعي النّصارى، من أنَّ أكثر ما اعتبره المتأخِّرون منهم من الشّعائر الدِّينية ـ حتّى مشكلة التّثليث ـ لا أصل له فيما ورد عن نفس[93] المسيح عليه السّلام؛ إنَّما هو مزيدات وترتيبات قليلها مُبتدَعٌ، وكثيرها مُتّبَعٌ[94]. وقد اكتشف العلماء الآثاريون من الصّفائح الحفرية الهندية والآشورية ومن الصّحف التي وُجدت في نواويس المصريين الأقدمين[95]، على مآخذ أكثرها. وكذلك وجدوا لمزيدات التّلمود[96] وبدع الأحبار أصولاً في الأساطير والآثار والألواح الآشورية[97]، وترقّوا في التّطبيق والتّدقيق إلى أنْ وجدوا معظم الخرافات المضافة إلى أصول عامة الأديان في الشّرق الأدنى مُقتبسة من الوضعيات المنسوبة لِنحل الشّرق الأقصى، وقد كشفت الآثار أنَّ الاستبداد أخفى تاريخ الأديان وجعل أخبار منشئها في ظلام مطبق، حتّى إنَّ أعداء الأديان المتأخِّرين أمكنهم أنْ يُنكروا أساساً وجود موسى وعيسى عليهما السّلام، كما شَوَّشَ الاستبداد في المسلمين تاريخ آل البيت عليهم الرّضوان؛ الأمر الذي تولَّد عنه ظهور الفِرَق التي تشيَّعت لهم كالإمامية[98] والإسماعيلية[99] والزّيدية والحاكمية وغيرهم.

---

(93) الصّواب: عن المسيح نفسه.

(94) في (ط. ق): قليلها مُتّبعٌ وكثيرها مُبْتَدَعٌ.

(95) الأهرامات.

(96) شروح الموسوية، والمقصود تلمود بابل الذي وُضع عام (500 م).

(97) نصوص حمورابي وسواها.

(98) إحدى شعبَتَيْ الشّيعة الكبيرتَيْن، تقابل الزّيدية التي عَرَّفنا بها في حواشي (الشهباء). وسُمِّيت الإمامية كذلك لأنَّها تعتدّ بالإمامة وتجعلها صلب مذهبها. وتنقسم إلى شعبتَيْن: اثني عشرية وإسماعيلية.

(99) فرقة من الشّيعة الباطنية، تُنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصّادق. ومُؤَدَّى فلسفة الإسماعيلية أن العقل لا يستطيع إدراك حقيقة الذّات الإلهية.

والخلاصة أنَّ البِدَعَ التي شَوَّشت الإيمان وشَـوَّهت الأديـان تكـاد كُلُّـها تتسلسل بعضها من بعض، وتتولَّد جميعها من غـرض واحـد هـو المراد، ألا وهو الاستعباد.

والناظر المدقِّقُ في تاريخ الإسلام يجد للمستبدِّين مـن الخلفـاء والملـوك الأوَّلين، وبعض العلماء الأعاجم، وبعـض مُقلِّديـهم مـن العـرب المتـأخِّرين أقوالاً افتروها على الله ورسوله تضليلاً للأمَّة عن سبيل الحكمة، يريدون بها إطفاء نور العلم وإطفـاء نـور الله، ولكـنْ؛ أبـى الله إلا أنْ يُتـمَّ نـوره؛ فحفـظ للمسلمين كتابه الكريم الذي هو شمس العلوم وكنز الحكـم مـن أنْ تمسَّـهُ يـد التّحريف؛ وهي إحدى معجزاته لأنَّه قـال فيـه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [100] فما مَسَّـهُ المنـافقون إلاّ بالتّـأويل، وهـذا أيضـاً مـن معجزاتـه؛ لأنَّه أخبر عن ذلك في قوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ [101].

وإني أُمَثِّلُ للمطالعين ما فعله الاستبداد فـي الإسـلام، بمـا حجـر علـى العلماء الحكماء مـن أنْ يُفسِّـروا قسـمَيْ الآلاء والأخـلاق مـن القـرآن تفسـيراً مُدَقِّقاً، لأنَّـهم كـانوا يخـافون مخالفـة رأي بعـض الغُفَّـل السّـالفين أو بعـض المنافقين المقرَّبين المعاصرين، فيُكفِّرون فيُقتَلُون. وهذه مسـألة إعجـاز القـرآن وهي أهم مسألة في الدِّين لم يقدروا أنْ يوفوها حقَّها من البحث، واقتصروا على ما قاله فيها بعض السّلف قولاً مجملاً من أنَّها قصور الطّاقة عن الإتيـان بمثله في فصاحته وبلاغته، وأنَّه أخبر عن أنَّ الرّوم من بعد غلبهم سيغلبون.

---

(100) الحجر: 9.

(101) آل عمران: 7.

مع أنَّه لو فُتح للعلماء ميدان التّدقيق وحريَّة الرّأي والتّأليف، كما أطلق عنان التّخريف لأهل التّأويل والحُكْم، لأظهروا في ألوف من آيات القرآن ألوف آيات الإعجاز، ولرأوا فيه كُلّ يوم آية تتجدَّد مع الزّمان والحدثان تبرهن إعجازه بصدق قوله: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[102]، ولجعلوا الأمَّة تؤمن بإعجازه عن برهان وعيان لا مجرد تسليم وإذعان.

ومثال ذلك: أنَّ العلم كَشَفَ في هذه القرون الأخيرة حقائق وطبائع كثيرة تُعزى لكاشفيها ومُخترعيها من علماء أوروبا وأمريكا؛ والمُدقِّقُ في القرآن يجد أكثرها وَرَدَ به التّصريح أو التّلميح في القرآن منذ ثلاثة عشر قرناً؛ وما بقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء إلا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن شاهدة بأنَّه كلام ربٍّ لا يعلم الغيب سواه؛ ومن ذلك أنَّهم قد كشفوا أنَّ مادة الكون هي الأثير، وقد وصف القرآن بدء التّكوين فقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾[103] وكشفوا أنَّ الكائنات في حركة دائمة دائبة والقرآن يقول: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾[104] إلى أنْ يقول: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[105].

وحَقَّقُوا أنَّ الأرض مُنفتقة في النّظام الشّمسي، والقرآن يقول: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾[106].

---

(102) الأنعام: 59.

(103) فصلت: 11.

(104) يس: 33.

(105) يس: 40.

(106) الأنبياء: 30.

وحَقَّقُوا أنَّ القمر منشقٌّ من الأرض، والقرآن يقول: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾(107). ويقول: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾(108).

وحَقَّقُوا أنَّ طبقات الأرض سبع، والقرآن يقول: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾(109).

وحَقَّقُوا أنَّه لولا الجبال لاقتضى الثّقل النّوعي أنْ تميد الأرض؛ أي ترتجَّ في دورتها، والقرآن يقول: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾(110).

وكشفوا أنَّ سر التّركيب الكيماوي - بل والمعنوي - هو تخالف نسبة المقادير وضبطها(111)، والقرآن يقول: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾(112).

وكشفوا أنَّ للجمادات حياة قائمة بماء التّبلور، والقرآن يقول: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾(113).

وحَقَّقُوا أنَّ العالم العضوي ومنه الإنسان ترقَّى من الجماد، والقرآن يقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾(114).

---

(107) الأنبياء: 44.

(108) القمر: 1.

(109) الطّلاق: 12.

(110) النّحل: 15.

(111) إشارة إلى قانون: التّغيُّرات الكمّيّة تُؤدّي إلى تغيُّرات كيفية.

(112) الرّعد: 8.

(113) الأنبياء: 30.

(114) المؤمنون: 12.

وكشفوا ناموس اللقاح العام في النّبات، والقرآن يقول: ﴿خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ [115] ويقول ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [116]. ويقول: ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [117]. ويقول: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [118].

وكشفوا طريقة إمساك الظّلّ؛ أي التّصوير الشّمسي، والقرآن يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [119].

وكشفوا تسيير السّفن والمركبات بالبخار والكهرباء والقرآن يقول، بعد ذكره الدّواب والجواري بالرّيح: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [120].

وكشفوا وجود المكروب وتأثيره، والجدري وغيره من الأمراض، والقرآن يقول: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ [121]؛ أي متابعة متجمّعة ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ [122]؛ أي من طين المستنقعات اليابس. إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة المُحَقِّقَة لبعض مكتشفات علم الهيئة والنّواميس الطّبيعية. وبالقياس على ما تقدّم ذكره؛ يقتضي أنّ كثيراً من آياته سينكشف

---

(115) يس: 36.

(116) طه: 53.

(117) الحج: 5.

(118) الرّعد: 3.

(119) الفرقان: 45.

(120) يس: 42.

(121) الفيل: 3.

(122) الفيل: 4.

سرُّها فـي المستقبل فـي وقتها المرهـون، تجديداً لإعجازه بإخبـاره عمّـا فـي الغيب مادام الزّمان وما كرَّ الجديدان؛ فلابُدَّ أنْ يأتي يوم يكشف العلم فيه أنَّ الجمادات أيضاً تنمو باللقاح كما تشير إلـى ذلـك آيـة ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [123].

(123) الذّاريات: 49.

الاستبداد والعِلْمُ

ما أشبه المستبدّ في نسبته إلى رعيته بالوصيّ الخائن القوي، يتصرَّف في أموال الأيتام وأنفسهم كما يهوى؛ ما داموا ضِعافاً قاصرين، فكما أنَّه ليس من صالح الوصيّ أنْ يبلغ الأيتامُ رشدَهم، كذلك ليس من غرض المستبدّ أنْ تتنوَّر الرّعية بالعلم.

لا يخفى على المستبدّ مهما كان غبياً أنْ؛ لا استعباد ولا اعتساف إلا مادامت الرّعية حمقاء تخبط في ظلامة جهل وتيه عماء، فلو كان المستبدُّ طيراً لكان خفَّاشاً يصطاد هوام العوام في ظلام الجهل، ولو كان وحشاً لكان ابن آوى يتلقَّف دواجن الحواضر في غشاء الليل، ولكنَّه هو الإنسان يصيد عالِمَهُ جاهِلُهُ.

العلم قبسة من نور اللّه، وقد خَلَقَ الله النّور كَشَّافاً مبصراً، يُولِّد في النّفوس حرارة وفي الرّؤوس شهامة، العلم نور والظّلم ظلام ومن طبيعة النّور تبديد الظّلام، والمتأمِّل في حالة كُلِّ رئيس ومرؤوس يرى كُلَّ سلطة الرّئاسة تقوى وتضعف بنسبة نقصان علم المرؤوس وزيادته.

المستبدُّ لا يخشى علوم اللغة، تلك العلوم التي بعضها يُقوِّم اللسان وأكثرها هزل وهذيان يضيع به الزّمان، نعم؛ لا يخاف علمَ اللغة إذا لم يكن وراء اللسان حكمة حماس تعقد الألوية، أو سحر بيان يحلُّ عقد الجيوش؛

لأنَّه يعرف أنَّ الزّمان ضنينٌ بأنْ تلد الأمّهات كثيراً من أمثال: الكميت وحسّان أو مونتيسكيو[124] وشيللار.[125]

وكذلك لا يخاف المستبدُّ من العلوم الدِّينية المتعلِّقة بالمعاد، المختصة ما بين الإنسان وربّه، لاعتقاده أنَّها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة، وإنّما يتلهَّى بها المتهوِّسون للعلم، حتَّى إذا ضاع فيها عمرهم، وامتلأتها[126] أدمغتهم، وأخذ منهم الغرور ما أخذ، فصاروا لا يرون علماً غير علمهم، فحينئذ يأمن المستبدُّ منهم كما يُؤمن شرُّ السّكران إذا خمر. على أنَّه إذا نبغ منهم البعض ونالوا حرمة بين العوام لا يعدم المستبدُّ وسيلة لاستخدامهم في تأييد أمره ومجاراة هواه في مقابلة أنَّه يضحك عليهم بشيء من التّعظيم، ويسدُّ أفواههم بلقيمات من فتات مائدة الاستبداد؛ وكذلك لا يخاف من العلوم الصّناعية محضاً؛ لأنَّ أهلها يكونون مُسالمين صغار النّفوس، صغار الهمم، يشتريهم المستبدُّ بقليل من المال والإعزاز، ولا يخاف من المادِّيِّين؛ لأنَّ أكثرهم مُبتلون بإيثار النّفس، ولا من الرّياضيين؛ لأنَّ غالبهم قصار النّظر.

ترتعد فرائص المستبدِّ من علوم الحياة مثل الحكمة النّظرية، والفلسفة العقلية، وحقوق الأمم وطبائع الاجتماع، والسّياسة المدنية، والتّاريخ المفصّل، والخطابة الأدبية، ونحو ذلك من العلوم التي تُكبر النّفوسَ، وتُوسِّع العقولَ، وتُعَرِّف الإنسان ما هي حقوقه وكم هو مغبون فيها، وكيف

---

(124) شارل لوي دي سكوندا مونتسكيو (1689 ـ 1755 م). مُؤرِّخ واجتماعي وفيلسوف فرنسي، له (الرسائل الفارسية) وهو نقد للمجتمع الأوروبي بأسلوب ساخر. وقد اشتهر بمؤلَّفه السّياسي (روح القوانين) الذي يُبيِّن فيه أشكال الحكومة.

(125) فريدريخ فون شيلر (1759 ـ 1825 م) شاعر وفيلسوف ومسرحي ألماني.

(126) امتلأت بها.

الطّلب، وكيف النّوال، وكيف الحفظ. وأخوف ما يخاف المستبدُّ من أصحاب هذه العلوم، المندفعين منهم لتعليم النّاس بالخطابة أو الكتابة وهم المُعَبَّرُ عنهم في القرآن بالصّالحين والمصلحين في نحو قوله تعالى[127]: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[128] وفي قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[129]، وإنْ كان علماء الاستبداد يُفَسِّرون مادة الصّلاح والإصلاح بكثرة التّعَبُّد كما حَوَّلوا معنى مادة الفساد والإفساد: من تخريب نظام الله إلى التّشويش على المستبدّين.

والخلاصة: أنَّ المستبدَّ يخاف من هؤلاء العلماء العاملين الرّاشدين المرشدين، لا من العلماء المنافقين أو الذين حفر[130] رؤوسَهم محفوظاتٌ كثيرة كأنَّها مكتبات مُقفلة!

كما يبغضُ المستبدُّ العلمَ لنتائجه؛ يبغضه أيضاً لذاته؛ لأنَّ للعلم سلطاناً أقوى من كُلِّ سلطان، فلابُدَّ للمستبدِّ من أنْ يستحقر نفسه كلما وقعت عينه على مَنْ هو أرقى منه علماً. ولذلك لا يحبُّ المستبدُّ أنْ يرى وجه عالم عاقل يفوق عليه فكراً، فإذا اضطرَّ لمثل الطّبيب والمهندس يختار الغبي المتصاغر المتملّق. وعلى هذه القاعدة بنى ابن خلدون قوله (فاز المتملّقون)، وهذه طبيعة كُلِّ المتكبِّرين، بل في غالب النّاس، وعليها مبنى ثنائهم على كُلِّ مَنْ يكون مسكيناً خاملاً لا يُرجى لخيرٍ ولا لشرٍّ.

---

(127) في (ط. ق) لا توجد في هذا الموضع شواهد قرآنية. ومزيدة على (ط. ج) ستّة أسطر إضافية.

(128) الأنبياء: 105.

(129) هود: 117، ورد في الأصل (وما كنا لنهلك القرى وأهلها مصلحون).

(130) بمعنى: حشت.

وينتج مِمّا تقدَّم أنَّ بين الاستبداد والعلم حرباً دائمة وطراداً مُستمراً: يسعى العلماء في تنوير العقول، ويجتهد المستبدُّ في إطفاء نورها، والطَّرَفان يتجاذبان العوام. ومَنْ هم العوام؟ هم أولئك الذين إذا جهلوا خافوا، وإذا خافوا استسلموا، كما أنَّهم هم الذين متى علموا قالوا، ومتى قالوا فعلوا.

العوام هم قُوَّةُ المستبدّ وقُوْتُهُ. بهم عليهم يصول ويطول؛ يأسرهم، فيتهلَّلُون لشوكته؛ ويغصب أموالهم، فيحمدونه على إبقائه حياتهم؛ ويُهينهم، فيثنون على رفعته؛ ويغري بعضهم على بعض، فيفتخرون بسياسته؛ وإذا أسرف في أموالهم، يقولون كريماً؛ وإذا قَتَلَ منهم ولم يُمَثِّل، يعتبرونه رحيماً؛ ويسوقهم إلى خطر الموت، فيطيعونه حذر التّوبيخ؛ وإنْ نقم عليه منهم بعض الأُباة قاتلَهُم كأنَّهم بغاة.

والحاصل أنَّ العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف النّاشئ عن الجهل والغباوة، فإذا ارتفع الجهل وتنوَّرَ العقل زال الخوف، وأصبح النّاس لا ينقادون طبعاً لغير منافعهم، كما قيل: العاقل لا يخدم غير نفسه، وعند ذلك لابُدَّ للمستبدِّ من الاعتزال أو الاعتدال. وكم أجبرتْ الأممُ بترقِّيها المستبدَّ اللئيم على التَّرقِّي معها والانقلاب ـ رغم طبعه ـ إلى وكيل أمين يهاب الحساب، ورئيس عادل يخشى الانتقام، وأب حليم يتلذَّذ بالتّحابب. وحينئذ تنال الأمَّة حياة رضية هنية، حياة رخاء ونماء، حياة عزّ وسعادة، ويكون حظُّ الرّئيس من ذلك رأس الحظوظ، بعد أنْ كان في دور الاستبداد أشقى العباد؛ لأنَّه كان على الدّوام ملحوظاً بالبغضاء، محاطاً بالأخطار، غير أمين على رياسته، بل وعلى حياته طرفة عين؛ ولأنَّه لا يرى قط أمامه مَنْ يسترشده فيما يجهل؛ لأنَّ الواقف بين يديه مهما كان عاقلاً متيناً، لابُدَّ

أنْ يهابه، فيضطرب باله، فيتشوَّش فكره، ويختل رأيه، فلا يهتدي إلى الصّواب، وإنْ اهتدى فلا يجسر على التّصريح به قبل استطلاع رأي المستبدِّ، فإنْ رآه متّصلّباً فيما يراه فلا يسعه إلا تأييده رشداً كان أو غيّاً، وكلُّ مستشار غيرُه يدَّعي أنَّه غير هيّاب فهو كذَّاب؛ والقول الحقُّ: إنَّ الصّدق لا يدخل قصور الملوك؛ بناءً عليه؛ لا يستفيد المستبدُّ قطُّ من رأي غيره، بل يعيش في ضلال وتردُّد وعذاب وخوف، وكفى بذلك انتقاماً منه على استعباده النّاس وقد خَلَقَهُم ربُّهم أحراراً.

إنَّ خوف المستبدِّ من نقمة رعيته أكثر من خوفهم بأسه؛ لأنَّ خوفَه ينشأ عن علمه بما يستحقُّه منهم، وخوفهم ناشئ عن جهل؛ وخوفه عن عجز حقيقي فيه، وخوفهم عن توهُّم التّخاذل فقط؛ وخوفه على فَقْدِ حياته وسلطانه، وخوفهم على لقيمات من النّبات وعلى وطن يألفون غيره في أيام؛ وخوفه على كُلِّ شيء تحت سماء مُلْكه، وخوفهم على حياة تعيسة فقط.

كلما زاد المستبدُّ ظلماً واعتسافاً زاد خوفه من رعيته وحتّى من حاشيته، وحتّى ومن هواجسه وخيالاته. وأكثر ما تُختم حياة المستبدِّ بالجنون التّام. قلتُ: (التّام) لأنَّ المستبدَّ لا يخلو من الحمق قطّ، لنفوره من البحث عن الحقائق، وإذا صادف وجود مستبدٍّ غير أحمق فيسارعه الموت قهراً إذا لم يسارعه الجنون أو العته؛ وقلتُ: إنَّه يخاف من حاشيته؛ لأنَّ أكثر ما يبطش بالمستبدِّين حواشيهم؛ لأنَّ هؤلاء أشقى خَلْق الله حياة، يرتكبون كُلَّ جريمة وفظيعة لحساب المستبدِّ الذي يجعلهم يُمسون ويُصبحون مخبولين مصروعين، يُجهدون الفكر في استطلاع ما يريد منهم فعله بدون أنْ يطلب أو يُصرِّح. فكم ينقم عليهم ويهينهم لمجرَّد أنَّهم لا يعلمون الغيب، ومَنْ ذا الذي يعلم الغيب، الأنبياء والأولياء؟ وما هؤلاء إلا أشقياء؛ أستغفرك اللهم!

لا يعلم غيبَك نبيٌّ ولا وليٌّ، ولا يدَّعي ذلك إلاّ دجّال، ولا يظنّ صدقه إلاّ المغفَّل، فإنَّك اللهم قلتَ وقولك الحقّ: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾[131] وأفضل أنبيائك يقول «لو علمتُ الخير لاستكثرتُ منه»[132].

من قواعد المؤرّخين المُدقِّقين: إنَّ أحدهم إذا أراد الموازنة بين مُسْتَبدَّين كنيرون[133] وتيمور[134] مثلاً، يكتفي أنْ يوازن درجة ما كانا عليه من التّحذُّر والتّحفُّظ. وإذا أراد المفاضلة بين عادلَيْن كأنو شروان وعمر الفاروق[135]، يوازن بين مرتَبَتَيْ أمنهما في قوميهما.[136]

---

(131) الجن: 26.

(132) لم نعثر عليه في كُتُب الحديث الشّريف. لعلَّ الأمر التبس على الكواكبي في معنى الآية / 188/ من سورة الأعراف على لسان النّبي ﷺ: «ولو كنتُ أعلم الغيب لاستكثرتُ من الخير».

(133) كلاوديوس قيصر (37 ـ 68م) إمبراطور روماني (54 ـ 68م) ابن دوميتيوس اهنو باربوس وأجريبينا الثّانية. بعد زواج أجريبينا من كلاوديوس الأول أقنعته بتبنّي نيرون، وعندما توفي كلاوديوس خلفه نيرون، قتَلَ أمه، ثمَّ زوجته أوكتافيا، واضطهد المسيحيين. تُلقى عليه تبعة حريق روما الكبير (64). أعاد بناء روما على نمط فاخر. ارتكب سلسلة من أعمال القتل الوحشية. قال وهو يحتضر: «ما أعظم الفنان الذي سيخسره العالم بموتي».

(134) تيمور لنك (1336 ـ 1405م) فاتح مغولي، وُلد قرب سمرقند. يُعرف بتيمور الأعرج ادّعى أنَّه من سلالة جنكيز خان.

سيطر عام (1639م) على ما يُعرف حالياً بتركستان الرّوسية. غزا فارس والهند وبلاد الكرج، ثمَّ استولى على حلب واستباحها لمدَّة ثلاثة أيام، تعرضتْ خلالها لكثير من النّهب والتّخريب. تعجُّ سيرته بأعمال القسوة، لكنَّه أيضاً شَجَّعَ الفن والأدب والعلم، وعندما احتلَّ دمشق أخذ أفضل علمائها وفنانيها إلى سمرقند. أقام المنشآت العامة الضّخمة. وتوفي أثناء غزو الصّين.

(135) في (ط. ق) صلاح الدّين بدل عمر الفاروق.

(136) حول هذا المعنى دارت قصيدة حافظ إبراهيم التي يقول فيها:

وَرَاعَ صاحبُ كسرى أنْ رأى عمراً ... بين الرّعية عطلاً وهو راعيها

أمنتَ لما أقمتَ العدلَ بينهم ... فَنِمْتَ فيهم قريرَ العين هانيها

لما كانت أكثر الدّيانات مُؤسَّسة على مبدأي الخير والشّر كالنور والظّلام، والشّمس وزحل، والعقل والشّيطان، رأت بعض الأمم الغابرة أنّ أضرَّ شيء على الإنسان هو الجهل، وأضر آثار الجهل هو الخوف[137]، فَعَملَتْ هيكلاً مُخَصَّصاً للخوف يُعبد اتقاءً لشرِّه.

قال أحد المُحَرِّرين السّياسيين : إني أرى قصر المستبدّ في كُلِّ زمان هو هيكل الخوف عينه : فالملك الجبار هو المعبود، وأعوانه هم الكَهَنَة، ومكتبتُهُ هي المذبح المقدّس، والأقلام هي السّكاكين، وعبارات التّعظيم هي الصّلوات، والنّاس هم الأسرى الذين يُقدِّمون قرابين الخوف، وهو أهمُّ النّواميس الطّبيعية في الإنسان، والإنسان يقرب من الكمال في نسبة ابتعاده عن الخوف، ولا وسيلة لتخفيف الخوف أو نفيه غير العلم بحقيقة المخيف منه، وهكذا إذا زاد علم أفراد الرّعية بأنَّ المستبدَّ امرؤٌ عاجز مثلهم، زال خوفهم منه وتقاضوه حقوقهم.

ويقول أهل النّظر: إنَّ خير ما يستدل به على درجة استبداد الحكومات؛ هو تغاليها في شنآن الملوك، وفخامة القصور، وعظمة الحفلات، ومراسيم التّشريفات، وعلائم الأُبَّهَة، ونحو ذلك من التّمويهات التي يسترهب بها الملوك رعاياهم عوضاً عن العقل والمفاداة، وهذه التّمويهات يلجأ إليها المستبدُّ كما يلجأ قليل العزِّ للتّكبُّر، وقليل العلم للتّصوُّف، وقليل الصّدق لليمين، وقليل المال لزينة اللباس.

---

(137) كذا في الأصل، والصّواب : أكثر ضرراً على الإنسان هو الجهل، وأكثر آثار الجهل ضرراً هو الخوف.

ويقولون: إنَّه كذلك يُستدلُّ على عراقة الأمَّة في الاستعباد أو الحريَّة باستنطاق لغتها؛ هل هي قليلة ألفاظ التّعظيم كالعربية مثلاً؟ أم هي غنية في عبارات الخضوع كالفارسية، وكتلك اللغة التي ليس فيها بين المتخاطبين أنا وأنتَ، بل سيدي وعبدكم؟!

والخلاصة أنَّ الاستبداد والعلم ضدَّان متغالبان؛ فكُلُّ إدارة مُستبدَّة تسعى جهدها في إطفاء نور العلم، وحصر الرّعية في حالك الجهل. والعلماء الحكماء الذين ينبتون أحياناً في مضايق صخور الاستبداد يسعون جهدهم في تنوير أفكار النّاس، والغالب أنَّ رجال الاستبداد يُطاردون رجال العلم وينكلون بهم، فالسعيد منهم مَنْ يتمكَّن من مهاجرة دياره، وهذا سبب أنَّ كُلَّ الأنبياء العظام - عليهم الصّلاة والسّلام وأكثرَ العلماء الأعلام والأدباء النّبلاء - تقلّبوا في البلاد وماتوا غرباء.

إنَّ الإسلامية أوّل دين حضَّ على العلم، وكفى شاهداً أنَّ أوّلَ كلمة أُنزلت من القرآن هي الأمر بالقراءة أمراً مُكَرَّراً، وأوّل منَّة أَجَلَّها الله وامتنَّ بها على الإنسان هي أنَّه عَلَّمه بالقلم. عَلَّمَهُ به ما لم يعلم. وقد فهم السّلفُ الأوّل من مغزى هذا الأمر وهذا الامتنان وجوب تعلُّم القراءة والكتابة على كُلِّ مسلم، ، وبذلك عَمَّتْ القراءة والكتابة في المسلمين أو كادتْ تعمُّ، وبذلك صار العلم في الأمَّة حُرّاً مباحاً للكُلِّ لا يختصُّ به رجال الدِّين أو الأشراف كما كان في الأمم السّابقة، وبذلك انتشر العلم في سائر الأمم أخذاً عن المسلمين! ولكنْ؛ قَاتَل اللهُ الاستبدادَ الذي استهان بالعلم حتَّى جعله كالسلعة يُعطى ويُمنح للأمِّيِّين، ولا يجرؤ أحد على الاعتراض، أجل؛ قَاتلَ اللهُ الاستبدادَ الذي رجع بالأمَّة إلى الأمِّيَّة، فالتقى آخرها بأوّلها، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله.

قال المُدَقِّقُون: إنَّ أخوف ما يخافه المستبدُّون الغربيون من العلم أنْ يعرف النّاس حقيقة أنَّ الحريَّة أفضل من الحياة، وأنْ يعرفوا النّفس وعزَّها، والشّرفَ وعظمته، والحقوقَ وكيف تُحفظ، والظّلمَ وكيف يُرفع، والإنسانيةَ وما هي وظائفها، والرّحمةَ وما هي لذَّاتها.

أما المستبدُّون الشّرقيون فأفئدتهم هواء ترتجف من صولة العلم، كأنَّ العلم نار وأجسامهم من بارود. المستبدُّون يخافون من العلم حتَّى من عِلْم النّاس معنى كلمة (لا إله إلا الله)، ولماذا كانت أفضل الذّكر، ولماذا بُني عليها الإسلام. بُني الإسلام، بل وكافة الأديان على(لا إله إلا الله)، ومعنى ذلك أنَّه لا يُعْبَدُ حقّاً سوى الصّانع الأعظم، ومعنى العبادة الخضوع ومنها لفظة العبد، فيكون معنى لا إله إلا الله: (لا يستحقُّ الخضوعَ شيءٌ غيرُ الله). وما أفضل تكرار هذا المعنى على الذّاكرة آناء الليل وأطراف النّهار تحذُّراً من الوقوع في ورطة شيء من الخضوع لغير الله وحده. فهل ـ والحالة هذه ـ يناسب غرض المستبدِّين أنْ يعلم عبيدهم أنْ لا سيادة ولا عبودية في الإسلام ولا ولاية فيه ولا خضوع، إنما المؤمنون بعضهم أولياء بعض؟ كلا؛ لا يُلائم ذلك غرضَهُم، وربما عَدّوا كلمة (لا إله إلا الله) شتماً لهم! ولهذا؛ كان المستبدُّون ـ ولازالوا ـ من أنصار الشِّرْك وأعداء العلم.

إنَّ العلم لا يناسب صغار المستبدِّين أيضاً كخَدَمَة الأديان المتكبِّرين وكالآباء الجُهَلاء، والأزواج الحمقاء، وكرؤساء كُلٍّ الجمعيات الضّعيفة. والحاصل: **أنَّه ما انتشر نور العلم في أمّة قطّ إلا وتكسَّرت فيها قيود الأسر، وساء مصير المستبدِّين من رؤساء سياسة أو رؤساء دين.**

الاستبداد والمجد

من الحِكَم البالغة للمتأخِّرين قولهم "الاستبداد أصلٌ لكُلِّ فساد"، ومبنى ذلك أنَّ الباحث المُدَقِّق في أحوال البشر وطبائع الاجتماع كَشَفَ أنَّ للاستبداد أثراً سيئاً في كُلِّ واد، وقد سبق أنَّ الاستبداد يضغط على العقل فيفسده، وإنـي الآن أبحث في أنَّه كيف يُغالب الاستبدادُ المجدَ فيفسده، ويُقيم مقامه التّمجُّد.

المجد: هو إحراز المرء مقام حُبٍّ واحترام في القلوب، وهو مطلب طبيعي شريف لكُلِّ إنسان، لا يترفَّع عنه نبيٌّ أو زاهد، ولا ينحطُّ عنه دنيٌّ أو خامل. للمجد لَذَّةٌ روحية تُقارب لَذَّة العبادة عند الفانين في الله، وتُعادل لَذَّة العلم عند الحكماء، وتربو على لَذَّة امتلاك الأرض مع قمرها[138] عند الأمراء، وتزيد على لَذَّة مفاجأة الإثراء عند الفقراء. ولذا؛ يُزاحمُ المجدُ في النّفوس منزلةَ الحياة.

وقد أَشْكَلَ على بعض الباحثين أيّ الحرصَين أقوى؟ حرص الحياة أم حرص المجد؟ والحقيقة التي عَوَّلَ عليها المتأخِّرون ومَيَّزوا بها تخليط ابن خلدون هي التّفضيل؛ وذلك أنَّ المجد مُفَضَّل على الحياة عند الملوك والقُوَّاد وظيفةً، وعند النُّجَباء والأحرار حميّة، وحبُّ الحياة ممتاز على المجد عند الأُسراء والأذلاء طبيعةً، وعند الجبناء والنّساء ضرورةً. وعلى هذه القاعدة

(138) وردت في (ط.ق): (ثمرها) وهي الأولى.

يكون أئمَّة آل البيت - عليهم السّلام - معذورين في إلقاء أنفسهم في تلك المهالك؛ لأنَّهم لمّا كانوا نجباء أحراراً، فحميَّتهم جعلتهُم يُفَضّلون الموتَ كراماً على حياة ذُلٍّ مثل حياة ابن خلدون الذي خَطَّأ أمجاد البشر في إقدامهم على الخطر إذا هَدَّدَ مجدهم[139]، ذاهلاً على أنَّ بعض أنواع الحيوان - ومنها البلبل - وُجدت فيها طبيعة اختيار الانتحار أحياناً تخلُّصاً من قيود الذُلّ، وأنَّ أكثر سباع الطّير والوحوش إذا أُسرت كبيرة تأبى الغذاء حتّى تموت، وأنَّ الحُرَّة تموت ولا تأكل بِعِرْضِهَا، والماجدة تموت ولا تأكل بثدييها!

المجد لا يُنال إلا بنوع من البذل في سبيل الجماعة، وبتعبير الشّرقيين في سبيل الله أو سبيل الدِّين، وبتعبير الغربيين في سبيل المدنيَّة أو سبيل الإنسانية. والمولى تعالى - المستحقّ التّعظيم لِذَاتِهِ - ما طالب عبيده بتمجيده إلا وقَرَنَ الطّلَبَ بذكر نعمائه عليهم.

وهذا البذل إمَّا بذل مال للنّفع العام ويُسمَّى مجد الكرم؛ وهو أضعف المجد، أو بذل العلم النّافع المفيد للجماعة؛ ويُسمَّى مجد الفضيلة، أو بذل النّفس بالتّعرُّض للمشاقّ والأخطار في سبيل نصرة الحقّ وحفظ النّظام؛ ويُسمَّى مجد النّبالة، وهذا أعلى المجد؛ وهو المراد عند الإطلاق، وهو المجد الذي تتوق إليه النّفوس الكبيرة، وتحنُّ إليه أعناق النّبلاء. وكم له من عشاق تلذُّ لهم في حبه المصاعب والمخاطرات، وأكثرهم يكون من مواليد بيوت نادرة حمتها الصُّدَف من عيون الظّالمين المُذلّين، أو يكون من نُجَبَاء بيوت ما انقطعت فيها سلسلة المجاهدين وما انقطعت عجائزها عن بكائهم. ومن

---

(139) إشارة إلى قول لابن خلدون في مُقدمته؛ حيثُ لامَ الحسينَ بن علي على خروجه لحرب يزيد بن معاوية.

أمثلة المجد قولهم : خَلَقَ اللهُ للمجد رجالاً يستعذبون الموتَ في سبيله، ولا سبيل إليه إلا بعظيم الهمَّة والإقدام والثّبات، تلك الخصال الثّلاث التي بها تُقَدَّر قِيَم الرّجال.

وهذا (نيرون) الظّالم سألَ (أغربين)[140] الشّاعر وهو تحت النّطع : مَنْ أشقى النّاس؟ فأجابه مُعرِّضاً به : مَنْ إذا ذكر النّاسُ الاستبدادَ كان مثالاً له في الخيال. وكان (ترايان)[141] العادل إذا قَلَّدَ سيفاً لقائد يقول له : هذا سيف الأمَّة أرجو أنْ لا أتعدّى القانون فيكون له نصيب في عنقي. وخرج قيس من مجلس الوليد مغضباً يقول : "أتريد أنْ تكون جباراً؟ والله؛ إنَّ نعال الصّعاليك لأطول من سيفك!". وقيل لأحد الأُباة : ما فائدة سعيك غير جَلْب الشّقاء على نفسك؟ فقال: ما أحلى الشّقاء في سبيل تنغيص الظّالمين!. وقال آخر: عليَّ أنْ أفي بوظيفتي وما عليَّ ضمان القضاء. وقيل لأحد النّبلاء: لماذا لا تبني لك داراً؟ فقال: ما أصنع فيها وأنا المقيم على ظهر الجواد أو في السّجن أو في القبر، وهذه ذات النِّطَاقَيْن (أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها) وهي امرأة عجوز تُودِّعُ ابنها بقولها: "إنْ كنتَ على الحقِّ فاذهبْ وقاتل الحَجَّاج حتَّى تموتَ"[142]. وهذا مكما هون رئيس

(140) أغلب الظّن أنَّ الكواكبي يُخطئ بالتّسمية، والمقصود أغريبينا، وأجريبينا أم نيرون التي تصدَّت له فَقَتَلَهَا.

(141) في الأصل : ترابان. وترايان هو ترايانوس ماركوس أولبيوس (53 - 117 م) إمبراطور روماني (98 - 117 م) عُرِف بحُبِّ العدل.

(142) أسماء بنت أبي بكر الصِّدِّيق (ت 73 هـ = 692 م) أخت عائشة لأبيها، وأمّ عبد الله بن الزّبير (1 - 73هـ =622 - 692م) لقبها (ذات النّطاقَيْن) والحادثة التي يذكرها الكواكبي جرت بين الحَجّاج وابنها عبد الله.

جمهورية فرنسا استبدَّ فـي أمر واحد فدخل عليه صديقه غامبتا[143] وهو يقول: الأمر للأمَّة لا إليك، فاعتدِلْ، أو اعتزِلْ، وإلا فأنت المخذول المـهان الميت!!

والحاصل أنَّ المجدَ هو المجدُ مُحَبَّبٌ للنّفوس، لا تفتأ تسعى وراءه وترقى مراقيه، وهو مُيسَّرٌ في عهد العدل لكُلِّ إنسان على حسب استعداده وهمَّته، وينحصر تحصيله في زمن الاستبداد بمقاومة الظّلم على حسب الإمكان.

يقابل المجد - مـن حيـثُ مبنـاه - التَمجُّد. ومـا هـو التّمجُّد؟ ومـاذا يكون التّمجُّد؟ التّمجُّد لفظٌ هائل المعنى، ولهذا أراني أتعثَّر بالكلام وأتلعثم في الخطاب، ولا سيما من حيثُ أخشى مساس إحساس بعض المطالعين، إنْ لـم يكـن مـن جهـة أنفسهم فمن جهـة أجدادهـم الأوَّلـين، فأناشـدهم الوجدان والحقّ المهان، أنْ يتجرَّدوا دقيقتَيْن من النّفس وهواها، ثمَّ هُمْ مثلي ومثل سائر الجـانين علـى الإنسـانية لا يعدمـون تـأويلاً. وإنني أُعلِّل النُّفْسَ بقبولهم تهويني هذا، فأنطلق وأقول:

التّمجُّد خاص بـالإدارات المسـتبدَّة، وهـو القُربى مـن المسـتبدِّ بـالفعل كالأعوان والعمّال، أو بالقوَّة كالمُلقَّبين بنَحْوِ دوق وبارون، والمخاطبين بنَحْوِ ربّ العزّة وربّ الصّولة، أو الموسومين بالنّياشين، أو المطوَّقين بالحمـائل، وبتعريف آخر، التّمجُّد هو أنْ ينـال المـرء جـذوة نـار مـن جـهنم كبريـاء المستبدِّ ليحرق بها شرف المساواة في الإنسانية.

(143) ليون غامبتا (1838 - 1882 م) سياسي فرنسي، كان له دور في إقرار النّظام الجمهوري. قاد مقاومة الاحتلال الألماني بعد هزيمة (1870 م).

وبوصف أجلى : هو أنْ يتقلّد الرّجل سيفاً من قِبَلِ الجبَّار يُبرهن به على أنَّه جلاد في دولة الاستبداد، أو يُعلِّق على صدره وساماً مُشعراً بما وراءه من الوجدان المستبيح للعدوان، أو يتَزيَّن بسيور مزركشة تُنبئ بأنَّه صار مُخنَّثاً أقرب إلى النّساء منه إلى الرّجال، وبعبارة أوضح وأخصر، هو أنْ يصير الإنسان مستبداً صغيراً في كنف المستبدِّ الأعظم.

قلتُ: إنَّ التّمجُّد خاصٌّ بالإدارات الاستبدادية، وذلك لأنَّ الحكومة الحرة التي تُمَثِّل عواطف الأمَّة تأبى كُلَّ الإباء إخلال التّساوي بين الأفراد إلا لفضل حقيقي، فلا ترفع قَدْرَ أحد منها إلا رَفْعاً صورياً أثناء قيامه في خدمتها؛ أي الخدمة العمومية، وذلك تشويقاً له على التّفاني في الخدمة، كما أنَّها لا تُميِّز أحداً منها بوسام أو تُشرِّفه بلقب إلا ما كان علمياً أو ذكرى لخدمة مهمة وفَّقَهُ اللهُ إليها. وبمثل هذا يرفع اللهُ النّاسَ بعضهم فوق بعض درجات في القلوب لا في الحقوق.

وهذا لقب اللوردية مثلاً عند الإنكليز هو من بقايا عهد الاستبداد، ومع ذلك لا يناله عندهم غالباً إلا مَنْ يخدم أمَّتهُ خدمة عظيمة ويكون من حيثُ أخلاقه وثروته أهلاً لأنْ يخدمها خدمات مهمة غيرها، ومن المُقرَّر أنْ لا اعتبار للورد في نظر الأمَّة إلا إذا كان مُؤسِّساً لا وارثاً، أو كانت الأمَّة تقرأ في جبهته سطراً مُحَرَّراً بقلم الوطنية وبمداد الشّهامة مَمْضيٌّ بدمه يُقسم فيه بشرفه أنَّه ضمين بثروته وحياته ناموس الأمَّة؛ أي قانونها الأساسي، حفيظ على روحها؛ أي حريتها.

التّمجُّد لا يكاد يوجد له أثر في الأمم القديمة إلا في دعوى الألوهية وما معناها من نفع النّاس بالأنفاس، أو في دعوى النّجابة بالنّسب التي

يهول بها الأصلاء نسل الملوك والأمراء، وإنَّما نشأ التّمجُّد بالألقاب والشّارات في القرون الوسطى، وراج سوقه في القرون الأخيرة، ثمَّ قامت فتاة الحريَّة تتغنَّى بالمساواة وتغسل أدرانه على حسب قوتها وطاقتها، ولم تبلغ غايتها إلى الآن في غير أمريكا.

المُتَمَجِّدُون يريدون أنْ يخدعوا العامة، وما يخدعون غير نسائهم اللاتي يَتَفَخْفَحْنَ بين عجائز الحي بأنَّهم كبار العقول؛ كبار النّفوس؛ أحرار في شؤونهم لا يُزاح لهم نقاب، ولا تُصفع منهم رقاب، فيحوجهم هذا المظهر الكاذب لتحمُّل الإساءات والإهانات التي تقع عليهم من قِبَلِ المستبدِّ، بل تحوجهم للحرص على كتمها، بل على إظهار عكسها، بل على مقاومة مَنْ يدَّعي خلافها، بل على تغليط أفكار النّاس في حَقِّ المستبدِّ وإبعادهم عن اعتقاد أنَّ من شأنه الظّلم.

وهكذا يكون المُتَمَجِّدين أعداء للعدل أنصاراً للجور، لا دِين ولا وجدان ولا شرف ولا رحمة، وهذا ما يقصده المستبدُّ من إيجادهم والإكثار منهم ليتمكَّن بواسطتهم من أنْ يُغَرِّر الأمَّة على إضرار نفسها تحت اسم منفعتها، فيسوقها مثلاً لحرب اقتضاها محض التّجبُّر والعدوان على الجيران، فيوهمها أنَّه يريد نصرة الدِّين، أو يُسرف بالملايين من أموال الأمَّة في ملذَّاته وتأييد استبداده باسم حفظ شرف الأمَّة وأبهة المملكة، أو يستخدم الأمَّة في التّنكيل بأعداء ظلمه باسم أنَّهم أعداء لها، أو يتصرَّف في حقوق المملكة والأمَّة كما يشاؤه هَوَاه باسم أنَّ ذلك من مقتضى الحكمة والسّياسة.

والخلاصة: أنَّ المستبدَّ يَتَّخِذُ المُتَمَجِّدين سماسرة لتغرير الأمَّة باسم خدمة الدِّين، أو حُبِّ الوطن، أو توسيع المملكة، أو تحصيل منافع عامة، أو

مسؤولية الدّولة، أو الدِّفاع عن الاستقلال، والحقيقة أنَّ كُلَّ هذه الدّواعي الفخيمة العنوان في الأسماع والأذهان ما هي إلا تخييل وإيهام يقصد بها رجالُ الحكومة تهييجَ الأمَّة وتضليلها، حتَّى إنَّه لا يُستثنى منها الدّفاع عن الاستقلال؛ لأنَّه ما الفرق على أمَّة مأسورة لزيد أنْ يأسرها عمرو؟ وما مثلها إلا الدّابة التي لا يرحمها راكب مطمئن، مالكاً كان أو غاصباً.

المستبدُّ لا يستغني عن أنْ يستمجد بعض أفراد من ضعاف القلوب الذين هم كبقر الجنة لا ينطحون ولا يرمحون، يتَّخذهم كأنموذج البائع الغشاش، على أنَّه لا يستعملهم في شيء من مهامه، فيكونون لديه كمصحف في خَمَّارة أو سبحة في يد زنديق، وربما لا يستخدم أحياناً بعضهم في بعض الشّؤون تغليطاً لأذهان العامَّة في أنَّه لا يعتمد استخدام الأراذل والأسافل فقط، ولهذا يُقال: دولة الاستبداد دولة بُلْهٍ وأوغاد.

المستبدُّ يُجرِّب أحياناً في المناصب والمراتب بعضَ العقلاء الأذكياء أيضاً اغتراراً منه بأنَّه يقوى على تليين طينتهم وتشكيلهم بالشّكل الذي يريد، فيكونوا له أعواناً خبثاء ينفعونه بدهائهم، ثمَّ هو بعد التّجربة إذا خاب ويئس من إفسادهم يتبادر إبعادهم أو ينكل بهم. ولهذا لا يستقرُّ عند المستبدِّ إلا الجاهل العاجز الذي يعبده من دون الله، أو الخبيث الخائن الذي يُرضيه ويُغضب الله.

وهنا أنبِّه فكرَ المطالعين إلى أنَّ هذه الفئة من العقلاء الأمناء بالجملة، الذين يذوقون عسيلة مجد الحكومة وينشطون لخدمة الأمَّة ونيل مجد النّبالة، ثمَّ يضرب على يدهم لمجرَّد أنَّ بين أضلعهم قبسة من الإيمان وفي أعينهم بارقة من الإنسانية، هي الفئة التي تتكهرب بعداوة الاستبداد وينادي

أفرادها بالإصلاح. وهذا الانقلاب قد أعيا المستبدِّين؛ لأنَّهم لا يستغنون عن التّجربة ولا يأمنون هذه المغبة. ومن هنا نشأ اعتمادهم في التّجربة غالباً على العريقين في خدمة الاستبداد، الوارثين من آبائهم وأجدادهم الأخلاق المرضية للمستبدِّين، ومن هنا ابتدأت في الأمم نغمة التّمجُّد بالأصالة والأنساب، والمستبدُّون المحنَّكون يطيلون أَمَدَ التّجربة بالمناصب الصّغيرة فيستعملون قاعدة التّرقِّي مع التّراخي، ويُسمّون ذلك برعاية قاعدة القدم، ثمَّ يختمون التّجريب بإعطاء المتمرِّن خدمة يكون فيها رئيساً مطلقاً ولو في قرية، فإنْ أظهر مهارة في الاستبداد وذلك ما يُسمّونه حكمة الحكومة فبها ونعمت، وإلا قالوا عنه: هذا حيوان، يا ضيعة الأمل فيه.

إنَّ للأصالة مشاكلة قوية للمجد والتّمجُّد فلابُدَّ أنْ نبحث فيها قليلاً، ثمَّ نعود لموضوع المستبدِّ وأعوانه المتمجِّدين فأقول:

الأصالة صفة قد يكون لها بعض المزايا من حيثُ الأميال التي يرثها الأبناء من الآباء، ومن حيثُ التّربية التي تكون مستحكمة في البيت ولو رياء، ومن حيثُ إنَّ الأصالة تكون مقرونة غالباً بشيء من الثّروة المعينة على مظاهر الشّهامة والرّحمة، ومن حيثُ تقويتها العلاقة بالأمَّة والوطن خوف مذلَّة الاغتراب، ومن حيثُ إنَّ أهلها يكونون منظورين دائماً فيتحاشون المعائب والنّقائص بعض التّحاشي.

وبيوت الأصالة تنقسم إلى ثلاثة أنواع: بيوت علم وفضيلة، وبيوت مال وكرم، وبيوت ظلم وإمارة. وهذا الأخير هو القسم الأكثر عدداً والأهمّ موقعاً، وهم - كما سبقت الإشارة إليه - مطمح نظر المستبدِّ في الاستعانة وموضع ثقته، وهم الجند الذي يجتمع تحت لوائه بسهولة، وربما

يكفيه أنْ يضحك في وجههم ضحكة. فلننظر ما هو نصيب أهل هذا القسم من تلك المزايا الموروثة:

هل يرث الابن من جده المؤسس لمجده أميالَه في العدالة ولم توجد؟ أم يدبُّ ويشبُّ على غير التَّرف المصغِّر للعقول، المُميت للهِمَم؟ أم يتربَّى على غير الوقار المضحك للباطل، السّائد فيما بين العائلة في بيتهم؟ أم يستخدم الثّروة في غير الملاذ الجسمية الدّنيئة البهيمية وتلك الأبهة الطّاووسية الباطلة؟ أم يتمثَّل بغير أقران السّوء المُتَمَلِّقين المنافقين؟ أم لا يستحقر قومه لجهلهم قدر النُّطفَة الملعونة التي خُلق منها جنابه؟ أم لا يبغض العلماء الذين لا يُقدِّرونه قدره حسبما هو قائم في مخيلة خيلائه؟ أم يرى لجنابه مقراً يليق به غير مقعد التّحكُّم ومستراح التّأمُّر؟ أم يستحي من النّاس؟ ومَنْ هم النّاس؟ ما النّاس عند حضرته غير أشباح عندها أرواح خُلقت لخدمته!

وهذه حالة الأكثرين من الأصلاء، على أننا لا نبخس حَقَّ مَنْ نال منهم حظاً من العلم وأوتي الحكمة وأراد الله به خيراً فأصابه بنصيب من القهر انخفض به شاموخ أنفه، فإنَّ هؤلاء - وقليل ما هم - ينجبون نجابة عظيمة عجيبة، فيصدق عليهم أنَّهم قد ورثوا قوَّة القلب يستعملونها في الخير لا في الشّرّ، واستفادوا من أنفة الكبرياء كالجسارة على العظماء، وهكذا تتحوَّلُ فيهم ميزة الشّرِّ إلى فائض خير وحَسَبٍ شامخ من نحو الحنين إلى الوطن وأهله، والأنين لمصابه، والإقدام على العظائم في سبيل القوم، وأمثال هؤلاء النّوابغ النُّجَبَاء إذا كثروا في أمَّة يوشك أنْ يترقَّى منهم آحاد إلى درجة الخوارق فيقودوا أممهم إلى النّجاح والفلاح، ولا غَرو فإنَّ اجتماع نفوذ النّسب وقوَّة الحسب يفعلان ولا عجب شَبَهَ فعل المستبدِّ

العادل[144] الذي ينشده الشّرقيون، وخصوصاً المسلمون؛ وإنْ كـان العقـل لا يجوز أنْ يتَّصف بالاستبداد مع العدل غير الله وحده، ألا قَاتَلَ اللهُ الهمـةَ السّاقطةَ التي قد تتسفَّل بالإنسان إلى عدم إتعاب الفكر فيما يطلب هل هـو ممكن أم هو محال؟!.

الأصلاء، باعتبار أكثريتهم، هم جرثومة البلاء في كُلِّ قبيلة ومن كُـلِّ قبيـل. لأنَّ بنـي آدم داموا إخوانـاً متسـاوين إلـى أنْ مـيَّزت الصُّدْفـة بعـض أفرادهم بكثرة النّسل، فنشأت منها القوَّات العصبية، ونشأ من تنازعـها تَميُّز أفراد على أفراد، وحِفْظُ هذه الميزة أوجَدَ الأُصَلاء، فالأُصَلاء في عشـيرة أو أمَّـة إذا كـانوا مُتقـاربي القـوَّات اسـتبدّوا علـى بـاقي النّـاس وأسَّـسوا حكومـة أشراف، ومتى وُجد بيت من الأُصَلاء يتميَّز كثيراً في القوَّة على باقي البيوت يستبدُّ وحده ويُؤسِّسُ الحكومة الفردية المقيدة إذا لباقي البيوت بقية بـأس، أو المطلقة إذا لم يبقَ أمامه مَنْ يتَّقيه.

بناءً عليه، إذا لم يوجد في أمَّة أُصَلاء بالكُلِّيَّة، أو وُجد، ولكنْ؛ كان لسواد النّاس صوت غالب، أقـامت تلـك لنفسـها حكومـة انتخابيـة لا وراثـة فيـها ابتـداء، ولكـنْ؛ لا يتوالـى بضـع مُتَوَلِّـين إلا ويصـير أنسـالهم أُصَـلاء يتناظرون، كُلُّ فريق منهم يسعى لاجتذاب طرف من الأمَّة استعداداً للمغالبة وإعادة التّاريخ الأوَّل.

ومن أكـبر مضـار الأُصَلاء، أنَّـهم ينـهمكون أثنـاء المغالبـة علـى إظـهار الأُبَّهَـة والعظمـة، يسـترهبون أعـين النّـاس ويسـحرون عقولـهم ويتكـبَّرون

---

(144) في (ط. ق): "المستبدُّ العادل؛ أي عنقاء مغرب" ولا وجـود لما ورد بعدهـا حتَّى نهاية الفقرة التّالية.

عليهم. ثمَّ إذا غلب غالبهم واستبدَّ بالأمر لا يتركها الباقون لأُلْفَتِهِمْ لَذَّتها ولمضاهاة المستبدِّ في نظر النّاس. والمستبدُّ نفسه لا يحملهم على تركها، بل يدرُّ عليهم المال ويُعينهم عليها، ويعطيهم الألقاب والرّتب وشيئاً من النّفوذ والتّسلُّط على النّاس ليتلهّوا بذلك عن مقاومة استبداده، ولأجل أنْ يألفوها مديداً، فتفسد أخلاقهم، فينفر منهم النّاس، ولا يبقى لهم ملجأ غير بابه، فيصيرون أعواناً له بعد أنْ كانوا أضداداً.

ويستعمل المستبدُّ أيضاً مع الأُصَلاء سياسة الشّدّ والرّخاء، والمنع والإعطاء، والالتفات والإغضاء كي لا يبطروا، وسياسة إلقاء الفساد وإثارة الشّحناء فيما بينهم كي لا يتفقوا عليه، وتارة يُعاقب عقاباً شديداً باسم العدالة إرضاء للعوام، وأخرى يقرنهم بأفراد كانوا يُقَبِّلون أذيالهم استكباراً فيجعلهم سادة عليهم يفركون آذانهم استحقاراً، يقصد بذلك كَسْرَ شوكتهم أمام إمام النّاس وعصر أنوفهم أمام عظمته. والحاصل أنَّ المستبدَّ يُذَلِّلُ الأُصَلاء بكُلِّ وسيلة حتَّى يجعلهم مترامين دائماً بين رجليه كي يتَّخذهم لجاماً لتذليل الرّعية، ويستعمل عين هذه السّياسة مع العلماء ورؤساء الأديان الذين متى شَمَّ من أحدهم رائحة الغرور بعقله أو علمه ينكل به أو يستبدله بالأحمق[145] الجاهل إيقاظاً له ولأمثاله من كُلِّ ظان من أنَّ إدارة الظّلم محتاجة إلى شيء من العقل أو الاقتدار فوق مشيئة المستبدِّ. وبهذه السّياسة

(145) المعنى (يستبدل الأحمق به) لأنَّ الباء للمتروك.

ونحوها يخلو الجو[146] فيعصف وينسف ويتصرَّف في الرّعية كريش يقلبه الصّرصر[147] في جوٍّ محرق.

المستبدُّ في لحظة جلوسه على عرشه ووضع تاجه الموروث على رأسه يرى نفسه كان إنساناً فصار إلهاً. ثمَّ يُرجع النّظر فيرى نفسه في نفس الأمر أعجز من كُلِّ عاجز وأنَّه ما نال ما نال إلا بواسطة مَنْ حوله من العوان، فيرفع نظره إليهم فيسمع لسان حالهم يقول له: ما العرش؟ وما التّاج؟ وما الصّولجان؟ ما هذه إلا أوهام في أوهام. هل يجعلك هذا الرّيش في رأسك طاووساً وأنت غراب؟ أم تظنُّ الأحجار البرَّاقة في تاجك نجوماً ورأسك سماء؟ أم تتوهَّم أنَّ زينة صدرك ومنكبيك أخرجتْكَ عن كونك قطعة طين من هذه الأرض؟ و الله ما مَكَّنَكَ في هذا المقام وسَلَّطَكَ على رقاب الأنام إلا شعوذتنا وسحرنا وامتهاننا لديننا ووجداننا وخيانتنا لوطننا وإخواننا، فانظر أيها الصّغير المكبَّر الحقير الموقّر كيف تعيش معنا!.

ثمَّ يلتفت إلى جماهير الرّعية المتفرِّجين[148]، منهم الطّائشين المُهَلِّلين المُسَبِّحين بحمده، ومنهم المسحورين المبهوتين كأنَّهم أموات من حين، ولكنْ؛ يتجلَّى في فكره أنَّ خلال السّاكتين بعض أفراد عقلاء أمجاد يخاطبونه بالعيون؛ بأنَّ لنا معاشر الأمَّة شؤوناً عمومية وكَلْنَاكَ في قضائها

---

(146) في (ط. ق): "يخلو الجوُّ لهذا المستبدُّ".

(147) في (ط. ق): "الصّرصر والسّموم على أديم من الجمر، ولله الأمر. نعم.. لله جَلَّ شأنه الأمر؛ حيثُ قال: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾" الإسراء: 16.

(148) نُفَضِّل أنْ نضيف (فيرى)، لتصبح الجملة: ثم يلتفت إلى جماهير الرّعية المتفرجين، فيرى منهم الطّائشين...

على ما نريد ونبغي، لا على ما تريد فتبغي. فإنْ وفيتَ حَقَّ الوكالة حُقَّ لك الاحترام، وإنْ مكرتَ مَكَرْنَا وحاقت بك العاقبة، ألا إنَّ مكر الله عظيم.

وعندئذ يرجع المستبدُّ إلى نفسه قائلاً: الأعوان الأعوان، الحَمَلَة السَّدَنة أُسلمهم القياد وأردفهم بجيش من الأوغاد أُحارب بهم هؤلاء العبيد العقلاء، وبغير هذا الحزم لا يدوم لي مُلْكٌ كيفما أكون، بل أبقى أسيراً للعدل مُعرَّضاً للمناقشة مُنَغَّصاً في نعيم الملك، ومن العار أنْ يرضى بذلك مَنْ يمكنه أنْ يكون سلطاناً جباراً مُتفرِّداً قهَّاراً.

الحكومة المستبدَّة تكون طبعاً مُستبدَّة في كُلِّ فروعها من المستبدِّ الأعظم إلى الشَّرطي، إلى الفرَّاش، إلى كَنَّاس الشَّوارع، ولا يكون كُلُّ صنف إلا من أسفل أهل طبقته أخلاقاً، لأنَّ الأسافل لا يهمُّهم طبعاً الكرامة وحُسْن السَّمعة إنما غاية مسعاهم أنْ يُبرهنوا لمخدومهم بأنَّهم على شاكلته، وأنصار لدولته، وشرهون لأكل السَّقطات من أيٍّ كانت ولو بشراً أم خنازير، آبائهم أم أعدائهم، وبهذا يأمنهم المستبدُّ ويأمنونه فيشاركهم ويشاركونه. وهذه الفئة المستخدمة يكثر عددها ويقلُّ حسب شدَّة الاستبداد وخفَّته، فكلما كان المستبدُّ حريصاً على العسف احتاج إلى زيادة جيش المتمجِّدين العاملين له المحافظين عليه، واحتاج إلى مزيد الدِّقَّة في اتِّخاذهم من أسفل المجرمين الذين لا أثر عندهم لدين أو ذمَّة، واحتاج لحفظ النِّسبة بينهم في المراتب بالطَّريقة المعكوسة؛ وهي أنْ يكون أسفلهم طباعاً وخصالاً أعلاهم وظيفة وقرباً، ولهذا؛ لابُدَّ أنْ يكون الوزير الأعظم للمستبدِّ هو اللئيم الأعظم في الأمَّة، ثمَّ مَنْ دونه لؤماً، وهكذا تكون مراتب الوزراء والأعوان في لؤمهم حسب مراتبهم في التّشريفات والقُربى منه. وربما يغترُّ المطالع كما اغترَّ كثير من

المؤرّخين البسطاء بأنَّ بعض وزراء المستبدِّين يتأوَّهون من المستبدِّ ويتشكّون من أعماله ويجهرون بملامه، ويظهرون لو أنَّه ساعدهم الإمكان لعملوا وفعلوا وافتدوا الأمَّة بأموالهم، بل وحياتهم، فكيف ـ والحالة هذه ـ يكون هؤلاء لؤماء؟ بل كيف ذلك وقد وُجد منهم الذين خاطروا بأنفسهم والذين أقدموا فعلاً على مقاومة الاستبداد فنالوا المراد أو بعضه أو هلكوا دونه؟

فجواب ذلك أنَّ المستبدَّ لا يخرج قطُّ عن أنَّه خائنٌ خائفٌ محتاجٌ لعصابة تُعينه وتحميه فهو ووزراؤه كزمرة لصوص: رئيس وأعوان. فهل يُجَوِّزُ العقلُ أنْ يُنتخب رفاق من غير أهل الوفاق وهو هو الذي لا يُستوزر إلا بعد تجربة واختبار عمراً طويلاً؟!

هل يمكن أنْ يكون الوزير مُتخلِّقاً بالخير حقيقة وبالشرِّ ظاهراً فيخدع المستبدَّ بأعماله، ولا يخاف من أنَّه كما نصبه وأعزَّه بكلمة يعزله ويذلّه؟!

بناءً عليه؛ فالمستبدُّ وهو مَنْ لا يجهل أنَّ النّاس أعداؤه لظلمه، لا يأمن على بابه إلا مَنْ يثق به أنَّه أظلم منه للنّاس، وأبعد منه عن أعدائه، وأما تَلَوُّم بعض الوزراء على لوم المستبدِّ فهو إنْ لم يكن خداعاً للأمَّة فهو حنق على المستبدِّ؛ لأنَّه بخس ذلك المتلوِّم حقّه، فَقَدَّم عليه مَنْ هو دونه في خدمته بتضحية دينه ووجدانه. وكذلك لا يكون الوزير أميناً من صولة المستبدِّ في صحبته ما لم يسبق بينهما وفاق واتّفاق على خيرة الشّيطان؛ لأنَّ الوزير محسود بالطّبع، يتوقَّع له المزاحمون كُلَّ شرٍّ، ويبغضه النّاس ولو تبعاً لظالمهم، وهو هدفٌ في كُلِّ ساعة للشّكايات والوشايات. كيف يكون عند الوزير شيء من التّقوى أو الحياء أو العدل أو الحكمة أو المروءة أو الشّفقة على الأمَّة وهو العالم بأنَّ الأمَّة تبغضه وتمقته وتتوقَّع له كُلَّ سوء، وتشمت

بمصائبه، فلا ترضى عنه ما لم يتَّفق معها على المستبدِّ، وما هو بفاعل ذلك أبداً إلا إذا يئس من إقباله عنده، وإنْ يئس وفعل فلا يقصد نَفْعَ الأمَّة قطّ، إنما يريد فتح باب لمستبدٍّ جديد عساه يستوزره فيؤازره على وزره.

والنّتيجة أنَّ وزير المستبدِّ هو وزير المستبدِّ، لا وزير الأمَّة كما في الحكومات الدّستورية. كذلك القائد يحمل سيف المستبدِّ ليغمده في الرّقاب بأمر المستبدِّ لا بأمر الأمَّة، بل هو يستعيذ أنْ تكون الأمَّة صاحبة أمر، لما يعلم من نفسه أنَّ الأمَّة لا تُقَلِّد القيادة لمثله.

بناءً عليه؛ لا يغترُّ العقلاء بما يتشدَّق به الوزراء والقُوَّاد من الإنكار على الاستبداد والتّفلسف بالإصلاح وإنْ تلهَّفوا وإنْ تأفَّفُوا، ولا ينخدعون لمظاهر غيرتهم وإنْ ناحوا وإنْ بكوا، ولا يثقون بهم وبوجدانهم مهما صَلَّوا وسَبَّحوا، لأنَّ ذلك كُلَّه ينافي سيرهم وسيرتهم، ولا دليل على أنَّهم أصبحوا يُخالفون ما شبّوا وشابوا عليه، هم أقرب أنْ لا يقصدوا بتلك المظاهر غير إقلاق المستبدِّ وتهديد سلطته ليشاركهم في استدرار دماء الرّعية؛ أي أموالها. نعم؛ كيف يجوز تصديق الوزير والعامل الكبير الذي قد ألف عمراً طويلاً لذَّة البذخ وعزَّة الجبروت في أنّه يرضى بالدّخول تحت حُكْم الأمَّة ويخاطر بعرض سيفه عليها فتحلّه أو تكسره تحت أرجلها. أليس هو عضواً ظاهر الفساد من جسم تلك الأمَّة التي قتل الاستبداد فيها كُلَّ الأميال الشّريفة العالية فأبعدها عن الأنس بالإنسانية، حتّى صار الفلاح التّعيس منها يؤخذ للجندية وهو يبكي، فلا يكاد يلبس كمَّ السّترة العسكرية إلا ويتلبّس بشرِّ الأخلاق فيتنمَّر على أمِّه وأبيه، ويتمرَّد على أهل قريته وذويه، ويكظُّ أسنانه عطشاً للدّماء لا يُميِّز بين أخ أو عدو؟! إنَّ أكابر رجال عهد الاستبداد لا أخلاق لهم ولا ذمَّة،

فكُلُ ما يتظاهرون به أحياناً من التّذمُر والتّألمُ يقصدون به غشّ الأمَّة المسكينة التي يطمعهم في انخداعها وانقيادها لهم علمهم بأنَّ الاستبداد القائم بهم والمستعمر بهمّتهم قد أعمى أبصارها وبصائرها، وخَدّرَ أعصابها، فجعلها كالمصاب ببحران العمى، فهي لا ترى غير هول وظلام وشدة وآلام، فتئنّ من البلاء ولا تدري ما هو تداويه، ولا من أين جاءها لتصدّه، فتواسيها فئة من أولئك المتعاظمين باسم الدِّين يقولون: يا بؤساء؛ هذا قضاء من السّماء لا مَردَّ له، فالواجب تلقّيه بالصّبر والرّضاء والالتجاء إلى الدّعاء، فاربطوا ألسنتكم عن اللغو والفضول، واربطوا قلوبكم بأهل السّكينة والخمول، وإياكم والتّدبير فإنَّ الله غيور، وليَكُنْ وِرْدُكُم: اللهم انصرْ سلطاننا، وآمنّا في أوطاننا، واكشفْ عنا البلاء، أنتَ حسبنا ونعِمَ الوكيل. ويُغررُ الأمّة آخرون من المتكبِّرين بأنّهم الأطباء الرّحماء المهتمُون بمداواة المرض، إنّما هم يترقّبون سنوح الفرص، وكلا الفريقين ـ والله ـ إمّا أدنياء جُبَنَاء، أو هم خائنون مُخادِعون، يريدون التّبيط والتّلبيد والامتنان على الظّالمين.

من دلائل أنَّ أولئك الأكابر مُغررون مُخادِعون يُظهرون ما لا يُبطنون، أنّهم لا يستصنعون إلا الأسافلَ الأراذلَ من النّاس، ولا يميلون لغير المتملّقين المنافقين من أهل الدِّين، كما هو شأن صاحبهم المستبدٌ الأكبر، ومنها أنّه قد يوجد فيهم مَنْ لا يتنزّل لقليل الرّشوة أو السّرقة، ولكنْ؛ ليس فيهم العفيف عن الكثير، وكفى بما يتمتّعون من الثّروات الطّائلة التي لا منبت لها غير الجاه برهاناً فاضحاً لو كانوا يستحون. ومنها أنْ ليس فيهم غير المستبيح الفاخر بمشاركة المستبدٌ في امتصاص دم الأمّة، ذلك بأخذهم العطايا الكبيرة، والرّواتب الباهظة، التي تعادل أضعاف ما تسمح به الإدارة العادلة لأمثالهم؛ لأنّها إدارة راشدة لا تدفع أجوراً زائدة. ومنها أنّهم

لا يصرفون شيئاً ولو سراً من هذا السّحت[149] الكثير في سبيل مقاومة الاستبداد الذي يزعمون أنّهم أعداؤه، إنّما يصرف بعضهم منه شيئاً في الصّدقات الطّفيفة وبناء المعابد سمعة ورياء، وكأنّهم يريدون أنْ يسرقوا أيضاً قلوب النّاس بعد سَلْب أموالهم أو أنّهم يرشون اللّه، ألا ساء ما يتوهّمون. ومنها أنّ أكثرهم مُسرفون مُبذّرون، فلا تكفي أحدَهم الرّواتبُ المعتدلة التي يمكن أنْ ينالها أجرة خدمة لا ثمن ذمة. ومنها أنّه قد يكون أحدهم شحيحاً مُقَتِّراً في نفقاته؛ بحيثُ يخلُّ في شرف مقامه، فلا يصرف نصف أو ربع راتبه مع أنّه يقبضه زائداً على أجر مثله لأجل حفظ شرف المقام، العائد لشرف الأمّة، وبهذا الشُّحّ يكون خائناً ومهيناً. والحاصل أنّ الأكابر حريصون على أنْ يبقى الاستبداد مطلقاً لتبقى أيديهم مُطلقة في الأموال.

هذا ولا ينكر التّاريخ أنّ الزّمان أوجد نادراً بعض وزراء وازروا الاستبداد عُمْراً طويلاً، ثمّ ندموا على ما فرّطوا فتابوا وأنابوا، ورجعوا لصَفّ الأمّة واستعدوا بأموالهم وأنفسهم لإنقاذها من داء الاستبداد. ولهذا؛ لا يجوز اليأس من وجود بعض أفراد من الوزراء والقواد عريقين في الشّهامة، فيظهر فيهم سرُّ الوراثة ولو بعد بطون أو بعد الأربعين وربما السّبعين من أعمارهم ظهوراً بَيّناً تلألأ في محيا صاحبه ثريا صدق النّجابة. ولا ينبغي لأمّة أنْ تَتّكل على أنْ يظهر فيها أمثال هؤلاء، لأنّ وجودهم من نوع الصُّدَف التي لا تُبنى عليها آمال ولا أحلام.

---

(149) السّحت: المال الحرام. (ك).

والنَتيجة أنَّ المستبدُ فردٌ عاجز لا حول له ولا قوّة إلا بالمُتَمَجِّدِين ، والأمَّة ، أيَ أمَّة كانت ، ليس لها مَنْ يحكُّ جلدها غير ظفرها ، ولا يقودها إلا العقلاء بالتّنوير والإهداء والثّبات ، حتّى إذا ما اكفهُرت سماء عقول بينها قيّضَ الله لها من جمعهم الكبير أفراداً كبار النّفوس قادة أبراراً يشترون لها السّعادة بشقائهم والحياة بموتهم ؛ حيثُ يكون اللّه جعل في ذلك لذّتهم ، ولمثل تلك الشّهادة الشّريفة خَلَقَهُم ، كما خَلَقَ رجالَ عهد الاستبداد فُسّاقاً فُجّاراً مهالكهم الشّهوات والمثالب .
فسبحان الذي يختار مَنْ يشاء لما يشاء ، وهو الخلاق العظيم .

الاستبداد والمال

الاستبداد لو كان رجلاً وأراد أنْ يحتسب وينتسب لقال: "أنا الشّرُّ، وأبي الظّلم، وأمّي الإساءة، وأخي الغدر، وأختي المسْكَنة، وعمّي الضّرّ، وخالي الذّلّ، وابني الفقر، وبنتي البطالة، وعشيرتي الجهالة، ووطني الخراب، أما ديني وشرفي وحياتي فالمال المال المال"؟

المال يصحُّ في وصفه أنْ يقال: القوّةً مال، والوقت مال، والعقل مال، والعلم مال، والدِّين مال، والثّبات مال، والجاه مال، والجمال مال، والتّرتيب مال، والاقتصاد مال، والشّهرة مال، والحاصل كُلُّ ما يُنتفع به في الحياة هو مال.

وكُلُّ ذلك يُباع ويُشترى؛ أي يستبدل بعضه ببعض، وموازين المعادلة هي: الحاجة والعزّةً والوقت والتّعب، ومحافظة اليد والفضة والذّهب والذّمّة، وسوقه المجتمعات، وشيخ السّوق السّلطان... فانظرْ في سوق يتحكّم فيه مُستبدٌّ؛ يأمر زيداً بالبيع، وينهى عمرواً عن الشّراء، ويغصب بَكراً ماله، ويُحابي خالداً من مال النّاس.

المال تعتوره الأحكام، فمنه الحلال ومنه الحرام وهما بَيِّنان، ولَنِعْمَ الحاكم فيهما الوجدان، فالحلال الطّيّب ما كان عوض أعيان، أو أجرة

أعمال، أو بدل وقت، أو مقابل ضمان. والمال الخبيث الحرام هو ثمن الشّرف، ثمَّ المغصوب، ثمَّ المسروق، ثمَّ المأخوذ إلجاء[150] ثمَّ المحتال فيه.

إنَّ النّظام الطّبيعي في كُلِّ الحيوانات حتّى في السّمك والهوام، إلا أنثى العنكبوت، إنَّ النّوع الواحد منها لا يأكل بعضه بعضاً، والإنسان يأكل الإنسان. ومن غريزة سائر الحيوان أنْ يلتمس الرّزق من الله؛ أي من مورده الطّبيعي، وهذا الإنسانُ الظّالمُ نفسَه حريصٌ على اختطافه من يد أخيه، بل من فِيْهِ، بل كم أكل الإنسانُ الإنسانَ!

الاستبداد والإنسان:

عاش الإنسان دهراً طويلاً يتلذّذ بلحم الإنسان ويتلمَّظ بدمائه، إلى أنْ تمكَّنَ الحكماء في الصّين، ثمَّ الهند من إبطال أكل اللحم كُلّياً، سَدّاً للباب، كما هو دأبهم إلى الآن. ثمَّ جاءت الشّرائع الدِّينية الأولى في غربي آسيا بتخصيص ما يُؤكل من الإنسان بأسير الحرب، ثمَّ بالقربان يُنذَر للمعبود، ويُذبح على يد الكُهّان. ثمَّ أُبْطِلَ أكْلُ لحم القربان، وجُعل طعمة للنّيران، وهكذا تدرَّج الإنسان إلى نسيان لذَّة لحم إخوانه، وما كان لينسى عبادة إهراق الدّماء لولا أنَّ إبراهيم شيخ الأنبياء استبدلَ قربانَ البشر بالحيوان، واتبعه موسى عليهما السّلام، وبه جاء الإسلام. وهكذا بطل هذا العدوان بهذا الشّكل إلا في أواسط أفريقيا عند (النامنام).[151]

(150) الإلجاء: جَعْلُ المال لبعض الوَرَثَة دون الآخرين (ك).

(151) قبائل إفريقية يُقال إنَّها من أَكَلَة لحوم البشر.

الاستبداد المشؤوم لم يرضَ أنْ يقتل الإنسانُ الإنسانَ ذبحاً ليأكل لحمه أكلاً كما كان يفعل الهمج الأوَّلون، بل تفنَّنَ في الظّلم، فالمستبدُّون يأسرون جماعتهم، ويذبحونهم فَصْداً بمبضع الظّلم، ويمتصُّون دماء حياتهم بِغَصْب أموالهم، ويقصرون أعمارهم باستخدامهم سخرة في أعمالهم، أو بِغَصْب ثمرات أتعابهم. وهكذا لا فرق بين الأوَّلين والآخرين في نهب الأعمار وإزهاق الأرواح إلا في الشّكل.

إنَّ بَحْثَ الاستبداد والمال بحثٌ قويُّ العلاقة بالظُّلم القائم في فطرة الإنسان، ولهذا؛ رأيتُ أنْ لا بأس في الاستطراد لمقدِّمات تتعلّق نتائجها بالاستبداد الاجتماعي المحميّ بقلاع الاستبداد السّياسيّ، فمن ذلك:

إنَّ البشر المُقَدَّر مجموعهم بألف وخمسمائة مليون[152] نصفهم كَلٌّ[153] على النّصف الآخر، ويُشكِّل أكثرية هذا النّصف الكَلّ نساء المدن. ومَن النّساء؟ النّساء هُنَّ النّوع الذي عرف مقامه في الطّبيعة بأنّه هو الحافظ لبقاء الجنس، وأنّه يكفي للألف منه ملقح واحد، وإنَّ باقي الذّكور حظهم أنْ يُساقوا للمخاطر والمشاقّ، أو هم يستحقّون ما يستحقُّه ذَكَرُ النّحل[154]، وبهذا النّظر اقتسمت النّساء مع الذّكور أعمال الحياة قسمةً ضيزى[155]، وتَحَكَّمْنَ بسَنِّ قانون عام؛ به جعلنَ نصيبهُنَّ هَيِّنَ الأشغال بدعوى الضّعف، وجعلن نوعهُنَّ مطلوباً عزيزاً بإيهام العفة، وجعلنَ الشّجاعة والكرم سَيِّئَتَيْن فيهنَّ محمدتَيْن في الرّجال، وجعلنَ نوعهُنَّ يُهين ولا يُهان،

(152) هذا تقدير يعود إلى أواخر القرن التّاسع عشر.

(153) عالة.

(154) تقتله الإناث بعد التّلقيح.

(155) جائرة.

ويَظلم أو يُظلم فيُعان؛ وعلى هذا القانون يُرَبِّيـنَ البنات والبنيـنَ، ويتلاعبنَ بعقول الرّجال كما يَشَـأْنَ حتّى أنّهنّ جعلنَ الذّكور يتوهّمون أنّهنّ أجمل منهم صورة. والحاصل أنّه قد أصاب مَنْ سَمَّاهُنَّ بالنّصف المضرّ! ومن المشاهد أنَّ ضَرَرَ النّساء بالرّجال يترقّى مع الحضارة والمدنية على نسبة التَّرقّي المضاعف. فالبدوية تشارك الرّجل مناصفة في الأعمال والثّمرات، فتعيش كما يعيش، والحضرية تسلب الرّجل لأجل معيشتها وزينتها اثنين من ثلاث، وتُعينه في أعمال البيت. والمدَنية تسلب ثلاثة من أربعة، وتودُّ أنْ لا تخرج من الفراش، وهكذا تترقّى بنات العواصم في أسر الرّجال. وما أصدق بالمدنية الحاضرة في أوروبا؛ أنْ تُسمَّى المدنية النّسائية، لأنَّ الرّجال فيها صاروا أنعاماً للنّساء.

ثمَّ إنَّ الرّجال تقاسموا مشاقَّ الحياة قسمةَ ظالمةً أيضاً، فإنَّ أهل السّياسة والأديان ومَنْ يلتحق بهم - وعددهم لا يبلغ الخمسة في المائة - يتمتّعون بنصف ما يتجمّد من دم البشر أو زيادة، يُنفقون ذلك في الرَّفه والإسراف، مثال ذلك: أنّهم يزيّنون الشّوارع بملايين من المصابيح لمرورهم فيها أحياناً متراوحين بين الملاهي والمواخير ولا يُفكّرون في ملايين من الفقراء يعيشون في بيوتهم في ظلام.

ثمَّ أهل الصّنائع النّفيسة والكمالية، والتُّجّار الشّرهون والمحتكرون وأمثال هذه الطّبقة - ويُقدَّرون كذلك بخمسة في المائة - يعيش أحدهم بمثل ما يعيش به العشرات أو المئات أو الألوف من الصُّنّاع والزُّرَّاع. وجرثومة هذه القسمة المتفاوتة المتباعدة الظّالمة هي الاستبداد لا غيره. وهناك أصناف من النّاس لا يعملون إلا قليلاً، إنما يعيشون بالحيلة كالسماسرة والمشعوذين

باسم الأدب أو الدِّين، وهؤلاء يُقَدَّرون بخمسة عشر في المائة، أو يزيدون على أولئك.

نعم؛ لا يقتضي أنْ يتساوى العَالِمُ الذي صرف زهوة حياته في تحصيل العلم النَّافع أو الصَّنعة المفيدة بذاك الجاهل النَّائم في ظلِّ الحائط، ولا ذاك التَّاجر المجتهد المخاطر بالكسول الخامل، ولكنَّ العدالة تقتضي غير ذلك التَّفاوت، بل تقتضي الإنسانية أنْ يأخذ الرَّاقي بيد السَّافل، فيُقَرِّبه من منزلته، ويُقاربه في معيشته، ويُعينه على الاستقلال في حياته.

لا! لا! لا يطلب الفقير معاونة الغني، إنَّما يرجوه أنْ لا يظلمه، ولا يلتمس منه الرَّحمة، إنَّما يلتمس العدالة، لا يُؤمِّل منه الإنصاف، إنَّما يسأله أنْ لا يُميته في ميدان مزاحمة الحياة.

بَسَطَ المولى - جلَّت حكمته - سلطانَ الإنسان على الأكوان، فطغى، وبغى، ونسي ربَّه وعَبَدَ المال والجمال، وجعلهما مُنيته ومُبتغاه، كأنَّه خُلق خادماً لبطنه وعضوه فقط، لا شأن له غير الغذاء والتَّحاك. وبالنظر إلى أنَّ المال هو الوسيلة الموصلة للجمال كاد ينحصر أكبرُ هَمٍّ للإنسان في جمع المال، ولهذا يُكنَّى عنه بمعبود الأمم وبِسرِّ الوجود، وروى (كريسكوا) المؤرِّخ الرّوسي: أنَّ كاترينا[156] شَكَتْ كَسَلَ رَعِيَّتِهَا، فأرشدها شيطانُها إلى حمل

---

(156) في الغالب، الكواكبي يخلط بين اثنتَيْن:

كاترينا الثّانية (1729 - 1796م) المعروفة بكاترينا الكبيرة. إمبراطورة روسيا (1762 - 1796م) خلعت زوجها بطرس الثّالث واستولت على الحُكْم، واشتهرت بانتصاراتها على الأتراك وبحمايتها الفلاسفة والعلماء.

كاترينا دي مديتشي (1519 - 1589م) ملكة فرنسا التي أتقنت السّياسة ومارستها دون رادع أخلاقي، فكانت سبباً في اضطرام الحروب الدِّينية، وفي المذابح التي رافقتها.

النّساء على الخلاعة، ففعلت وأحدثت كسوة المراقص، فهبَّ الشُّبَّان للعمل وكسب المال لصرفه على ربّات الجمال، وفي ظرف خمس سنين؛ تضاعف دخل خزينتها، فاتَّسعَ لها مجال الإسراف. وهكذا المستبدُّون لا تهمُّهم الأخلاق، إنَّما يهمُّهم المال.

المال عند الاقتصاديين: ما ينتفع به الإنسان، وعند الحقوقيين: ما يجري فيه المنع والبذل، وعند السّياسيين: ما تُستعاض به القوَّة، وعند الأخلاقيين: ما تُحفظ به الحياة الشّريفة. المال يُستمدُّ من الفيض الذي أودعه الله تعالى في الطّبيعة ونواميسها، ولا يملك؛ أي لا يتخصَّص بإنسان، إلا بعمل فيه أو في مقابله.

والمقصود من المال هو أحدُ اثنَيْن لا ثالث لهما وهما: تحصيلُ لذَّة، أو دفعُ ألم، وفيهما تنحصر كُلُّ مقاصد الإنسان، وعليهما مبنى أحكام الشّرائع كُلّها، والحاكم المعتدل في طيِّب المال وخبيثه؛ هو الوجدان الذي خَلَقَهُ الله صبغة للنّفس، وعَبَّرَ عنه في القرآن بإلهامها فجورها وتقواها[157]، فالوجدانُ خَيَّرَ بين المال الحلال والمال الحرام.

ثمَّ إنَّ أعمال البشر في تحصيل المال ترجع إلى ثلاثة أصول: 1 ـ استحضاره المواد الأصلية. 2 ـ تهيئته المواد للانتفاع بها. 3 ـ توزيعها على النّاس. وهي الأصول التي تُسمَّى بالزّراعة والصّناعة والتّجارة، وكُلُّ وسيلة خارجة عن هذه الأصول وفروعها الأوَّلية، فهي وسائل ظالمة لا خير فيها.

التّموُّل؛ أي ادِّخار المال، طبيعة في بعض أنواع الحيوانات الدّنيئة كالنّمل والنّحل، ولا أثر له في الحيوانات المرتقية غير الإنسان. الإنسان

---

(157) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ الشّمس: 8.

تَطَبَّعَ على التّموُّل لدواعي الحاجة المُحَقَّقَة أو الموهومة، ولا تحقُّق للحاجة إلا عند سُكَّان الأراضي الضّيقة الثّمرات على أهلها، أو الأراضي المعرَّضة للقحط في بعض السنين، ويلتحق بالحاجة المُحَقَّقَة حاجة العاجزين جسماً عن الارتزاق في البلاد المبتلاة بجور الطّبيعة أو جور الاستبداد، وربما يلتحق بها أيضاً الصّرف على المضطرين وعلى المصارف العمومية في البلاد التي ينقصها الانتظام العام.

والمراد بالانتظام العام؛ معيشة الاشتراك العمومي التي أسَّسها الإنجيل بتخصيصه عشر الأموال للمساكين، ولكنْ؛ لم يكد يخرج ذلك من القوَّة إلى الفعل، ثمَّ أحدث الإسلام سُنَّة الاشتراك على أتمِّ نظام، ولكنْ؛ لم تدم أيضاً أكثر من قرن واحد كان فيه المسلمون لا يجدون مَنْ يدفعون لهم الصّدقات والكفَّارات، وذلك أنَّ الإسلامية ـ كما سبق بيانه ـ أَسَّسَت حكومة أرستقراطية المبنى، ديمقراطية الإدارة، فوضعت للبشر قانوناً مُؤَسَّسَاً على قاعدة: إنَّ المال هو قيمة الأعمال، ولا يجتمع في يد الأغنياء إلا بأنواع من الغَلَبَة والخداع.

فالعدالة المطلقة تقتضي أنْ يؤخذ قسم من مال ويُردَّ على الفقراء؛ بحيثُ يحصل التّعديل ولا يموت النّشاط للعمل. وهذه القاعدة يتمنَّى ما هو من نوعها أغلب العالم المتمدِّن الإفرنجي، وتسعى وراءها الآن جمعيات منهم مُنتظَمة مُكَوَّنة من ملايين كثيرة. وهذه الجمعيات تقصد حصول التّساوي أو التّقارب في الحقوق المعاشية بين البشر، وتسعى ضدَّ الاستبداد المالي، فتطلب أنْ تكون الأراضي والأملاك الثّابتة وآلات المعامل الصّناعية الكبيرة مشتركة الشّيوع بين عامَّة الأمَّة، وأنَّ الأعمال

والثّمرات تكون مُوزَّعة بوجوه مُتقاربة بين الجميع، وأنَّ الحكومة تضع قوانين لكافَّة الشّؤون حتَّى الجزئيات، وتقوم بتنفيذها.

وهذه الأصول مع بعض التّعديل قَرَّرتها الإسلامية ديناً، وذلك أنَّها قَرَّرت:

(أولاً) - أنواع العشور والزّكاة وتقسيمها على أنواع المصارف العامَّة وأنواع المحتاجين حتَّى المدينين. ولا يخفى على المُدَقِّقِينَ أنَّ جزءاً من أربعين من رؤوس الأموال يقارب نصف الأرباح المعتدلة باعتبار أنَّها خمسة بالمائة سنوياً، وبهذا النّظر يكون الأغنياء مُضاربين للجماعة مناصفة. وهكذا يلحق فقراء الأمَّة بأغنيائها، ويمنع تراكم الثّروات المفرطة المولِّدة للاستبداد، المضرَّة بأخلاق الأفراد.

(ثانياً) - قُرِّرَتْ أحكامٌ مُحكمة تمنع محذور التّواكل في الارتزاق، وتُلْزِم كُلَّ فرد من الأمَّة متى اشتدَّ ساعده، أو مَلَكَ قوت يومه، أو النّصاب على الأكثر؛ أنْ يسعى لرزقه بنفسه، أو يموت الفرد جوعاً؛ إذا لم تكن حكومته مُستبدَّة تضرب على يده وسعيه ونشاطه بمدافع استبدادها، وقد قيل: يبدأ الانقياد للعمل عند نهاية الخوف من الحكومة ونهاية الاتِّكال على الغير.

(ثالثاً) - قَرَّرت الإسلاميةُ تركَ الأراضي الزّراعية ملكاً لعامَّة الأمَّة، يستنبتها ويستمتع بخيراتها العاملون فيها بأنفسهم فقط، وليس عليهم غير العشر أو الخراج الذي لا يجوز أنْ يتجاوز الخمس لبيت المال.

(رابعاً) - جاءت الإسلامية بقواعد شرعية كُلِّيَّة تصلح للإحاطة بأحكام كافَّة الشّؤون حتَّى الجزئية الشّخصية، وأناطت تنفيذها

بالحكومة، كما تطلبه الآن أغلب جمعيات الاشتراكيين. على أنَّ هذا النّظام الذي جاء به الإسلام، صعب الإجراء جداً، لأنَّه منوط بسيطرة الكُلِّ ورضاء الأكثر وهيهات... ولأنَّ هناك منافع أدبية يعسر توزيعها ولا تتسامح فيها النّفوس، ولأنَّ القانون الكثير الفروع يتعذّر حفظه بسيطاً، ويكون مُعَرَّضاً للتّأويل حسب الأغراض، وللاختلاف في تطبيقه حسب الأهواء، كما وقع فعلاً في المسلمين، فلم يمكنهم إجراء شريعتهم ببساطة وأمانة إلا عهداً قليلاً، ثمَّ تشعَّبت معهم الأمور بطبيعة اتِّساع الملك واختلاف طبائع الأمم، وفَقَدَ الرّجال الذين يمكنهم أنْ يسوقوا مئات ملايين من أجناس النّاس: الأبيض والأصفر، والحضري والبدوي، بعصا واحدة قروناً عديدة.

ولا غَروَ إذا كانت المعيشة الاشتراكية من أبدع ما يتصوَّره العقل، ولكنْ؛ مع الأسف لم يبلغ البشر بعد من التَّرقِّي ما يكفي لتوسيعهم نظام التّعاون والتّضامن في المعيشة العائلية إلى إدارة الأمم الكبيرة. وكم جَرَّبَتْ الأمم ذلك فلم تنجح فيها إلا الأمم الصّغيرة مُدَّة قليلة. والسّبب كما تقدَّم هو مُجرَّد صعوبة التّحليل والتّركيب بين الصّوالح والمصالح الكثيرة المختلفة. والمتأمِّل في عدم انتظام حالة العائلات الكبيرة، يقنع حالاً بأنَّ التكافل والتضامن غير ميسورَيْن في الأمم الكبيرة؛ **ولهذا يكون خيرُ حَلٍّ مقدور للمسألة الاجتماعية هو ما يأتي:**

1 ـ يكون الإنسان حُرَّاً مُستقلاً في شؤونه، كأنَّه خُلق وحده.

2 ـ تكون العائلة مُستقلَّة، كأنَّها أمَّة وحدها.

3 ـ تكون القرية أو المدينة مُستقلَّة كأنَّها قارَّة واحدة لا علاقة لها بغيرها.

4 ـ تكون القبائل في الشّعب أو الأقاليم في المملكة كأنّها أفلاك؛ كُلٌّ منها مُستقلٌ في ذاته، لا يربطها بمركز نظامها الاجتماعي؛ وهو الجنس أو الدِّين أو الملك غير محض التّجاذب المانع من الوقوع في نظام آخر لا يلائم طبائع حياتها.

ثمَّ إنَّ التّمول لأجل الحاجات السّالفة الذّكر وبقدرها فقط محمودٌ بثلاثة شروط، وإلا كان التّمول من أقبح الخصال:

الشرط الأوَّل: أنْ يكون إحراز المال بوجه مشروع حلال؛ أي بإحرازه من بَذْل الطّبيعة، أو بالمعاوضة، أو في مقابل عمل، أو في مقابل ضمان على ما تقوم بتفصيله الشّرائع المدنية.

والشرط الثّاني: أنْ لا يكون في التّمول تضييق على حاجات الغير كاحتكار الضّروريات، أو مزاحمة الصُنّاع والعُمّال الضّعفاء، أو التّغلُّب على المباحات؛ مثل امتلاك الأراضي التي جعلها خالقها ممرحاً لكافّة مخلوقاته، وهي أمُّهم تُرضعهم لبن جهازاتها، وتُغذّيهم بثمراتها، وتأويهم في حضن أجزائها، فجاء المستبدُّون الظّالمون الأوّلون ووضعوا أصولاً لحمايتها من أبنائها وحالوا بينهما. فهذه إرلندا ـ مثلاً ـ قد حماها ألف مُستبدٍّ مالي من الإنكليز، ليتمتَّعوا بثلثَيْ أو ثلاثة أرباع ثمرات أتعاب عشرة ملايين من البشر الذين خُلقوا من تربة إرلندا. وهذه مصر وغيرها تقرب من ذلك حالاً وستفوقها مالاً، وكم من البشر في أوروبا المتمدِّنة وخصوصاً في لندرة وباريس لا يجد أحدهم أرضاً ينام عليها مُتمدِّداً، بل ينامون في الطّبقة السّفلى من البيوت؛ حيثُ لا ينام البقر، وهم قاعدون صفوفاً يعتمدون بصدورهم على حبال من مَسَدٍ منصوبة أفقية يتلوون عليها يمنة ويسرة.

وحكومة الصّين المختلّة النّظام في نظر المتمدّنين، لا تجيز قوانينها أنْ يمتلك الشّخص الواحد أكثر من مقدار مُعيَّن من الأرض لا يتجاوز العشرين كيلو متراً مربّعاً؛ أي نحو خمسة أفدن مصرية أو ثلاثة عشر دونماً عثمانياً. وروسيا المستبدَّة القاسية في عُرف أكثر الأوروبيين وضعت ـ أخيراً ـ لولايتها البولونية والغربية قانوناً أشبه بقانون الصّين، وزادت عليه أنّها منعت سماع دعوى دَيْنٍ غير مُسَجَّلٍ على فلاح، ولا تأذن لفلاح أنْ يستدين أكثر من نحو خمسمائة فرنك. وحكومات الشّرق إذا لم تستدرك الأمر فتضع قانوناً من قبيل قانون روسيا، تصبح الأراضي الزّراعية بعد خمسين عاماً أو قرن على الأكثر كإرلندا الإنكليزية المسكينة، التي وجدت لها في مدى ثلاثة قرون شخصاً واحداً حاول أنْ يرحمها فلم يُفلح؛ وأعني به غلادستون[158]، على أنَّ الشّرق ربما لا يجد في ثلاثين قرناً مَنْ يلتمس له الرّحمة.

والشّرط الثّالث لجواز التّمول، هو: ألا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير، لأنَّ إفراط الثّروة مهلكة للأخلاق الحميدة في الإنسان، وهذا معنى الآية: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾[159]، والشّرائع السّماوية كُلُّها، وكذلك الحكمة الأخلاقية والعمرانية حَرَّمَت الرِّبا؛ صيانة لأخلاق المرابين من الفساد، **لأنَّ الرِّبا: هو كَسْبٌ بدون مقابل مادي؛ ففيه معنى** الغصب، وبدون عمل؛ لأنَّ المرابي يكسب وهو نائم؛ ففيه الأُلفة على البطالة، ومن دون تعرُّض لخسائر طبيعية كالتجارة والزّراعة والأملاك؛ ففيه

---

(158) وليم إيوارت غلادستون (1809 ـ 1898م) سياسي بريطاني. استلم مناصب عديدة ووزارات كثيرة، ثمَّ أصبح رئيساً للوزراء أربع مرّات. اعتنق مبدأ حرية التّجارة، وكان خطيباً. له عدد من الكُتُب.

(159) العلق: 6 ـ 7.

النّماء المطلق المؤدّي لانحصار الثّروات. ومن القواعد الاقتصادية المُتّفق عليها أنْ ليس من كَسْبٍ لا عار ولا احتكار فيه أربح من الرِّبا مهما كان معتدلاً، وأنَّ بالرِّبا تربو الثّروات فيختلّ التّساوي أو التّقارب بين النّاس.

وقد نظر الماليُّون وبعض الاقتصاديين من أنصار الاستبداد في أمر الرِّبا فقالوا: إنَّ المعتدل منه نافع، بل لابُدَّ منه. أوّلاً: لأجل قيام المعاملات الكبيرة، وثانياً: لأجل أنَّ النّقود الموجودة لا تكفي للتّداول، فكيف إذا أمسك المكتنزون قسماً منها أيضاً؟! وثالثاً: لأجل أنَّ كثيرين من المُتموّلين لا يعرفون طرائق الاسترباح أو لا يقدرون عليها، كما أنَّ كثيراً من العارفين بها لا يجدون رؤوس أموال ولا شركاء عنان. فهذا النّظر صحيح من وجه إنماء ثروات بعض الأفراد. أما السّياسيون الاشتراكيو المبادئ والأخلاقيون، فينظرون إلى أنَّ ضرر الثّروات الأفرادية في جمهور الأمم أكبر من نفعها. لأنَّها تُمكِّنُ الاستبداد الدّاخلي فتجعل النّاس صنفَيْن: عبيداً وأسياداً[160]، وتُقوّي الاستبداد الخارجي، فتُسهِّل للأمم التي تغنى بغناء أفرادها التّعدّي على حريّة واستقلال الأمم الضّعيفة. وهذه مقاصد فاسدة في نظر الحكمة والعدالة؛ ولذلك يقتضي تحريم الرِّبا تحريماً مُغلّظاً.

حِرْصُ التّمولُ، وهو الطّمع القبيح، يخفُّ كثيراً عند أهالي الحكومات العادلة المنتظمة ما لم يكن فساد الأخلاق مُتغلباً على الأهالي، كأكثر الأمم المتمدّنة في عهدنا؛ لأنَّ فساد الأخلاق يزيد في الميل إلى التّمولُ في نسبة الحاجة الإسرافية، ولكنَّ تحصيل الثّروة الطّائلة في عهد الحكومة العادلة عسير جداً، وقد لا يتأتّى إلا من طريق المراباة مع الأمم المنحطّة، أو التّجارة

(160) كذا في الأصل، والصّواب: (سادة) لأنَّ (أسياد) تعني: ذئاب.

الكبيرة التي فيها نوع احتكار، أو الاستعمار في البلاد البعيدة مع المخاطرات، على أنَّ هذه الصّعوبة تكون مقرونة بلذَّة عظيمة من نوع لذَّة مَنْ يأكل ما طبخ، أو يسكن ما بنى.

وحِرْصُ التّمولِ القبيح يشتدُّ في رؤوس النّاس في عهد الحكومات المستبدَّة؛ حيثُ يسهل فيها تحصيل الثّروة بالسّرقة من بيت المال، وبالتّعدِّي على الحقوق العامَّة، وبغصب ما في أيدي الضّعفاء، ورأس مال ذلك هو أنْ يترك الإنسانُ الدِّينَ والوجدانَ والحياءَ جانباً وينحطَّ في أخلاقه إلى ملائمة المستبدِّ الأعظم، أو أحد أعوانه وعمَّاله، ويكفيه وسيلة أنْ يتَّصل بباب أحدهم ويتقرَّب من أعتابه، ويظهر له أنَّه في الأخلاق من أمثاله وعلى شاكلته، ويبرهن له ذلك بأشياء من التّملُّق وشهادة الزّور، وخدمة الشّهوات، والتّجسُّس، والدّلالة على السَّلْب ونحو ذلك. ثمَّ قد يطلع هذا المنتسب على بعض الخفايا والأسرار التي يخاف رجال الاستبداد من ظهورها خوفاً حقيقياً أو وهمياً، فيكسب المنتسب رسوخ القدم ويصير هو باباً لغيره، وهكذا يحصل على الثّروة الطّائلة إذا ساعدته الظّروف على الثّبات طويلاً. وهذا أعظم أبواب الثّروة في الشّرق والغرب، ويليه الاتِّجار بالدِّين، ثمَّ الملاهي، ثمَّ الرِّبا الفاحش، وهي بئس المكاسب وبئس ما تُؤثِّر في إفساد أخلاق الأمم.

وقد ذكر المُدَقِّقُون أنَّ ثروة بعض الأفراد في الحكومات العادلة أضرَ كثيراً منها في الحكومات المستبدَّة؛ لأنَّ الأغنياء في الأولى يصرفون قُوَّتهم المالية في إفساد أخلاق النّاس وإخلال المساواة وإيجاد الاستبداد، أمّا الأغنياء في الحكومات المستبدَّة فيصرفون ثروتهم في

الأُبَّهَة والتّعاظم إرهاباً للنّاس وتعويضاً للسّفالة الحقيقيـة المنصّبـة عليـهم بالتّغالي الباطل، ويُسرفون الأموال في الفسق والفجور.

بناءً عليه؛ ثروة هؤلاء يتعجّلها الزّوال؛ حيثُ يغصبـها الأقـوى منـهم من الأضعف، وقد يسلبها المستبدُّ الأعظم في لحظـة وبكلمـة. وتـزول أيضـاً - والحمد لله - قبل أنْ يتعلّم أصحابها أو وَرَثَتُهُمْ كيف تُحفظ الثّروات، وكيف تنمو، وكيـف يسـتعبدون بـها النّـاس اسـتعباداً أصوليـاً مُسـتحكماً، كمـا هـو الحال في أوروبا المُتمدِّنـة المـهدَّدَة بشروط الفوضويـين(161) بسـبب اليـأس مـن مقاومة الاستبداد المالي فيها.

ومن طبائع الاستبداد أنّه لا يظهر فيه أثرُ فقر الأمّة ظهوراً بَيِّناً إلا فجأة قُرَيْبَ قضاء الاستبداد نَحْبَهُ. وأسباب ذلك أنّ النّاس يقتصدون فـي النّسـل، وتكثر وفياتهم، ويكثر تغربهم، ويبيعون أملاكـهم من الأجـانب، فتتقلّـص الـثّروة، وتكـثر النّقـود بـين الأيـدي. وبئسـت مـن ثـروة ونقـود تُشـبه نشــوة المذبوح.

ولـنرجع إلـى بحـث طبيعــة الاسـتبداد فـي مطلـق المـال فـأقول: إنّ الاستبداد يجعل المال في أيدي النّاس عرضة لسلب المستبدّ وأعوانـه وعمّالـه غصباً، أو بحجـة باطلـة، وعرضـة أيضـاً لسَـلْب المعتديـن مـن اللصـوص والمحتالين الرّاتعين في ظلِّ أمان الإدارة الاستبدادية. وحيـثُ المـال لا يُحَصَّـلُ

---

(161) الفوضوية مذهب سياسي واقتصادي مُتطرِّف، يرى دُعاته أنّ الدّولة هـي أداة الاستبداد في كُلِّ نظام اجتماعي، وأنّ الملكية الفردية مبعث الظّلم. من قادة هذا المذهب في القرن التّاسع عشر: وليم جودون - برودون - باكونين - كروبوتكين.

ويرى بعض هؤلاء وجوب الرّجوع إلى العقل والعلم فـي تنظيـم العلاقـات الاجتماعيـة. وربمـا يقصد الكواكبي: شرور بدلاً من شروط.

إلا بالمشقَّة، فلا تختار النّفوس الإقدام على المتاعب مع عدم المَنّ على الانتفاع بالثّمرة.

حِفْظُ المال في عهد الإدارة المستبدَّة أصعب من كَسْبه؛ لأنَّ ظهور أثره على صاحبه مجلبة لأنواع البلاء عليه، ولذلك يُضطرُّ النّاس زمن الاستبداد لإخفاء نعمة الله والتّظاهر بالفقر والفاقة، ولهذا ورد في أمثال الأُسراء أنَّ حِفْظُ درهم من الذّهب يحتاج إلى قنطار من العقل، وأنَّ العاقل مَنْ يخفي ذهبه وذهابه ومذهبه، وأنَّ أسعد النّاس الصّعلوك الذي لا يعرف الحُكَّام ولا يعرفونه.

ومن طبائع الاستبداد، أنَّ الأغنياء أعداؤه فكراً وأوتاده عملاً، فهم ربائط المستبدِّ، يذلُّهم فيئنون، ويستدرُّهم فيحنُّون، ولهذا يرسخ الذّلُّ في الأمم التي يكثر أغنياؤها. أما الفقراء فيخافهم المستبدُّ خوف النّعجة من الذّئاب، ويتحبَّبُ إليهم ببعض الأعمال التي ظاهرها الرّأفة، يقصد بذلك أنْ يغصب أيضاً قلوبهم التي لا يملكون غيرها. والفقراء كذلك يخافونه خوف دناءة ونذالة، خوف البغاث من العقاب، فهم لا يجسرون على الافتكار فضلاً عن الإنكار، كأنّهم يتوهَّمون أنَّ داخل رؤوسهم جواسيس عليهم. وقد يبلغ فساد الأخلاق في الفقراء أنْ يَسُرَّهم فعلاً رضاء المستبدِّ عنهم بأيِّ وجه كان رضاؤه.

وقد خالف الأخلاقيون المتأخِّرون أسلافهم في قولهم، ليس الفقر بعيب، فقالوا: **الفقر أبو المعائب؛ لأنّه مُفْتَقِرٌ للغير، والغناء استغناءٌ عن النّاس**، ثمَّ قالوا: الفقر يذهب بعزَّة النَّفْس، ويفضي إلى خلع الحياء، وقالوا: إنَّ لحسن اللباس والأمتعة والتّنعم في المعيشة تأثيراً مُهمّاً على نفوس

البشر، خلافاً لِمَنْ يقول: ليس المرء بطيلسانه، وحديث (اخشوشنوا، فإنَّ النِّعَمَ لا تدوم)[162] هو لأنّه يحمل على التّعوُّد جسماً على المشاقّ في الحروب والأسفار وعند الحاجة. وقالوا: إنَّ رغد العيش ونعيمه لمن أعظم الحاجات، به تعلو الهمّة ولأجله تُقْتَحَمُ العظائم.

يُقال في مدح المال: إنَّ ما يحلُّ المشكلات الزّمان والمال. القوّة كانت للعصبية، ثمَّ صارت للعلم، ثمَّ صارت للمال. العلم والمال يُطيلان عمر الإنسان؛ حيثُ يجعلان شيخوخته كشبابه. لا يُصان الشّرف إلا بالدّم، ولا يتأتّى العزُّ إلا بالمال. قد مضى مجد الرّجال وجاء مجد المال. وورد في الأثر: أنَّ اليد العليا خيرٌ من اليد السّفلى[163]. وأنَّ الغنيَّ الشّاكر أفضل من الفقير الصّابر[164]. ولم يكن قديماً أهمية للثّروة العمومية، أما الآن وقد صارت المحاربات محض مغالبات علم ومال، فأصبح للثّروة العمومية أهمية عظمى لأجل حفظ الاستقلال، على أنَّ الأمم المأسورة لا نصيب لها من الثّروة العمومية، بل منزلتها في المجتمع الإنساني كأنعام تتناقلها الأيدي،

---

(162) هذه الرّواية هي المشهورة على الألسنة، ولكنَّ المروي بكُتُب الحديث: "تمعددوا واخشوشنوا" رواه الطّبراني وأبو نعيم الأصبهاني والبغوي وغيرهم. وفيه ضعف. ومعنى تمعددوا: اتبعوا معد بن عدنان في الفصاحة. ورواه أبو عبيد الغريب عن عمر موقوفاً "اخشوشنوا وتمعددوا، واجعلوا الرّأس رأسَيْن".

يُنظر: العجلوني، كشف الخفاء. . ، ج1، ص69، برقم 157.

وص 378، برقم 1018.

(163) رواه الشّيخان وأحمد والنّسائي عن ابن عمر بزيادة (واليد العليا هي المنفقة، واليد السّفلى هي السّائلة) والشّيخان عن حكيم بن حزام بزيادة (وابدأ بِمَنْ تعول).

يُنظر: العجلوني، كشف الخفاء. . ، ج2، ص 521، برقم (3199).

(164) لم نعثر عليه في كُتُب الحديث الشّريف.

ولا تعارض هذه القاعدة ثروة اليهود؛ لأنَّها ثروة غير مزاحَمين عليها، لأنَّها فيما يقوله أعداؤهم فيها: ثروة رأسمالها النّاموس، ومصرفها الملاهي والمقامرة والرِّبا والغش والمضاربات، ولا يخلو هذا القول من التّحامل عليهم حسداً مِمَّنْ يُقدمون إقدامهم ولا ينالون منالهم.[165]

هذا وللمال الكثير آفات على الحياة الشّريفة ترتعد منها فرائص أهل الفضيلة والكمال، الذين يفضلون الكفاف من الرّزق مع حفظ الحريَّة والشّرف على امتلاك دواعي التّرف والسّرف، وينظرون إلى المال الزّائد عن الحاجة الكمالية أنَّه بلاء في بلاء في بلاء؛ أي أنَّه بلاء من حيثُ التّعب في تحصيله، وبلاء من حيثُ القلق على حفظه، وبلاء من حيثُ الافتكار بإنمائه، وأما المكتفي فيعيش مطمئناً مستريحاً أميناً[166] بعض الأمن على دينه وشرفه وأخلاقه.

قَرَّر الأخلاقيون أنَّ الإنسان لا يكون حُرّاً تماماً ما لم تكن له صنعة مُستقلّ فيها؛ أي غير مرؤوس لأحد، لأنَّ حريَّته الشّخصية تكون تابعة لارتباطه بالرّؤساء. وعليه تكون أقبح الوظائف هي وظائف الحكومة. وقالوا: إنَّ للصّنعة تأثيراً في الأخلاق والأميال، وهي من أصدق ما يُستدلُّ به على أحوال الأفراد والأقوام. فالمُوَظَّفُون في الحكومة مثلاً يفقدون الشّفقة والعواطف العالية تبعاً لصنعتهم التي من مقتضاها عدم الشّعور بتبعة أعمالهم، وقال الحكماء: إنَّ العاجز يجمع المال بالتّقتير، والكريم يجمعه بالكَسْب، وقالوا: إنَّ أقلَّ كَسْب يرضى به العاقل ما يكفي معاشه باقتصاد،

(165) وهذا الكلام كان قبل تَوَضُّح معالم القضية الفلسطينية والأطّماع الصّهيونية في فلسطين.
(166) آمناً.

وقالوا: خير المال ما يكفي صاحبه ذلَّ القلّة وطغيان الكثرة. وهذا معنى الحديث (فاز المخفون)[167] وحديث (اسألوا الله الكفاف من الرّزق)[168]. ويقال: الغنى غنى القلب، والغني مَنْ قَلّتْ حاجته، والغني مَن استغنى عن النّاس. وقال بعض الحكماء: كُلُّ إنسان فقير بالطّبع ينقصه مثل ما يملك، فَمَنْ يملك عشرة يرى نفسه محتاجاً لعشرة أخرى، ومَنْ يملك ألفاً يرى نفسه محتاجاً لألف أخرى. وهذا معنى الحديث: (لو كان لابن آدم وادٍ من ذهب أحبَّ أنْ يكون له واديان)[169].

ولا يقصد الأخلاقيون من التّزهيد في المال التّثبيط عن كَسْبه، إنَّما يقصدون أنْ لا يتجاوز كَسْبه الطّرائق الطّبيعية الشّريفة. أما السّياسيون فلا يهمُّهم إلا أنْ تستغني الرّعية بأيٍّ وسيلة كانت، والغربيون منهم يُعينون الأمَّة على الكَسْب ليشاركوها، والشّرقيون لا يفتكرون في غير سَلْب الموجود، وهذه من جملة الفروق بين الاستبدادَيْن الغربيّ والشّرقيّ، التي منها أنَّ الاستبداد الغربي يكون أحكم وأرسخ وأشدّ وطأة، ولكنْ؛ مع اللّين، والشّرقي يكون مقلقلاً سريع الزّوال، ولكنَّه يكون مزعجاً. ومنها أنَّ

---

(167) هو بمعنى الحديث المروي عن الرّسول (ص): "أمامكم عقبة كؤود لا يجوزها المثقلون، فأنا أريد أنْ أتخفَّفَ لتلك العَقَبَة"، فهو جزء من حديث رواه الحاكم، وصَحَّحَ إسناده الطّبراني وأبو نعيم في الحلية، بألفاظ متقاربة، ولكنَّه لم يثبت بلفظ (فاز المخفون) وانفرد القاري به.
يُنظر: العجلوني، كشف الخفاء..، ج2، ص109، برقم 1821.

(168) ورد في صحيح مسلم: الزّهد "اللهم ارزق محمداً ﷺ كفافاً".

(169) رواه: مسلم: الزّكاة، البخاريّ: الرّقاق، التّرمزيّ: الزّهد.
وورد في كشف الخفاء: "لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى إليهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التّراب، ويتوب الله على مَنْ تاب". رواه الشّيخان والتّرمذي وأبو عوانة وغيرهم، بألفاظ متقاربة، عن أنس مرفوعاً، واتّفقا عليه عن ابن عباس.

الاستبداد الغربي إذا زال تبدَّل بحكومة عادلة تُقيم ما ساعدت الظّروف أنْ تُقيم، أما الشّرقي فيزول ويخلفه استبداد شرٌّ منه؛ لأنَّ من دأب الشّرقيين أنْ لا يفتكروا في مستقبل قريب، كأنَّ أكبر هَمِّهم مُنصرف إلى ما بعد الموت فقط، أو أنَّهم مُبتلون بِقِصَر البصر.

وخلاصة القول: إنَّ الاستبدادَ داءٌ أشدّ وطأة من الوباء، أكثر هولاً من الحريق، أعظمُ تخريباً من السّيل، أذلّ للنّفوس من السّؤال. داءٌ إذا نزل بقوم سمعتْ أرواحهم هاتفَ السّماء يُنادي القضاء القضاء، والأرض تناجي ربَّها بكشف البلاء. الاستبداد عهد؛ أشقى النّاس فيه العقلاءُ والأغنياءُ، وأسعدهم بمحياه الجهلاءُ والفقراءُ، بل أسعدهم أولئك الذين يتعجّلهم الموت فيحسدهم الأحياء.

الاستبداد والأخلاق

الاستبداد يتصرَّف في أكثر الأميال الطّبيعية والأخلاق الحسنة، فيُضعفها، أو يُفسدها، أو يمحوها، فيجعل الإنسان يكفر بنِعَم مولاه؛ لأنَّه لم يملكها حقّ الملك ليحمده عليها حقَّ الحمد، ويجعله حاقداً على قومه؛ لأنَّهم عونٌ لبلاء الاستبداد عليه، وفاقداً حُبّ وطنه؛ لأنَّه غير آمن على الاستقرار فيه، ويودُّ لو انتقل منه، وضعيف الحُبِّ لعائلته؛ لأنَّه ليس مطمئناً على دوام علاقته معها، ومُختلُّ الثّقة في صداقة أحبابه؛ لأنَّه يعلم منهم أنَّهم مثله لا يملكون التّكافؤ، وقد يُضطرون لإضرار صديقهم، بل وقَتْله وهم باكون. أسيرُ الاستبداد لا يملك شيئاً ليحرص على حفظه؛ لأنَّه لا يملك مالاً غير معرَّض للسَّلب ولا شرفاً غير مُعرَّض للإهانة. ولا يملك الجاهل منه آمالاً مستقبلة ليتبعها ويشقى كما يشقى العاقل في سبيلها.

وهذه الحال تجعل الأسير لا يذوق في الكون لذَّة نعيم، غير بعض الملذَّات البهيمية. بناءً عليه؛ يكون شديدَ الحرص على حياته الحيوانية وإنْ كانت تعيسة، وكيف لا يحرص عليها وهو لا يعرف غيرها؟! أين هو من الحياة الأدبية؟! أين هو من الحياة الاجتماعية؟! أمَّا الأحرار فتكون منزلة حياتهم الحيوانية عندهم بعد مراتب عديدة، ولا يعرف ذلك إلا مَنْ كان منهم، أو مَنْ كَشَفَ الله عن بصيرته.

ومثال الأُسَراء في حرصهم على حياتهم الشّيوخ، فإنّهم عندما تمسي حياتهم كُلُّها أسقاماً وآلاماً ويقربون من أبواب القبور، يحرصون على حياتهم أكثر من الشّباب في مقتبل العمر، في مقتبل الملاذ، في مقتبل الآمال.

الاستبداد يسلب الرّاحة الفكرية، فيضني الأجسام فوق ضناها بالشّقاء، فتمرض العقول، ويختلُّ الشّعور على درجات متفاوتة في النّاس. والعوام الذين هم قليلو المادة في الأصل قد يصل مَرَضُهم العقلي إلى درجة قريبة من عدم التّمييز بين الخير والشّر، في كُلِّ ما ليس من ضروريات حياتهم الحيوانية. ويصل تَسَفُّل إدراكهم إلى أنَّ مُجرَّد آثار الأُبَّهَة والعَظَمَة التي يرونها على المستبدِّ وأعوانه تبهر أبصارهم، ومُجرَّد سماع ألفاظ التّفخيم في وصفه وحكايات قوته وصولته يزيغ أفكارهم، فيرون ويُفكرون أنَّ الدّواء في الدّاء، فينصاعون بين يدي الاستبداد انصياع الغنم بين أيدي الذّئاب؛ حيثُ هي تجري على قدميها جاهدة إلى مقرِّ حتفها.

ولهذا كان الاستبداد يستولي على تلك العقول الضّعيفة فضلاً عن الأجسام فيفسدها كما يريد، ويتغلّب على تلك الأذهان الضّئيلة، فيشوش فيها الحقائق، بل البديهيات كما يهوى، فيكون مَثَلُهم في انقيادهم الأعمى للاستبداد ومقاومتهم للرّشد والإرشاد، مثل تلك الهوام التي تترامى على النّار، وكم هي تغالب مَنْ يريد حجزها على الهلاك. ولا غرابة في تأثير ضعف الأجسام على الضّعف في العقول، فإنَّ في المرضى وخفَّة عقولهم، وذوي العاهات ونقص إدراكهم، شاهداً بَيِّناً كافياً يُقاس عليه نقص عقول الأُسراء البؤساء بالنّسبة إلى الأحرار السُّعداء، كما يظهر الحال أيضاً بأقلِّ

فرق بين الفئتَيْن، من الفرق البيِّن في قوَّة الأجسام وغزارة الدّم واستحكام الصّحة وجمال الهيئات.

ربما يستريب المطالع اللبيب الذي لم يُتْعِبْ فكره في درس طبيعة الاستبداد، من أنَّ الاستبداد المشؤوم كيف يقوم على قَلْب الحقائق، مع أنَّه إذا دَقَّقَ النّظر يتجلَّى له أنَّ الاستبداد يقلب الحقائق في الأذهان. يرى أنَّه كم مَكَّنَ بعض القياصرة والملوك الأوَّلين من التّلاعب بالأديان تأييداً لاستبدادهم فاتَّبعهم النّاس. ويرى أنَّ النّاس وضعوا الحكومات لأجل خدمتهم، والاستبداد قَلَبَ الموضوع، فَجَعَلَ الرّعية خادمة للرُّعاة، فقبلوا وقنعوا. ويرى أنَّ الاستبداد استخدم قوَّة الشّعب، وهي هي قوَّة الحكومة، على مصالحهم لا لمصالحهم فيرتضوا ويرضخوا. ويرى أنَّه قد قبل النّاس من الاستبداد ما ساقهم إليه من اعتقاد أنَّ طالبَ الحقِّ فاجرٌ، وتارك حقّه مطيع، والمشتكي المتظلِّم مُفسد، والنّبيه المُدَقِّق مُلحد، والخامل المسكين صالح أمين. وقد اتَّبع النّاس الاستبداد في تسميته النّصح فضولاً، والغَيْرة عداوة، والشّهامة عتواً، والحميّة حماقة، والرّحمة مرضاً، كما جاروه على اعتبار أنَّ النّفاق سياسة، والتّحيُّل كياسة، والدّناءة لطف، والنّذالة دماثة.

ولا غرابة في تحكُّم الاستبداد على الحقائق في أفكار البسطاء، إنَّما الغريب إغفاله كثيراً من العقلاء، ومنهم جمهور المؤرِّخين الذين يُسمّون الفاتحين الغالبين بالرّجال العظام، وينظرون إليهم نظر الإجلال والاحترام لُمجرَّد أنَّهم كانوا أكثروا في قَتْل الإنسان، وأسرفوا في تخريب العمران. ومن هذا القبيل في الغرابة إعلاء المؤرِّخين قدر مَنْ جاروا المستبدِّين، وحازوا القبول والوجاهة عند الظالمين. وكذلك افتخار الأخلاق بأسلافهم المجرمين الذين كانوا من هؤلاء الأعوان الأشرار.

وقد يظنُّ بعض النّاس أنَّ للاستبداد حسناتٍ مفقودةً في الإدارة الحرة، فيقولون مثلاً: الاستبداد يُلَيِّنُ الطِّباع ويُلَطِّفها، والحقُّ أنَّ ذلك يحصل فيه عن فَقْدِ الشّهامة لا عن فَقْدِ الشّراسة. ويقولون: الاستبداد يُعلِّم الصّغيرَ الجاهلَ حُسْنَ الطّاعة والانقيادَ للكبير الخبير، والحقُّ أنَّ هذا فيه عن خوف وجبانة لا عن اختيار وإذعان. ويقولون: هو يُربِّي النّفوس على الاعتدال والوقوف عند الحدود، والحقُّ أنْ ليس هناك غير انكماش وتقهقر. ويقولون: الاستبداد يُقَلِّلُ الفسق والفجور، والحقُّ أنَّه عن فَقْر وعَجْر، لا عن عفَّة أو دِين. ويقولون: هو يُقلِّل التَعدِّيات والجرائم، والحقُّ أنَّه يمنع ظهورها ويخفيها، فيقلّ تعديدها لا عدادها.

الأخلاق أثمار بِذْرِها الوراثة، وتربتُها التربية، وسُقياها العلم، والقائمون عليها هم رجال الحكومة، بناءً عليه؛ تفعل السّياسة في أخلاق البشر ما تفعله العناية في إنماء الشّجر.

نعم: الأقوام كالآجام، إنْ تُركت مُهملة تزاحمت أشجارها وأفلاذها، وسَقُم أكثرها، وتَغلَّب قويُّها على ضعيفها فأهلكه، وهذا مثل القبائل المتوحِّشة. وإنْ صادفت بستانياً يهمُّه بقاؤها وزهوها فدبّرها حسبما تطلبه طباعها، قويت وأينعت وحَسُنَتْ ثمارها، وهذا مثل الحكومة العادلة. وإذا بُليت ببستاني جدير بأنْ يُسمَّى حَطَّاباً لا يعنيه إلا عاجل الاكتساب، أفسدها وخَرَّبها، وهذا مثل الحكومة المستبدَّة. ومتى كان الحطَّاب غريباً لم يُخلق من تراب تلك الدّيار وليس له فيها فخار ولا يلحقه منها عار، إنما همُّه الحصول على الفائدة العاجلة ولو باقتلاع الأصول، فهناك الطّامة وهناك البوار. فبناءً على هذا المثال؛ يكون فِعْلُ الاستبداد في أخلاق الأمم فِعْلَ ذلك الحطَّاب الذي لا يُرجى منه غير الإفساد.

لا تكون الأخلاق أخلاقاً ما لم تكن مَلَكَة مُطردة على قانون فطري تقتضيه أوّلاً وظيفة الإنسان نحو نفسه؛ وثانياً وظيفته نحو عائلته؛ وثالثاً وظيفته نحو قومه؛ ورابعاً وظيفته نحو الإنسانية؛ وهذا القانون هو ما يُسمّى عند النّاس بالنّاموس.

ومن أين لأسير الاستبداد أنْ يكون صاحب ناموس، وهو كالحيوان المملوك العنان، يُقاد؛ حيثُ يُراد، ويعيش كالريش، يهبُّ؛ حيثُ يهبُّ الرّيح، لا نظام ولا إرادة؟ وما هي الإرادة؟ هي أُمُّ الأخلاق، هي ما قيل فيها تعظيماً لشأنها: لو جازت عبادة غير الله لاختار العقلاء عبادة الإرادة! هي تلك الصّفة التي تفصل الحيوان عن النّبات في تعريفه بأنّه مُتَحرِّك بالإرادة. فالأسير إذن دون الحيوان لأنَّه يتحرَّك بإرادة غيره لا بإرادة نفسه. ولهذا قال الفقهاء: لا نيَّة للرّقيق في كثير من أحواله، إنما هو تابع لنيَّة مولاه. وقد يُعذَر الأسير على فساد أخلاقه؛ لأنَّ فاقد الخيار غير مُؤاخذ عقلاً وشرعاً.

أسير الاستبداد لا نظام في حياته، فلا نظام في أخلاقه، قد يصبح غنياً فيضحي شجاعاً كريماً، وقد يُمسي فقيراً فيبيت جباناً خسيساً، وهكذا كُلُّ شؤونه تُشبه الفوضى لا ترتيب فيها، فهو يتبعها بلا وجهة. أليس الأسير قد يبغي فَيُزجر أو لا يُزجَرُ، ويُبغى عليه فيُنصَرُ أو لا يُنصَرُ، ويُحسن فَيُكافأ أو يُرهق، ويُسيء كثيراً فَيُعفى وقليلاً فَيُشنق، ويجوع يوماً فيضوى، ويخصب يوماً فيتخم، يريد أشياء فَيُمنع، ويأبى شيئاً فَيُرغم؟! وهكذا يعيش كما تقتضيه الصُّدف أنْ يعيش، ومَنْ كانت هذه حاله كيف يكون له خلاق، وإنْ وجد ابتداء يتعذر استمراره عليه؟! ولهذا لا تجوّز الحكمة الحُكْمَ على الأُسراء بخير أو شر.

أقلُّ ما يُؤثره الاستبداد في أخلاق النّاس، أنّه يرغم حتّى الأخيار منهم على إلفة الرّياء والنّفاق ولبئس السّيئتان، وأنّه يعين الأشرار على إجراء غيّ نفوسهم آمنين من كُلِّ تبعة ولو أدبية، فلا اعتراض ولا انتقاد ولا افتضاح؛ لأنَّ أكثر أعمال الأشرار تبقى مستورة، يلقي عليها الاستبداد رداء خوف النّاس من تبعة الشّهادة على ذي شرّ وعقبى ذكر الفاجر بما فيه. ولهذا شاعت بين الأُسراء قواعد كثيرة باطلة كقولهم: إذا كان الكلام من فضّة فالسكوت من ذهب، وقولهم: البلاءُ موكولٌ بالمنطق. وقد تغالى وُعَّاظُهُم في سَدِّ أفواههم حتّى جعلوا لهم أمثال هذه الأقوال من الحِكَمِ النّبوية، وكم هجوا لهم الهجو والغيبة بلا قيد، فهم يقرؤون: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ ويغفلون بقية الآية وهي: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾(170).

أقوى ضابط للأخلاق النّهي عن المنكر بالنّصيحة والتّوبيخ؛ أي بحِرْصِ الأفراد على حراسة نظام الاجتماع، وهذه الوظيفة غير مقدور عليها في عهد الاستبداد لغير ذوي المنعة وقليل ما هم، وقليلاً ما يفعلون، وقليلاً ما يفيد نَهْيُهُم؛ لأنّه لا يمكنهم توجيهه لغير المستضعفين الذين لا يملكون ضرراً ولا نفعاً، بل ولا يملكون من أنفسهم شيئاً، ولأنّه ينحصر موضوع نهيهم فيما لا تخفى قباحته على أحد من الرّذائل النّفسية الشّخصية فقط، ومع ذلك فالجَسور لا يرى بُدّاً من الاستثناء المُخِلِّ للقواعد العامّة كقوله: السّرقة قبيحة إلا إذا كانت استرداداً منها، والكذب حرام إلا للمظلوم. والموظّفون في عهد الاستبداد للوعظ والإرشاد يكونون ـ مطلقاً ـ ولا أقول غالباً، من المنافقين الذين نالوا الوظيفة بالتّملّق، وما أبعد هؤلاء

---

(170) النّساء: 148.

عن التّأثير، لأنَّ النّصح الذي لا إخلاص فيه هو بذر عقيم لا ينبت، وإنْ نَبتَ كان رياءً كأصله، ثمَّ إنَّ النُّصْحَ لا يفيد شيئاً إذا لم يصادف أذناً تتطلّب سماعه؛ لأنَّ النّصيحة وإنْ كانت عن إخلاص فهي لا تتجاوز حُكْمَ البذر الحيّ: إنْ أُلقي في أرض صالحة نَبتَ، وإنْ أُلقي في أرض قاحلة مات.

أمّا النّهي عن المنكرات في الإدارة الحرة، فيمكن لكُلٍّ غيور على نظام قومه أنْ يقوم به بأمان وإخلاص، وأنْ يُوجِّه سهام قوارصه إلى الضّعفاء والأقوياء سواء، فلا يخصّ بها الفقير المجروح الفؤاد، بل تستهدف أيضاً ذوي الشّوكة والعناد. وأنْ يخوض في كُلٍّ واد حتّى في مواضيع تخفيف الظّلم ومؤاخذة الحُكّام، وهذا هو النُّصْحُ الإنكاري الذي يُعدي ويُجدي والذي أطلق عليه النّبي عليه السّلام اسم (الدِّين) تعظيماً لشأنه فقال: "الدِّين النّصيحة". (171)

لمّا كان ضَبْطُ أخلاق الطّبقات العليا من النّاس أهمّ الأمور، أطلقت الأمم الحرة حريَّة الخطابة والتّأليف والمطبوعات مُستثنية القذف فقط، ورأت أنْ تحمل مضرَّة الفوضى في ذلك خير من التّحديد؛ لأنّه لا مانع للحُكّام أنْ يجعلوا الشّعرة من التّقييد سلسلة من حديد، ويخنقون بها عدوَّتهم

---

(171) البخاريّ: الإيمان، مسلم: الإيمان، أبو داود: الأدب، التّرمذي: البرّ، النّسائي: البيعة، الدّارمي: الرّقاق، ابن حنبل: 1/ 351، 2/ 297، إلخ.

وورد في كَشْف الخفاء "الدِّين النّصيحة، قالوا: لِمَنْ يا رسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولأئمّة المسلمين وعامّتهم" رواه مسلم عن تميم الدّاري مرفوعاً، وفي الباب عن جماعة، وعزاه في الجامع الصّغير للبخاريّ في التّاريخ عن ثوبان مُقتصراً على صدره.

يُنظر: العجلوني، كشف الخفاء. . .، ج1، ص 498، برقم 1324.

الطّبيعية ؛ أي الحريّة. وقد حمى القرآن قاعدة الإطلاق بقوله الكريم: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾[172].

الخصال تنقسم إلى ثلاثة أنواع:

الأوّل: الخصال الحسنة الطّبيعية، كالصّدق والأمانة والهمّة والمدافعة والرّحمة، والقبيحة الطّبيعية كالرياء والاعتداء والجبانة والقسوة، وهذا القسم تضافرت عليه كُلّ الطّبائع والشّرائع.

والنوع الثّاني: الخصال الكمالية التي جاءت بها الشّرائع الإلهامية كتحسين الإيثار والعفو وتقبيح الزّنى والطّمع، وهذا القسم يوجد فيه ما لا تدرك كُلّ العقول حكمته أو حكمة تعميمه، فَيُمَثّله المتسبون للدّين احتراماً أو خوفاً.

والنوع الثّالث: الخصال الاعتيادية، وهي ما يكتسبه الإنسان بالوراثة أو بالتّربية أو بالإلفة، فيستحسن أو يستقبح على حسب أمياله ما لم يُضطر إلى التّحوُّل عنها.

ثمّ إنّ التّدقيق يُفيد أنّ الأقسام تشتبك وتشترك ويُؤثر بعضها في بعض، فيصير مجموعها تحت تأثير الإلفة المديدة، بحيثُ كُلّ خصلة منها ترسخ أو تتزلزل، حسبما يصادفها من استمرار الإلفة أو انقطاعها، فالقاتل - مثلاً - لا يستنكر شنيعته في المرّة الثّانية كما استقبحها من نفسه في الأولى، وهكذا يخفّ الجرم في وَهْمِه، حتّى يصل إلى درجة التّلذُّذ بالقتل، كأنّه حَقٌّ طبيعي له، كما هي حالة الجبّارين وغالب السّياسيين، الذين لا ترتجّ في

(172) البقرة: 282.

أفئدتهم عاطفة رحمة عند قَتْلِهم أفراداً أو أمماً لغاياتهم السّياسية، إهراقاً بالسّيف أو إزهاقاً بالقلم، ولا فرق بين القتل بقطع الأوداج وبين الإماتة بإيراث الشّقاء غير التّسريع والإبطاء.

أسير الاستبداد العريق فيه يرث شرَّ الخصال، ويتربّى على أشرِّها، ولابُدَّ أنْ يصحبه بعضها مدى العمر. بناءً عليه؛ ما أبعده عن خصال الكمال! ويكفيه مفسدة لكُلِّ الخصال الحسنة الطّبيعية والشّرعية والاعتيادية تلبسه بالرّياء اضطراراً حتَّى يألفه ويصير مَلَكَةً فيه، فيفقد بسببه ثقة نفسه بنفسه لأنَّه لا يجد خُلُقاً مُستقرّاً فيه، فلا يمكنه - مثلاً - أنْ يجزم بأمانته، أو يضمن ثباته على أمر من الأمور فيعيش سَيِّئَ الظّن في حَقِّ ذاته مُتردِّداً في أعماله، لوَّاماً نفسه على إهماله شؤونه، شاعراً بفتور همَّته ونقص مروءته، ويبقى طول عمره جاهلاً مورد هذا الخلل، فَيَتَّهم الخالقَ، والخالقُ - جَلَّ شأنه - لم يُنقصه شيئاً. ويَتَّهِم تارةً دينه، وتارةً تربيته، وتارةً زمانه، وتارةً قومه، والحقيقة بعيدة عن كُلِّ ذلك، وما الحقيقة غير أنَّه خُلِق حُرّاً فأُسِرَ.

أجمع الأخلاقيون على أنَّ المُتَلَبِّسَ بشائبة من أصول القبائح الخلقية لا يُمكنه أنْ يقطع بسلامة غيره منها، وهذا معنى: "إذا ساءت فِعَالُ المرء ساءت ظنونه"[173]. فالمرائي - مثلاً - ليس من شأنه أنْ يظنَّ البراءة في غيره من شائبة الرّياء، إلا إذا بَعُدَ تشابه النّشأة بينهما بُعْداً كبيراً، كأنْ يكون بينهما مغايرة في الجنس أو الدِّين أو تفاوت مُهِمٌّ في المنزلة كصعلوك وأمير كبير. ومثال

(173) الجملة شطر من بيت من البحر الطّويل، من قصيدة للمتنبي: والبيت هو:
إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه ... وصدق ما يعتاده من توهُّم

ذلك الشّرقي الخائن، يأمن الافرنجي في معاملته، ويثق بوزنه وحسبانه، ولا يأمن ويثق بابن جلدته. وكذلك الإفرنجي الخائن قد يأمن الشّرقيّ، ولا يأمن مطلقاً ابن جنسه. وهذا الحكم صادق على عكس القضية أيضاً؛ أي أنَّ الأمين يظنُّ النّاسَ أمناء خصوصاً أشباهه في النّشأة، وهذا معنى "الكريم يُخدع"، وكم يذهل الأمين في نفسه عن اتّباع حكمة الحزم في إساءة الظّنِّ في مواقعه اللازمة.

إذا علمنا أنَّ من طبيعة الاستبداد ألفة النّاس بعض الأخلاق الرّديئة، وأنَّ منها ما يُضعف الثّقة بالنّفس، علمنا سبب قلَّة أهل العمل وأهل العزائم في السّراء، وعلمنا أيضاً حكمة فَقْدِ الأُسَراء ثقتهم بعضهم ببعض. فينتج من ذلك أنَّ الأُسَراء محرومون - طبعاً - من ثمرة الاشتراك في أعمال الحياة، يعيشون مساكين بائسين مُتواكلين مُتخاذلين مُتقاعسين مُتفاشلين، والعاقل الحكيم لا يلومهم، بل يشفق عليهم، ويلتمس لهم مخرجاً. ويتبع أثر أحكم الحكماء القائل: "ربّ ارحم قومي؛ فإنَّهم لا يعلمون"، "اللهم اهدِ قومي؛ فإنَّهم لا يعلمون".[174]

وهنا أستوقفُ المطالع وأستلفتُهُ إلى التّأمُّل في ما هي ثمرة الاشتراك التي يحرمها الأُسَراء، فأُذكِّره بأنَّ الاشتراك هو أعظم سرٍّ في الكائنات، به قيام كُلِّ شيء ما عدا الله وحده، به قيام الأجرام السّماوية، به قيام كُلِّ حياة، به قيام المواليد، به قيام الأجناس والأنواع، به قيام الأمم والقبائل، به قيام العائلات، به تعاون الأعضاء. نعم؛ الاشتراك فيه سرُّ تضاعف القوّة بنسبة ناموس التّربيع؛ فيه سرُّ الاستمرار على الأعمال التي لا تفي بها

(174) تُنظر: السّيرة النّبوية لابن هشام.

أعمار الأفراد. نعم؛ الاشتراك هو السّرّ كُلُّ السّر في نجاح الأمم المتمدّنة، به أكملوا ناموس حياتهم القومية، به ضبطوا نظام حكوماتهم، به قاموا بعظائم الأمور، به نالوا كُلَّما يغبطهم عليه أُسَراء الاستبداد الذين منهم العارفون بقدر الاشتراك ويتشوّقون إليه، ولكنْ؛ كُلٌّ منهم يُبطن لِغُبن شركائه باتّكاله عليهم عملاً، واستبداده عليهم رأياً، حتّى صار من أمثالهم قولهم: "ما من مُتَّفِقَيْن إلا وأحدهما مغلوبٌ للآخر".

ورُبَّ قائل يقول إنَّ سرَّ الاشتراك ليس بالأمر الخفي، وقد طالما كَتَبَ فيه الكُتّاب حتّى مَلَّته الأسماع، ومع ذلك لم يندفع للقيام به في الشّرق غير اليابانيين والبوير، فما السّبب؟ فأجيبه بأنَّ الكُتّاب كَتَبوا وأكثروا وأحسنوا فيما فَصَّلوا وصَوَّروا، ولكنْ؛ قَاتَلَ الله الاستبداد وشؤمه، جَعَلَ الكُتّاب يحصرون أقوالهم في الدّعوة إلى الاشتراك، وما بمعناه من التّعاون والاتّحاد والتّحابب والاتّفاق، ومنعهم من التّعرُّض لذكر أسباب التّفرُّق والانحلال كُلِّيّاً، أو اضطرهم إلى الاقتصار على بيان الأسباب الأخيرة فقط. فمن قائل مثلاً: الشّرق مريض وسببه الجهل، ومن قائل: الجهل بلاء وسببه قلّة المدارس، ومن قائل: قلّة المدارس عار وسببه عدم التّعاون على إنشائها من قبل الأفراد أو من قبل ذوي الشّأن.

وهذا أعمق ما يخطُّه قلم الكاتب الشّرقيّ كأنّه وصل إلى السّبب المانع الطّبيعي أو الاختياري. والحقيقة أنَّ هناك سلسلة أسباب أخرى حَلَقَتُها الأولى الاستبداد.

وكاتب آخر يقول: الشّرق مريض وسببه فَقْدُ التّمسُّك بالدِّين، ثمَّ يقف، مع أنّه لو تَتَبَّع الأسباب لبلغ إلى الحُكم بأنَّ التّهاون في الدِّين أوّلاً

وآخراً ناشئ من الاستبداد. وآخر يقول: إنَّ السّبب فساد الأخلاق، وغيره يرى أنَّه فَقْدُ التّربية، وسواه ظنَّ أنَّه الكسل، والحقيقة أنَّ المرجع الأوَّل في الكُلِّ هو الاستبداد، الذي يمنع حتَّى أولئك الباحثين عن التّصريح باسمه المهيب. (175)

قد اتَّفق الحكماء الذين أكرمهم الله تعالى بوظيفة الأخذ بيد الأمم في بحثهم عن المهلكات والمنجِّيات، على أنَّ فساد الأخلاق يُخرج الأمم عن أنْ تكون قابلة للخطاب، وأنَّ معاناة إصلاح الأخلاق من أصعب الأمور وأحوجها إلى الحكمة البالغة والعزم القوي، وذكروا أنَّ فساد الأخلاق يعمُّ المستبدَّ وأعوانه وعمَّاله، ثمَّ يدخل بالعدوى إلى كُلِّ البيوت، لا سيما بيوت الطّبقات العليا التي تتمثَّل بها السّفلى. وهكذا يغشو الفساد، وتمسي الأمَّة يبكيها المحبُّ ويشمتُ بها العدوُّ، وتبيت وداؤها عياء يتعاصى على الدّواء.

وقد سَلَكَ الأنبياء عليهم السّلام، في إنقاذ الأمم من فساد الأخلاق، مسلك الابتداء أوّلاً بفكِّ العقول من تعظيم غير الله والإذعان لسواه. وذلك بتقوية حُسْن الإيمان المفطور عليه وجدان كُلِّ إنسان، ثمَّ جهدوا في تنوير العقول بمبادئ الحكمة، وتعريف الإنسان كيف يملك إرادته؛ أي حريته في أفكاره، واختياره في أعماله، وبذلك هَدَموا حصون الاستبداد وسدّوا منبع الفساد.

ثمَّ بعد إطلاق زمام العقول، صاروا ينظرون إلى الإنسان بأنَّه مُكلَّف بقانون الإنسانية، ومطالب بحُسْنِ الأخلاق، فيعلمونه ذلك بأساليب التّعليم المقنع وبث التّربية التّهذيبية.

---

(175) في الفقرات السّابقة إشارة إلى آراء المؤتمرين في (أم القرى) مما يُعَزِّز القول: إنَّ هذا الكتاب جاء بعد (أم القرى).

والحكماء السّياسيون الأقدمون اتّبعوا الأنبياء - عليهم السّلام - في سلوك هذا الطّريق وهذا التّرتيب ؛ أي بالابتداء من نقطة دينية فطرية تُؤدّي إلى تحرير الضّمائر ، ثمّ باتّباع طريق التّربية والتّهذيب بدون فتور ولا انقطاع .

أمّا المتأخّرون من قادة العقول في الغرب ، فمنهم فئة سلكوا طريقة الخروج بأممهم من حظيرة الدّين وآدابه النّفسية ، إلى فضاء الإطلاق وتربية الطّبيعة ، زاعمين أنّ الفطرة في الإنسان أهدى به سبيلاً ، وحاجته إلى النّظام تُغنيه عن إعانة الدّيان ، التي هي كالمخدرات سموم تُعطّل الحسّ بالهموم ، ثمّ تذهب بالحياة ، فيكون ضررها أكبرَ من نفعها .

وقد ساعدهم على سلوك هذا المسلك ، أنّهم وجدوا أممهم قد فشا فيها نور العلم ، ذلك العلم الذي كان مُنحصراً في خدمة الدّين عند المصريين والآشوريين ، ومُحتكراً في أبناء الأشراف عند الغرناطيين والرّومان ، ومُخصّصاً في أعداد من الشّبان المنتخبين عند الهنديين واليونان ، حتّى جاء العرب بعد الإسلام ، وأطلقوا حريّة العلم ، وأباحوا تناوله لكُلّ مُتعلّم ، فانتقل إلى أوروبا حرّاً على رغم رجال الدّين ، فتنوّرت به عقول الأمم على درجات ، وفي نسبتها ترقّت الأمم في النّعيم ، وانتشرت وتخالطت ، وصار المتأخّر منها يغبط المتقدّم ويتنغص من حالته ، ويتطلّب اللحاق ، ويبحث عن وسائله . فنشأ من ذلك حركة قوية في الأفكار ، حركة معرفة الخير والغَيرة على نواله ، حركة معرفة الشّر والأَنَفَة من الصّبر عليه ، حركة السّير إلى الأمام رغم كُلّ معارض . اغتنم زعماء الحريّة في الغرب قوّة هذه الحركة وأضافوا إليها قوّات أدبية شتّى ، كاستبدالهم ثقالة وقار الدّين بزهوة عروس الحريّة ، حتّى إنّهم لم يبالوا بتمثيل الحريّة بحسناء خليعة تختلب النّفوس . وكاستبدالهم رابطة الاشتراك في الطّاعة للمستبدّين برابطة الاشتراك في

الشّؤون العمومية، ذلك الاشتراك الذي يتولّد منه حبُّ الوطن. وهكذا جعلوا قوَّة حركة الأفكار تياراً سلّطوه على رؤوس الرّؤوس من أهل السّياسة والدِّين. ثمَّ إنَّ هؤلاء الزّعماء استباحوا القساوة أيضاً، فأخذوا من مهجورات دينهم قاعدة (الغاية تُبرِّرُ الواسطة)[176]، كجواز السّرقة إذا كانت الغاية منها صرف المال في سبيل الخير، وقاعدة (تثقيل الذِّمَّة يبيح الفعل القبيح) كشهادة الزّور على ذمَّة الكاهن التي يتحمَّل عنه خطيئتها، ودفعوا النّاس بهما إلى ارتكاب الجرائم الفظيعة التي تقشعر منها الإنسانية، التي لا يستبيحها الحكيم الشّرقي لما بين أبناء الغرب وأبناء الشّرق من التّباين في الغرائز والأخلاق.

الغربي: ماديُّ الحياة، قويُّ النّفس، شديدُ المعاملة، حريصٌ على الانتقام، كأنَّه لم يبقَ عنده شيء من المبادئ العالية والعواطف الشّريفة التي نقلتها له مسيحية الشّرق. فالجرماني مثلاً: جاف الطّبع، يرى أنَّ العضو الضّعيف من البشر يستحقُّ الموت، ويرى كُلَّ فضيلة في القوَّة، وكُلَّ القوَّة في المال، فهو يحبُّ العلم، ولكنْ؛ لأجل المال، ويحبُّ المجد، ولكنْ؛ لأجل المال. وهذا اللاتيني مطبوع على العجب والطّيش، يرى العقل في الإطلاق، والحياة في خلع الحياء، والشّرف في التّرف، والكياسة في الكسب، والعزَّ في الغلبة، واللذَّة في المائدة والفراش.

أما أهل الشّرق فهم أدبيون، ويغلب عليهم ضعف القلب وسلطان الحُبِّ، والإصغاء للوجدان، والميل للرّحمة ولو في غير موقعها، واللُّطف ولو مع الخصم. ويرون العزَّ في الفتوة والمروءة، والغنى في القناعة

---

(176) وهي قاعدة بنى عليها مكيافيلي كتاب (الأمير).

والفضيلة، والرّاحة في الأنس والسّكينة، واللذّة في الكرم والتّحبب، وهم يغضبون، ولكنْ؛ للدِّين فقط، ويغارون، ولكنْ؛ على العِرْض فقط.

ليس من شأن الشّرقي أنْ يسير مع الغربي في طريق واحدة، فلا تطاوعه طباعه على استباحة ما يستحسنه الغربي، وإنْ تكلّف تقليده في أمر فلا يُحسن التّقليد، وإنْ أحسنه فلا يثبت، وإنْ ثبت فلا يعرف استثماره، حتّى لو سقطت الثّمرة في كفّه تمنّى لو قفزت إلى فمه!... فالشّرقي مثلاً يهتمُّ في شأن ظالمه إلى أنْ يزول عنه ظلمه، ثمَّ لا يفكر فيمَنْ يخلفه ولا يراقبه، فيقع في الظّلم ثانية، فيعيد الكرة ويعود الظّلم إلى ما لا نهاية. وكأولئك الباطنة في الإسلام: فَتَكوا بمئات أمراء على غير طائل، كأنَّهم لم يسمعوا بالحكمة النّبوية: " لا يُلدغ المرء من جحر مَرّتَيْن"، ولا بالحكمة القرآنية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[177]. أما الغربي إذا أخذ على يد ظالمه فلا يفلته حتّى يشلّها، بل حتّى يقطعها ويكوي مقطعها.

وهكذا بين الشّرقيين والغربيين فروق كثيرة، قد يفضل في الإفراديات الشّرقي على الغربي، وفي الاجتماعيات يفضل الغربي على الشّرقي مُطلقاً. مثال ذلك: الغربيون يستحلفون أميرهم على الصّداقة في خدمته لهم والتزام القانون. والسّلطان الشّرقي يستحلف الرّعية على الانقياد والطّاعة! الغربيون يَمنُّون على ملوكهم بما يرتزقون من فضلاتهم، والأمراء الشّرقيون يتكرّمون على مَنْ شاؤوا بإجراء أموالهم عليهم صدقات! الغربي يعتبر نفسه مالكاً لجزء مُشاع من وطنه، والشّرقي يعتبر نفسه وأولاده وما في يديه ملكاً لأميره! الغربي له على أميره حقوق وليس

(177) التّوبة: 4.

عليه حقوق، والشّرقي عليه لأميره حقوق وليس له حقوق! الغربيون يضعون قانوناً لأميرهم يسري عليه، والشّرقيون يسيرون على قانون مشيئة أمرائهم! الغربيون قضاؤهم وقدرهم من الله، والشّرقيون قضاؤهم وقدرهم ما يصدر من بين شفتَيْ المستعبدين! الشّرقي سريع التّصديق، والغربي لا ينفي ولا يثبت حتّى يرى ويلمس. الشّرقي أكثر ما يغار على الفروج كأنَّ شرفه كُلَّه مُستودعٌ فيها، والغربي أكثر ما يغار على حريته واستقلاله! الشّرقي حريص على الدِّين والرِّياء فيه، والغربي حريص على القوَّة والعزّ والمزيد فيهما! والخلاصة: أنَّ الشّرقي ابن الماضي والخيال، والغربي ابن المستقبل والجد!...

الحكماء المتأخِّرون الغربيون ساعدَتْهُم ظروف الزّمان والمكان، وخصوصية الأحوال، لاختصار الطّريق فَسَلَكُوه، واستباحوا ما استباحوا، حتَّى إنَّهم استباحوا في التّمهيد السّياسي تشجيع أعوان المستبدِّ على تشديد وطأة الظّلم والاعتساف بقصد تعميم الحقد عليه، وبمثل هذه التّدابير القاسية نالوا المراد أو بعضه، من تحرير الأفكار وتهذيب الأخلاق وجعل الإنسان إنساناً.

وقد سبق هؤلاء الغلاة فئة اتَّبعت أثر النّبيين، ولم تحفل بطول الطّريق وتعبه، فنجحتْ ورسختْ، وأعني بتلك الفئة أولئك الحكماء الذين لم يأتوا بدين جديد، ولا تمسَّكوا بمعاداة كُلِّ دين، كمُؤسِّسي جمهورية الفرنسيس، بل رتقوا فُتُوقَ الدّهر في دينهم بما نَقَّحُوا، وهَذَّبوا، وسَهَّلُوا، وقَرَّبوا، حتَّى جَدَّدُوه، وجعلوه صالحاً لتجديد خليق أخلاق الأمَّة.[178]

---

(178) ما يلي منها.

وما أحوج الشّرقيين أجمعين من بوذيِّين ومسلمين ومسيحيِّين وإسرائيليِّين وغيرهم، إلى حكماء لا يبالون بغوغاء العلماء المرائين الأغبياء، والرّؤساء القساة الجهلاء. فيُجَدِّدُون النّظر في الدِّين، نَظَرَ مَنْ لا يحفل بغير الحقِّ الصّريح، نَظَرَ مَنْ لا يضيع النّتائج بتشويش المقدِّمات، نَظَرَ مَنْ يقصد إظهار الحقيقة لا إظهار الفصاحة، نَظَرَ مَنْ يريد وجه ربِّه لا استمالة النّاس إليه، وبذلك يُعيدون النّواقص المعطَّلة في الدِّين، ويُهذِّبونه من الزّوائد الباطلة ممَّا يطرأ عادة على كُلِّ دين يتقادم عهده، فيحتاج إلى مُجدِّدين يرجعون به إلى أصله المبين البريء من حيثُ تمليك الإرادة ورفع البلادة من كُلِّ ما يشين، المُخَفِّف شقاء الاستبداد والاستعباد، المُبَصِّر بطرائق التّعليم والتّعلم الصّحيحَيْن، المُهَيِّئ قيام التّربية الحسنة واستقرار الأخلاق المنتظمة ممَّا به يصير الإنسان إنساناً، وبه لا بالكُفْر يعيش النّاس إخواناً.

والشّرقيون ما داموا على حاضر حالهم بعيدين عن المجد والعزم، مرتاحين للَّهو والهزل تسكيناً لآلام إسارة النّفس، وإخلاداً إلى الخمول والتّسَفُّل، طلباً لراحة الفكر المضغوط عليه من كُلِّ جانب، يتألَّمون من تذكيرهم بالحقائق، ومطالبتهم بالوظائف، ينتظرون زوال العناد بالتّواكل، أو مُجرَّدَ التّمنِّي والدّعاء. أو يتربَّصون صدفة مثل التي نالتها بعض الأمم، فليتوقَّعوا إذن أنْ يفقدوا الدِّين كُلِّياً فيمسوا - وما مساؤهم ببعيد - دهريِّين[(179)] لا يدرون أيّ الحياتَيْن أشقى، فلينظروا ما حاق بالآشوريِّين[(180)]

---

(179) اسم يُطلق على الذين جحدوا الخالق، وقالوا بقِدَم الدّهر الذي يدور عليهم مذهبهم.

(180) شعب إمبراطورية آشور القديمة التي قامت بغربي آسيا حول مدينة آشور الواقعة في أعالي نهر دجلة. ثمّ تدمَّرت على أيدي الميديين (612ق. م) وآلت أملاك آشور إلى الإمبراطورية الفارسية.

والفينيقيِّين[181] وغيرهم من الأمم المنقرضة المندمجة في غيرها خَدَماً وخَوَلاً.[182]

والأمر الغريب، أنَّ كُلَّ الأمم المنحطَّة من جميع الأديان تحصر بلية انحطاطها السّياسي في تهاونها بأمور دينها، ولا ترجو تحسين حالتها الاجتماعية إلا بالتّمسُّك بعروة الدِّين تمسُّكاً مكيناً، ويريدون بالدِّين العبادة، ولَنِعْمَ الاعتقاد لو كان يفيد شيئاً، لكنّه لا يفيد أبداً؛ لأنَّه قول لا يمكن أنْ يكون وراءه فعل، وذلك أنَّ الدِّين بذر جيد لا شبهة فيه، فإذا صادف مغرساً طيباً نَبَتَ ونما، وإنْ صادف أرضاً قاحلة مات وفات، أو أرضاً مغراقاً هاف ولم يثمر، وما هي أرض الدِّين؟ أرض الدِّين هي تلك الأمَّة التي أعمى الاستبداد بصرها وبصيرتها، وأفسد أخلاقها ودينها، حتَّى صارت لا تعرف للدِّين معنى غير العبادة والنّسك اللذَيْن زيادتهما عن حَدِّهما المشروع أضرُّ على الأمَّة من نقصهما كما هو مُشاهَد في المُتَنسّكين.

نعم؛ الدِّين يُفيد التَّرقِّي الاجتماعي إذا صادف أخلاقاً فطرية لم تفسد، فينهض بها كما نهضت الإسلامية بالعرب، تلك النّهضة التي نتطلَّبها منذ ألف عام عبثاً.

وقد عَلَّمنا هذا الدّهر الطّويل - مع الأسف - أنَّ أكثر النّاس لا يحفلون بالدِّين إلا إذا وافق أغراضهم، أو لهواً ورياءً، وعلمنا أنَّ النّاس عبيد

(181) قوم يتكلمون السّامية، استقرّوا في فينيقيا، واتَّبعوا نظام دولة المدينة. كانت أكبر مدنهم صور وصيدا. امتدَّ استعمارهم إلى إسبانيا والبرتغال وقرطاجة. خضعوا للحُكْم المصري، ثمَّ استقلّوا في القرن الثّالث عشر قبل الميلاد حتَّى الفتح الآشوري (876 ق.م). اخترعوا حروف الكتابة. ثم خضعوا للفُرْس في القرن السّادس قبل الميلاد، وخَدَموهم كما خَدَموا الإغريق.

(182) الخَوَل: العبيد. (ك).

منافعهم وعبيد الزّمان، وأنَّ العقل لا يفيد العزم عندهم، إنما العزم عندهم يتولَّد من الضّرورة أو يحصل بالسّائق المجبر. ولا يستحي النّاس من أنْ يُلزموا أنفسهم باليمين أو النّذر. بناءً عليه؛ ما أجدر بالأمم المنحطّة أنْ تلتمس دواءها من طريق إحياء العلم وإحياء الهمّة مع الاستعانة بالدّين والاستفادة منه بمثل: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[183]، لا أنْ يَتَّكِلُوا على أنَّ الصّلاة تمنع النّاس عنهما بطبعها.

---

(183) العنكبوت: 45.

الاستبداد والتّربية

خَلَقَ اللّهُ في الإنسان استعداداً للصّلاح واستعداداً للفساد، فأبواه يُصلحانه، وأبواه يُفسدانه؛ أي إنّ التّربية تربو باستعداده جسماً ونَفْساً وعقلاً إنْ خيراً فخير وإنْ شراً فشرّ. وقد سبق أنّ الاستبداد المشؤوم يُؤثّر على الأجسام فيورثها الأسقام، ويسطو على النّفوس فيفسد الأخلاق، ويضغط على العقول فيمنع نماءها بالعلم. بناءً عليه؛ تكون التّربية والاستبداد عاملَيْن متعاكسَيْن في النّتائج، فكُلُّ ما تبنيه التّربية مع ضعفها يهدمه الاستبداد بقوته، وهل يتمُّ بناءٌ وراءه هادم. ؟

الإنسان لا حَدَّ لغايتَيْه رقياً وانحطاطاً. وهذا الإنسان الذي حارت العقول فيه، الذي تحمَّل أمانة تربية النَّفْس، وقد أَبَتْهَا العوالم، فأتمَّ خالقه استعداده، ثمَّ أوكله لخيرته[184]، فهو إنْ يشأ الكمال يبلغ فيه إلى ما فوق مرتبة الملائكة، وإنْ شاء تَلَبَّسَ بالرّذائل حتّى يكون أحطّ من الشّياطين، على أنَّ الإنسان أقرب للشّر منه للخير. وكفى أنَّ الله ما ذكر الإنسان في القرآن، إلا وقَرَنَ اسمه بوصف قبيح كظلوم وغرور وكَفَّار وجبار وجهول وأثيم. ما ذكر الله تعالى الإنسان في القرآن إلا وهجاه فقال: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾[185]

---

(184) اختياره.

(185) عبس : 17.

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ ﴾ [186] _ ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ [187] _ ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾ [188] _ ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولاً ﴾ [189] _ ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [190]. ما وجد من مخلوقات الله من نازع الله في عظمته، والمستبدُّون من الإنسان ينازعونه فيها، والمتناهون في الرّذالة قد يقبحون عبثاً لغير حاجة في النَّفْس حتَّى وقد يتعمَّدون الإساءة لأنفسهم.

الإنسان في نشأته كالغصن الرّطب فهو مستقيم لدن بطبعه، ولكنَّها أهواء التّربية تميل به إلى يمين الخير أو شمال الشّر، فإذا شَبَّ يبسَ ويقي على أمياله ما دام حياً، بل تبقى روحه إلى أبد الآبدين في نعيم السّرور بإيفائه حَقّ وظيفة الحياة أو في جحيم النّدم على تفريطه. وربما كان لا غرابة في تشبيه الإنسان بعد الموت بالمرء الفرح الفخور إذا نام ولَذَّتْ له الأحلام، أو بالمجرم الجاني إذا نام فغشيتْهُ قوارص الوجدان بهواجس كُلّها ملام وآلام.

التّربية مَلَكَةٌ تحصل بالتّعليم والتّمرين والقدوة والاقتباس، فأهمُّ أصولها وجود المُرَبِّين، وأهمُّ فروعها وجود الدِّين. وجعلت الدِّين فرعاً لا أصلاً؛ لأنَّ الدِّين علم لا يفيد العمل إذا لم يكن مقروناً بالتّمرين. وهذا هو سبب اختلاف الأخلاف من علماء الدِّين عند الإسلام عن أمثالهم من البراهمة والنّصارى، وهو سبب إقبال المسلمين في القرن الخامس وفيما بعده، على قبول أصول الطّرائق التي كانت لُبّاً محضاً لما كانت تعليماً

(186) الحج : 66. وردت في الأصل : (إنَّ الإنسان كان لربّه كفوراً) .

(187) العصر 2.

(188) العلق : 6.

(189) الإسراء : 11. وردت في الأصل : (خلق الإنسان عجولاً).

(190) الأنبياء : 37.

وتمريناً؛ أي تربية للمريدين، ثمَّ خالطها القشر، ثمَّ صارت قشراً محضاً، ثمَّ صار أكثرها لهواً أو كُفْراً.

مَلَكَةُ التَّربية بعد حصولها إنْ كانت شراً تضافرت مع النَّفْس ووليها الشّيطان الخنَّاس[191] فرسخت، وإنْ كانت خيراً تبقى مُقلقلة كالسفينة في بحر الأهواء، لا يرسو بها إلا فرعها الدِّيني في السّرِّ والعلانية، أو الوازع السّياسي عند يقين العقاب.

والاستبداد ريح صرصر فيه إعصار يجهل الإنسان كُلّ ساعة في شأن، وهو مُفْسِدٌ للدِّين في أهمِّ قسمَيْه؛ أي الأخلاق، وأمَّا العبادات منه فلا يمسّها لأنَّها تلائمه في الأكثر. ولهذا تبقى الأديان في الأمم المأسورة عبارة عن عبادات مُجرَّدة صارت عادات، فلا تفيد في تطهير النّفوس شيئاً، ولا تنهى عن فحشاء ولا منكر لِفَقْدِ الإخلاص فيها تبعاً لِفَقْدِه في النّفوس، التي ألفت أنْ تتلجَّأ وتتلوَّى بين يدي سطوة الاستبداد في زوايا الكذب والرِّياء والخداع والنّفاق، ولهذا لا يُستغرب في الأسير الأليف تلك الحال؛ أي الرِّياء، أنْ يستعمله أيضاً مع ربِّه، ومع أبيه وأمِّه ومع قومه وجنسه، حتَّى ومع نفسه.

التّربية تربية الجسم وحده إلى سَنَتَيْنَ، هي وظيفة الأمّ أو الحاضنة، ثمَّ تُضاف إليها تربية النَّفْس إلى السّابعة، وهي وظيفة الأبوَيْن والعائلة معاً، ثمَّ تضاف إليها تربية العقل إلى البلوغ، وهي وظيفة المعلِّمين والمدارس، ثمَّ تأتي تربية القدوة بالأقربين والخلطاء إلى الزّواج، وهي وظيفة الصُّدفة، ثمَّ تأتي تربية المقارنة، وهي وظيفة الزّوجَيْن إلى الموت أو الفراق.

---

(191) أحد ألقاب الشّيطان، لأنَّه يخنس إذا ذُكر الله عَزَّ وجَلَّ، أي: ينقبض.

ولابُدَّ أنْ تصحب التربية من بعد البلوغ، تربية الظروف المحيطة، وتربية الهيئة الاجتماعية، وتربية القانون أو سير السياسي، وتربية الإنسان نفسه.

الحكومات المنتظمة هي (التي)[192] تتولّى ملاحظة تسهيل تربية الأمّة من حين تكون في ظهور الآباء، وذلك بأنْ تَسنَّ قوانين النّكاح، ثمَّ تعتني بوجود القابلات والملقحين[193] والأطباء، ثمَّ تفتح بيوت الأيتام اللقطاء، ثمَّ تُعدُّ المكاتب والمدارس للتّعليم من الابتدائي الجبري إلى أعلى المراتب، ثمَّ تُسَهِّل الاجتماعات، وتُمهِّد المسارح[194]، وتحمي المنتديات، وتجمع المكتبات والآثار، وتُقيم النُّصُب المذكرات، وتضع القوانين المحافظة على الآداب والحقوق، وتسهر على حفظ العادات القومية، وإنماء الإحساسات المللية[195]، وتُقَوِّي الآمال، وتُيسِّر الأعمال - وتُؤمِّن العاجزين فعلاً عن الكَسْب من الموت جوعاً، وتدفع سليمي الأجسام إلى الكَسْب ولو في أقصى الأرض، وتحمي الفضل وتُقَدِّر الفضيلة. وهكذا تلاحظ كُلَّ شؤون المرء، ولكنْ؛ من بعيد، كي لا تخلّ بحريته واستقلاله الشّخصي، فلا تقرب منه إلا إذا جنى جرماً لتعاقبه، أو مات لتواريه.

وهكذا الأمَّة تحرص على أنْ يعيش ابنها راضياً بنصيبه من حياته لا يفتكر قطّ كيف تكون بعده حالة صبية ضعاف يتركهم وراءه، بل يموت مُطمئناً راضياً مرضياً آخر دعائه: فلتحي الأمَّة، فلتحي الهمَّة.

---

(192) على الأغلب، سقطت سهواً، لأنّها مُثبتة في (ط. ق).

(193) المرضين.

(194) في (ط. ق): المراسح.

(195) في الأصل: المالية، وأثبتناها من (ط. ق).

أما المعيشة الفوضى في الإدارات المستبدَّة فهي غنية عن التّربية؛ لأنَّها محضُ نماء يشبه الأشجار الطّبيعية في الغابات والحراش، يسطو عليها الحرق والغرق. وتُحطِّمها العواصف والأيدي القواصف، ويتصرَّف في فسائلها[196] وفروعها الفأس الأعمى، فتعيش ما شاءت رحمة الحطّابين أنْ تعيش، والخيار للصُّدفة تعوج أو تستقيم، تُثمر أو تعقم.

يعيش الإنسان في ظلٍّ العدالة والحريَّة نشيطاً على العمل بياض نهاره، وعلى الفكر سواد ليله، إنْ طعم تلذَّذ، وإنْ تلهَّى تروَّح وتريَّض؛ لأنَّه هكذا رأى أبوَيْه وأقرباءه، وهكذا يرى قومه الذين يعيش بينهم. يراهم رجالاً ونساءً، أغنياء وفقراء، ملوكاً وصعاليك، كُلّهم دائبين على الأعمال، يفتخر منهم كاسب الدِّينار بِكَدِّه وجدّه، على مالك المليار إرثاً عن أبيه وجَدِّه. نعم؛ يعيش العامل ناعم البال يسرُّه النّجاح ولا تقبضه الخيبة، إنَّما ينتقل من عمل إلى غيره، ومن فكر إلى آخر، فيكون مُتلذِّذاً بآماله إنْ لم يسارعه السّعد في أعماله، وكيفما كان يبلغ العذر عند نفسه والنّاس بمجرَّد إيفائه وظيفة الحياة؛ أي العمل. ويكون فرحاً فخوراً نجح أو لم ينجح، لأنَّه بريء من عار العجز والبطالة.

أما أسير الاستبداد، فيعيش خاملاً خامداً ضائع القصد، حائراً لا يدري كيف يُميت ساعاته وأوقاته ويدرج أيامه وأعوامه، كأنَّه حريص على بلوغ أجله ليستتر تحت التّراب. ويُخطئ والله مَنْ؟؟ يظنُّ أنَّ أكثر الأُسَراء لا سيما منهم الفقراء لا يشعرون بآلام الأسر. مُستدلاً بأنَّهم لو كانوا يشعرون

---

(196) مفردها: فسيلة: النّخلة الصّغيرة تُقطع من الأم، أو تُقلع من الأرض فتغرس، وجزء من النّبات يُفصل عنه ويغرس.

لبادروا إلى إزالته، والحقيقة في ذلك أنَّهم يشعرون بأكثر الآلام ولكنَّهم لا يدركون ما هو سببها ومن أين جاءتهم، فيرى أحدهم نفسه مُنقبضاً عن العمل، لأنَّه غير أمين على اختصاصه بالثّمرة. وربما ظنَّ السَّلب حقّاً طبيعياً للأقوياء فيتمنَّى أنْ لو كان منهم. ثمَّ يعمل تارة، ولكنْ؛ بدون نشاط ولا إتقان، فيفشل ضرورة، ولا يدري أيضاً ما السّبب، فيغضب على ما يُسمِّيه سعداً أو حظّاً أو طالعاً أو قَدَراً. والمسكين من أين له أنْ يعرف أنَّ النّشاط والإتقان لا يتأتّيان إلا مع لذَّة انتظار النّجاح في العمل، تلك اللذَّة التي قَدَّر الحكماء أنَّها اللذَّة الكبرى، لاستمرار زمانها من حين العزم إلى تمام العمل، والأسير لا اطمئنان فيه على الاستمرار، ولا تشجيع له على الصّبر والجَلَد.

الأسير المُعَذَّب المنتسب إلى دين يُسلِّي نفسه بالسّعادة الأخروية، فَيَعدُها بجنان ذات أفنان ونعيم مقيم أعدَّه له الرّحمن، ويُبعد عن فكره أنَّ الدّنيا عنوان الآخرة، وأنَّه ربما كان خاسر الصّفقتَيْن، بل ذلك هو الكائن غالباً. ولبسطاء الإسلام مُسلّيات أظنُّها خاصَّة بهم يعطفون مصائبهم عليها، وهي نحو قولهم: الدّنيا سجن المؤمن، المؤمن مصاب، إذا أحبَّ الله عبداً ابتلاه، هذا شأن آخر الزّمان، حسب المرء لقيمات يقمنَ صلبه. ويتناسون حديث " إنَّ الله يكره العبد البطّال "(197) والحديث المفيد معنى " إذا قامت السّاعة وفي يد أحدكم غرسة فليغرسها "(198)، ويتغافلون عن النّصِّ

---

(197) حديث مشهور بهذا اللفظ، ويُروى أيضاً: (يكره الرّجل البطّال). وهو حديث موضوع. قال الزّركشي: " لم أجده. ومعناه مروي في حديث آخر رواه الطّبراني والبيهقي وغيرهما: " إنَّ الله يحبُّ العبد المؤمن المحترف ".

يُنظر: العجلوني، كشف الخفاء... ، ج 1، ص 291، برقم 763.

(198) مسند ابن حنبل 3/ ص 184، 191.

القاطع المؤجّل قيام السّاعة إلى ما بعد استكمال الأرض زخرفتها وزينتها[199] . وأين ذلك بعد؟

وكُلُّ هذه المسلّيات المثبطات تهون عند ذلك السّمّ القاتل، الذي يُحوّل الأذهان عن التماس معرفة سبب الشّقاء، فيرفع المسؤولية عن المستبدّين، ويلقيها على عاتق القضاء والقَدَر، بل على عاتق الأُسَراء المساكين أنفسهم. وأعني بهذا السّمّ سوء فَهْم العوام، ويله[200] الخواص، لما ورد في التّوراة من نحو: "اخضعوا للسّلطان ولا سلطة إلا من الله" و"الحاكم لا يتقلّد السّيف جزافاً، إنّه مقام للانتقام من أهل الشّر"، ولما ورد في الرّسائل[201] من نحو: "فلتخضع كُلُّ نسمة للسّلطة القامة من الله"، وقد صاغ وُعّاظ المسلمين ومُحَدّثوهم من ذلك قولهم: "السّلطان ظلُّ الله في الأرض". و"الظّالم سيف الله ينتقم به، ثمّ ينتقم منه". و"الملوك مُلهَمُون". هذا وكُلُّ ما ورد في هذا المعنى إنْ صحَّ فهو مُقيَّد بالعدالة أو محتمل للتّأويل بما يعقل، وبما ينطبق على حُكم الآية الكريمة التي فيها فصل الخطاب وهي: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[202] وآية ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[203] .

---

(199) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ يونس: 24.

(200) في (ط ـ ق): (بله الخواص) والمعنيان مختلفان، فهي بدون (و) تعني: ناهيك عن الخواص.

(201) رسائل بولس الرّسول، وعددها أربع عشرة رسالة، وهي من أسفار العهد الجديد.

(202) هود: 18.

(203) البقرة: 193. في الأصل: (ولا عدوان).

التربية علم وعمل. وليس من شأن الأمم المملوكة شؤونها، أنْ يوجد فيها مَنْ يعلم التّربية ولا مَنْ يعلمها[204]. حتّى إنَّ الباحث لا يرى عند الأُسَراء علماً في التّربية مدفوناً في الكُتُب فضلاً عن الأذهان. أمّا العمل فكيف يُتصوَّر وجوده بلا سبق عزم، وهو بلا سبق يقين، وهو بلا سبق علم. وقد ورد في الأثر "النّية سابقة العمل". وورد في الحديث: "إنّما الأعمال بالنّيّات"[205]. بناءً عليه؛ ما أبعد النّاس المغصوبة إرادتهم، المغلولة أيديهم، عن توجيه الفكر إلى مقصد مُفيد كالتربية، أو توجيه الجسم إلى عمل نافع كتمرين الوجه على الحياء والقلب على الشّفقة.

نعم؛ ما أبعد الأُسَراء عن الاستعداد لقبول التّربية، وهي قَصْرُ النّظر على المحاسن والعِبَر، وقَصْرُ السّمع على الفوائد والحِكَم، وتعويد اللسان على قول الخير، وتعويد اليد على الإتقان، وتكبير النّفس عن السّفاسف، وتكبير الوجدان عن نصرة الباطل، ورعاية التّرتيب في الشّؤون، ورعاية التّوفير[206] في الوقت والمال. والاندفاع بالكُلّيّة لحفظ الشّرف، لحفظ الحقوق، ولحماية الدِّين، لحماية النّاموس، ولحُبِّ الوطن، لحُبِّ العائلة، ولإعانة العلم، لإعانة الضّعيف، ولاحتقار الظّالمين، لاحتقار الحياة. إلى غير ذلك مما لا ينبت إلا في أرض العدل، تحت سماء الحرّيّة، في رياض التّربيتين العائلية والقومية.

الاستبداد يُضطَرُّ النّاس إلى استباحة الكذب والتّحيُّل والخداع والنّفاق والتّذلُّل. وإلى مراغمة الحسِّ وإماتة النّفْس ونبذ الجدّ وترك العمل،

---

(204) في (ط. ق): يعملها.

(205) متّفق عليه.

(206) في (ط. ق): الاقتصاد.

إلى آخره. وينتج من ذلك أنَّ الاستبداد المشؤوم هو يتولَّى بطبعه تربية النّاس على هذه الخصال الملعونة. بناءً عليه؛ يرى الآباء أنَّ تعبهم في تربية الأبناء التّربية الأولى على غير ذلك لابُدَّ أنْ يذهب عبثاً تحت أرجل تربية الاستبداد، كما ذهبت قبلها تربية آبائهم لهم، أو تربية غيرهم لأبنائهم سُدىً.

ثمَّ إنَّ عبيد السّلطة التي لا حدود لها هم غير مالكين أنفسهم، ولا هم آمنون على أنَّهم يُربّون أولادهم لهم. بل هم يُربّون أنعاماً للمستبدِّين، وأعواناً لهم عليهم. وفي الحقيقة إنَّ الأولاد في عهد الاستبداد، هم سلاسل من حديد يرتبط بها الآباء على أوتاد الظّلم والهوان والخوف والتّضييق. فالتوالد من حيثُ هو زمن الاستبداد حمق، والاعتناء بالتّربية حمق مضاعف! وقد قال شاعر(207):

إنْ دامَ هذا ولم تحدث له غِيَرٌ   لم يُبكَ ميتٌ ولم يُفرح بمولودِ(208)

وغالب الأُسَراء لا يدفعهم للزّواج قصد التّوالد، إنما يدفعهم إليه الجهل المظلم، وأنَّهم حتَّى الأغنياء منهم محرومون من كُلِّ الملذّات الحقيقية: كَلَذّة العلم وتعليمه، ولذّة المجد والحماية، ولذّة الإيثار والبذل، ولذّة إحراز مقام في القلوب، ولذّة نفوذ الرّأي الصّائب، ولذّة كِبَرِ النّفس عند السّفاسف، إلى غير ذلك من الملذّات الرّوحية.

أمّا ملذّات هؤلاء التّعساء فهي مقصورة على لَذّتَيْن اثنتَيْن؛ الأولى منهما لذّة الأكل وهي جعلهم بطونَهم مقابَر للحيوانات إنْ تيسَّرت، وإلا

(207) شاعر: إضافة في: مخ. والشّاعر مجهول.

(208) البيت من البحر البسيط.

فمزابل للنّباتات، أو بجعلهم أجسامهم في الوجود كما قيل: أنابيب بين المطبخ و(الكنيف)[209]، أو جعلها معامل أُعدَّت لتجهيز الأخبثَيْن. واللذّة الثّانية هي الرّعشة باستفراغ الشّهوة، كأنَّ أجسامهم خلقت دمامل جَرَب على أديم الأرض، يطيب لها الحكّ ووظيفتها توليد الصّديد ودفعه[210]. وهذا الشّره البهيمي في البِعال[211] هو ما يعمي الأُسَراء ويرميهم بالزواج والتّوالد.

العرضُ - زمن الاستبداد - كسائر الحقوق غير مصون، بل هو مُعرَّض لهتك الفُسَّاق من المستبدِّين والأشرار من أعوانهم، فإنَّهم، كما أخبر القرآن عن الفراعنة، يأسرون الأولاد ويستحيون النّساء خصوصاً في الحواضر الصّغيرة والقرى المستضعف أهلها. ومن الأمور المشاهدة أنَّ الأمم التي تقع تحت أسر أمَّة تغايرها في السّيماء، لا يمضي عليها أجيال إلا وتغشو فيها سيماء الآسرين: كسواد العيون في الاسبانيول، وبياض البشرة في الأفريقيين. وعدم الاطمئنان على العِرْض يُضعف الحُبَّ الذي لا يتمُّ إلا بالاختصاص، ويُضعف لصقة الأولاد بأزواج أمَّهاتهم، فتضعف الغَيْرة على تحمُّل مشاقّ التّربية، تلك الغَيْرة التي لأجلها شرَّعَ الله النّكاح وحَرَّمَ السّفاح.

للسّعة والفقر أيضاً دَخْلٌ كبير في تسهيل التّربية، وأين الأُسَراء من السّعة؟! كما أنَّ لانتظام المعيشة ولو مع الفقر علاقة قوية في التّربية، ومعيشة الأُسَراء أغنياء كانوا أو مُعْدَمين، كُلُّها خَلَلٌ في خَلَلٍ، وضيق في ضيق، وذلك يجعل الأسير هَيِّنَ النَّفس، وهذا أوَّل دَرَكات الانحطاط، ويرى ذاته

(209) أي: المرحاض. (ك).

(210) من أعراض مرض الجَرَب، الحكّ الدّائم.

(211) الأزواج.

لا يستحقُّ المزيد في النّعيم مطعماً ومشرباً وملبساً ومسكناً، وهذا ثاني الدّركات ويرى استعداده قاصراً عن التّرقّي في العلم، وهذا ثالثها، ويرى حياته على بساطتها لا تقوى إلا بمعاونة غيره له، وهذا رابعها، وهَلُمَّ جَرّاً!.

بناءً عليه؛ ما أبعد الأُسَراء عن النّشاط للتّربية، ثمَّ لماذا يتحمّلون مشاقّ التّربية، وهم إنْ نَوَّرُوا أولادهم بالعلم جَنَوا عليهم بتقوية إحساسهم، فيزيدونهم شقاءً، ويزيدونهم[212] بلاءً، ولهذا لا غرو أنْ يختار الأُسراء الذين فيهم[213] بقية من الإدراك، ترك أولادهم هملاً تجرفهم البلاهة إلى حيثُ تشاء.

وإذا افتكرنا كيف ينشأ الأسير في البيت الفقير وكيف يتربّى، نجد أنّه يُلقّح به وفي الغالب أبواه مُتناكدان مُتشاكسان، ثمَّ إذا تحرّك جنيناً حَرّكَ شراسة أمّه فتشتمه، أو زاد آلام حياتها فتضربه، فإذا ما نما ضيّقت عليه بطنها لإلفتها الانحناء[214] خمولاً والتّصرُّر صغاراً، والتّقلّص لضيق فراش الفقر، ومتى وَلَدَتْهُ ضغطت عليه بالقماط اقتصاداً أو جهلاً، فإذا تألّم وبكى سَدَّتْ فمه بثديها، أو قطعت*[215] نفسه خضّاً أو بدوار السّرير، أو سَقَتْهُ مخدراً عجزاً عن نفقة الطّبيب، فإذا ما فُطم، يأتيه الغذاء الفاسد يضيق معدته، ويفسد مزاجه، فإذا كان قويّ البنية طويل العمر وترعرع، يُمنع من رياضة اللعب لضيق البيت، فإذا سأل واستفهم ماذا وما هذا ليتعلّم، يُزجَر ويَلْكُمُ لضيق خُلُق أبوَيْه، وإنْ جالسهما ليألف المعاشرة وينتفي عنه التّوحُّش يبعدانه كي لا يقف على أسرارهما، فيسترقها منه الجيران الخلطاء، فتنمى

(212) في (ط.ح): ويزودونهم. (ط.ق): ويزيدونهم.

(213) في (ط.ح): فيها. (ط.ق): فيهم.

(214) في الأصل: الأنحاء.

(215) قطعت: غير موجودة في (ط.ح).

إلى أعوان الظّالمين وما أكثرهم، فإذا قويت رجلاه يُدفع به إلى خارج الباب، إلى مدرسة الإلفة على القذارة، وتعلّم صيغ الشّتائم والسّباب، فإنْ عاش ونشأ وُضع في مكتب أو عند ذي صنعة، فيكون أكبر القصد ربطه عن السّراح والمراح. فإذا بلغ الشّباب، رَبَطَهُ أولياؤه على وتد الزّواج كي لا يفرّ من مشاكلتهم في شقاء الحياة، ليجني هو على نسله كما جنى عليه أبواه، ثمّ هو يتولّى التّضييق على نفسه بأطواق الجهل وقيود الخوف، ويتولّى المستبدُّون التّضييق على عقله ولسانه وعمله وأمله.[216]

وهكذا يعيش الأسير من حين يكون نسمة في ضيق وضغط، يهرول ما بين عتبة هَمٍّ ووادي غَمٍّ، يُودِّع سقماً ويستقبل سقماً إلى أنْ يفوز بنعمة الموت مُضيعاً دنياه مع آخرته، فيموت غير آسف ولا مأسوف عليه.

وما أظلم مَنْ يؤاخذ الأُسَراء على عدم اعتنائهم بلوازم الحياة. فالنظافة مثلاً: لماذا يهتمُّ بها الأسير؟ هل لأجل صحّته وهو في مرض مستمر؟ أم لأجل لَذّته وهو المتألّم كيفما تَقَلَّبَ جسمه أو نظره؟ أم لأجل ذوق مَنْ يجالس أو يؤاكل، وهو مَنْ عَفَّتْ نفسُهُ صحبةَ الحياة؟

ولا يظننّ المطالع أنّ حالة أغنياء الأُسَراء هي أقلُّ شرّاً من هذا، كلا؛ بل هم أشقى وأقلّ عافية وأقصر عمراً من هذا، إذا نقصتهم بعض المنغِّصات، تزيد فيهم مشاقّ التّظاهر بالرّاحة والرّفاه والعزّة والمنعة، تظاهراً إنْ صحّ قليله فكثيره الكاذب، حمل ثقيل على عواتقهم كالسكران يتصاحى فَيُبْتَلى بالصّداع، أو كالعاهرة البائسة تتضاحك لترضي الزّاني.

---

(216) نجد وصفاً مشابهاً عند كُلٍّ من: المعري، روسو، أديب إسحق.

حياة الأسير تشبه حياة النّائم المزعوج بالأحلام، فهي حياة لا روح فيها، حياة وظيفتها تمثيل مندرسات الجسم فقط ولا علاقة لها بحفظ المزايا البشرية، وبناءً على هذا؛ كان فاقد الحريَّة لا أنانية[217] له لأنَّه ميتٌ بالنّسبة لنفسه، حَيٌّ بالنّسبة لغيره، كأنَّه لا شيء في ذاته، إنما هو شيء بالإضافة. ومَنْ كان وجوده في الوجود بهذه الصّورة وهي الفناء في المستبدِّين، حُقَّ له أنْ لا يشعر بوظيفة شخصية فضلاً عن وظيفة اجتماعية. ولولا أنْ ليس في الكون شيء غير تابع لنظام حتَّى الجماد، حتَّى فلتات الطّبيعة والصُّدف التي هي مُسَبَّبات لأسباب نادرة، لحَكَمْنا بأنَّ معيشة الأُسَراء هي محض فوضى، لا شبه فوضى.

على أنَّ التّدقيق العميق، يُفيدنا بأنَّ للأُسَراء، قوانين غريبة في مقاومة الفناء يصعب ضبطها وتعريفها، إنَّما الأسير يرضعها مع لبن أمِّه، ويتربَّى عليها، وقد يُبدع فيها بسائق الحاجة، ويكون منهم الحاذق فيها علماً، الماهر في تطبيقها عملاً، هو المُوَفَّق في ميدان حرب الحياة مع الذّلِّ، كالهنود واليهود. والعاجز عنها، إمَّا جاهل هذا القانون أو العاجز فطرة عن اتِّباعه كالعرب مثلاً، فلا يخرج عن كونه كرة يلعب بها صبيان الاستبداد، تارةً يضربون بها الأرض أو الحيطان، وأخرى تتناولها أرجلهم بالصّفعان، وهذا إذا كان عَجْزُ الأسير عن جهل، وأمَّا إذا كان عَجْزُهُ كما يُقال عن عرق هاشمي، أي عن شيء من كرامة نفس أو قوَّة إحساس أو جسارة جنان، فيكون كالحجارة تتكسَّر ولا تلين.

قوانين حياة الأسير هي مقتضيات الشّؤون المحيطة به، التي تُضطره لأنْ يُطبِّق إحساساته عليها، ويُدَبِّر نفسه على موجبها، وذلك نحو مقابلة

---

(217) لا يشعر بذات مُستقلّة.

التّجبُّر عليه بالتّذلُّل والتّصاغر، وتعديل الشّدّة عليه بالتّلاين والمطاوعة، وإعطاء المطلوب منه بعد قليل من التّمنُّع، ولو أنّ المطلوب هو ابنه لجزرة الجندية أو بنته لفراش شيخ شرير، والمطالبة في الحقوق بصفة استعطاف كأنّه طالب صَدَقَة، وكَسْب المعاش مع شكاية الحاجة، وحفْظ المال بإخفائه عن الأعين، والتّعامي عن زَلّات المستبدّين، والتّصامم عن سماع ما يُهان به، والتّظاهر بفَقْد الحسّ أو تعطيله بالمخدّرات القوية كالأفيون والحشيش، وتعطيل العقل بالتّبالُه وستر العلم بالتّجاهل، والارتداء بالتّديُّن والرّياء، وتعويد اللسان على الزّلاقة في عبائر التّصاغر والتّملُّق، وعزو كُلّ خير إلى فضل المستبدّين حتّى إذا كان الخير طبيعياً نحو مطر السّماء، فعزوه إلى يُمْن الحُكّام أو دعاء الكُهّان. ويسند كُلّ شَرّ ولو من نوع التّسلُّط على الأعراض، إلى الاستحقاق من جانب الله. إلى غير ذلك من أحكام ذلك القانون، الذي رؤوس مسائله فقط تملّ القارئ فضلاً عن تفصيلاتها.

إنّ أخوف ما يخافه الأسير هو أنْ يظهر عليه أثر نعمة الله في الجسم أو المال، فتصيبه عين الجواسيس (وهذا أصل عقيدة إصابة العين)[218]! أو أنْ يظهر له شأن في علم أو جاه أو نعمة مهمة، فيسعى به حاسدوه إلى المستبدّ (وهذا أصل شرّ الحسد الذي يتعوّذ منه)! وقد يتحيّل الأسير على حفظ ماله الذي لا يمكنه إخفاؤه كالزوجة الجميلة، أو الدّابة الثّمينة، أو الدّار الكبيرة، فيحميها بإسناد الشّؤم، (وهذا أصل التّشاؤم بالأقدام والنّواصي والأعتاب).

ومن غريب الأحوال أنّ الأُسَراء يبغضون المستبدّ، ولا يقوون على استعمالهم معه البأس الطّبيعي الموجود في الإنسان إذا غضب،

---

(218) الحسد.

فيصرفون بأسهم في وجهة أخرى ظلماً : فَيُعَادُون من بينهم فئة مُستضعَفة ، أو الغرباء ، أو يظلمون نساءهم ونحو ذلك . ومَثَلُهم في ذلك مثل الكلاب الأهلية ، إذا أُريد منها الحراسة والشّراسة ، فأصحابها يربطونها نهاراً ويُطلقونها ليلاً فتصير شرسة عقورة، وبهذا التّعليل تُعَلّلُ جسارة الأُسَراء أحياناً في محارياتهم ، لا أنّها جسارة عن شجاعة. وأحياناً تكون جسارة الأُسَراء عن التّناهي في الجبانة أمام المستبدٌ الذي يسوقهم إلى الموت ، فيطيعونه انذعاراً كما تطيع الغنمة الذّئب فتهرول بين يديه إلى حيثُ يأكلها .

وقد اتّضح ممّا تقدّم أنّ التّربية غير مقصودة، ولا مقدورة في ظلال الاستبداد إلا ما قد يكون بالتّخويف من القوّة القاهرة ، وهذا النّوع يستلزم انخلاع القلوب لا تزكية النّفوس. وقد أجمع علماء الاجتماع والأخلاق والتّربية على أنّ الإقناع خير من التّرغيب فضلاً عن التّرهيب، وإنّ التّعليم مع الحريّة بين المعلّم والمتعلّم، أفضل من التّعليم مع الوقار، وأنّ التّعليم عن رغبة في التّكمُّل أرسخ من العلم الحاصل طمعاً في المكافأة، أو غَيْرة من الأقران. وعلى هذه القاعدة بَنَوا قولهم: إنّ المدارس تُقَلّلُ الجنايات لا السّجون، وقولهم: إنّ القصاص والمعاقبة قلّما يفيدان في زجر النَّفْس كما قال الحكيم العربي :

لا ترجع الأنفسُ عن غيِّها ... ما لم يَكُنْ منها لَهَا زاجِرُ(219)

ومَنْ يتأمّل جيداً في قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُولِي ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾(220) ملاحظاً أنّ معنى القصاص لغة : هو التّساوي مطلقاً لا

---

(219) البيت من البحر السّريع. ولم يُعرف قائله.

(220) البقرة : 179.

مقصوراً على المعاقبة بالمثل في الجنايات فقط، ويُدَقِّقُ النّظر في القرآن الكريم وسائر الكُتُب السّماوية، ويتبع مسالك الرُّسُل العظام - عليهم الصّلاة والسّلام - يرى[221] أنَّ الاعتناء في طريق الهداية فيها منصرف إلى الإقناع، ثمَّ إلى الأطماع عاجلاً أو آجلاً، ثمَّ إلى التّرهيب الآجل غالباً ومع تَرْك أبواب تُدلي إلى النّجاة.

ثمَّ إنَّ التّربية التي هي ضالَّة الأمم، وفَقْدُهَا هي المصيبة العظيمة، التي هي المسألة الاجتماعية؛ حيثُ الإنسان يكون إنساناً بتربيته، وكما يكون الآباء يكون الأبناء، وكما تكون الأفراد تكون الأمَّة، والتّربية المطلوبة هي التّربية المُرَتَّبة على إعداد العقل للتّمييز، ثمَّ على حُسن التّفهيم والإقناع، ثمَّ على تقوية الهمَّة والعزيمة، ثمَّ على التّمرين والتّعويد، ثمَّ على حُسْن القدوة والمثال، ثمَّ على المواظبة والإتقان، ثمَّ على التّوسُّط والاعتدال، وأنْ تكون تربية العقل مصحوبة بتربية الجسم، لأنَّهما متصاحبان صحَّة واعتلالاً، فإنَّه يقتضي تعويد الجسم على النّظافة وعلى تحمُّل المشاقّ، والمهارة في الحركات، والتّوقيت في النّوم والغذاء والعبادة، والتّرتيب في العمل وفي الرّياضة والرّاحة. وأنْ تكون تلكما التّربيتَيْن[222] مصحوبَتَيْن أيضاً بتربية النَّفْس على معرفة خالقها ومراقبته والخوف منه. فإذا كان لا مطمع في التّربية العامَّة على هذه الأصول بمانع طبيعة الاستبداد، فلا يكون لعقلاء المبتلين به إلا أنْ يسعوا أوَّلاً وراء إزالة المانع الضّاغط على العقول، ثمَّ بعد ذلك يعتنوا بالتّربية؛ حيثُ يمكنهم حينئذ أنْ ينالوها على توالي البطون، والله الموفّق.

---

(221) كذا في الأصل، والصّواب (يرَ) لأنّها جواب الشّرط الجازم (من).

(222) كذا في الأصل، والصّواب : التّربيتان.

الاستبداد والتَّرقّي

الحركة سُنَّةٌ عاملة في الخليقة دائبةٌ بين شخوص وهبوط. فالتَّرقّي هو الحركة الحيوية؛ أي حركة الشّخوص، ويقابله الهبوط وهو الحركة إلى الموت أو الانحلال أو الاستحالة أو الانقلاب.

وهذه السُّنَّة كما هي عاملة في المادة وأعراضها، عاملة أيضاً في الكيفيات ومُركَّباتها، والقول الشّارح لذلك آية: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾[215] وحديث: "ماتمَّ أمر إلا وبدا نَقْصُهُ" وقولهم: "التّاريخ يُعيد نفسه". وحُكْمهم بأنَّ الحياة والموت حَقَّان طبيعيان.

وهذه الحركة الجسمية والنّفسية والعقلية لا تقتضي السّير إلى النّهاية شخوصاً أو هبوطاً؛ بل هي أشبه بميزان الحرارة، كُلُّ ساعة في شأن، والعبرة في الحُكْم للوجهة الغالبة، فإذا رأينا آثار حركة التَّرقّي هي الغالبة على أفرادها، حَكَمْنا لها بالحياة، ومتى رأينا عكس ذلك قضينا عليها بالموت.

الأمَّة هي مجموعة أفراد يجمعها نسب أو وطن أو لغة أو دين، كما أنَّ البناء مجموع أنقاض، فحسبما تكون الأنقاض جنساً وجمالاً وقوَّة يكون البناء، فإذا ترقَّت أو انحطَّت الأمَّة تَرَقَّتْ أو انحطَّتْ هيئتها الاجتماعية،

(215) الرّوم: 19. في الأصل: ويخرج.

حتَّى إنَّ حالة الفرد الواحد من الأمَّة تُؤثِّر في مجموع تلك الأمَّة. كما إذا لو اختلَّت حجرة من حصن يختلُّ مجموعه وإنْ كان لا يشعر بذلك، كما لو وقفت بعوضة على طرف سفينة عظيمة أثقلتْهَا وأمالتْهَا حقيقة وإنْ لم يُدرَك ذلك بالمشاعر. وبعض السِّياسيين بنى على هذه القاعدة: أنَّه يكفي الأمَّة رقياً أنْ يجتهد كُلُّ فرد منها في ترقية نفسه بدون أنْ يفتكر في تَرَقِّي مجموع الأمَّة.

التَّرقِّي الحيوي الذي يتدرَّج فيه الإنسان بفطرته وهمَّته هو أوَّلاً: التَّرقِّي في الجسم صحَّة وتَلَذُّذاً، ثانياً: التَّرقِّي في القوَّة بالعلم والمال، ثالثاً: التَّرقِّي في النَّفْس بالخصال والمفاخر، رابعاً: التَّرقِّي بالعائلة استئناساً وتعاوناً، خامساً: التَّرقِّي بالعشيرة تناصراً عند الطَّوارئ، سادساً: التَّرقِّي بالإنسانية، وهذا منتهى التَّرقِّي.

وهناك نوع آخر من التَّرقِّي ويتعلَّق بالرّوح وبالكمال، وهو أنَّ الإنسان يحمل نفساً مُلهمة بأنَّ لها وراء حياتها هذه حياة أخرى يترقَّى بها على سُلَّم العدل والرّحمة والحسنات. فأهل الأديان - ماعدا أهل التّوراة - يؤمنون بالبعث أو التّناسخ، فيأتون بالعدل والرّحمة رجاء المكافأة أو خوف المجازاة، وهم من قبيل الطّبيعيين يعتبرون أنفسهم مَدينين للإنسانية بحفظها تاريخ الحياة الطّبيعية، فيلتزمون بخدمتها اهتماماً بحياتهم التّاريخية بحُسْن الذّكر أو قبحه.

وهذه التّرقّيات، على أنواعها السّتة، لا يزال الإنسان يسعى وراءها ما لم يعترضه مانع غالب يسلب إرادته، وهذا المانع إمَّا هو القَدَرُ المحتوم، المُسمَّى عند البعض بالعجز الطّبيعي، أو هو الاستبداد المشؤوم. على أنَّ

القَدَرَ يصدم سير التَّرقِّي لحة، ثمَّ يطلقه فيكرّ راقياً. وأما الاستبداد فإنَّه يقلب السّير من الـتَّرقِّي إلى الانحطاط، من التّقدُّم إلى التّأخُّر، من النّماء إلى الفناء، ويلازم الأمَّة ملازمة الغريم الشّحيح، ويفعل فيها دهراً طويلاً أفعاله التي تقدَّم وَصْفُ بعضها في الأبحاث السّابقة، أفعاله التي تبلغ بالأمَّة حطّة العجماوات فلا يهمها غير حفظ حياتها الحيوانية فقط، بل قد تبيح حياتها هذه الدّنيئة أيضاً الاستبداد إباحة ظاهرة أو خفية. ولا عار على الإنسان أنْ يختار الموت على الذّلِّ، وهذه سباع الطّير والوحوش إذا أُسرت كبيرة قد تأبى الغذاء حتَّى الموت.

وقد يبلغ فعل الاستبداد بالأمَّة أنْ يُحوِّل ميلها الطّبيعي من طَلَب التَّرقِّي إلى طَلَب التَّسَفُّل، بحيثُ لو دُفعت إلى الرّفعة لأَبتَ وتألَّمت كما يتألَّم الأجهر من النّور، وإذا أُلزمت بالحريَّة تشقى، وربما تفنى كالبهائم الأهلية إذا أُطلق سراحها. وعندئذ يصير الاستبداد كالعَلَق[216] يطيب له المقام على امتصاص دم الأمَّة، فلا ينفكُّ عنها حتَّى تموت ويموت هو بموتها.

وتوصف حركة التَّرقِّي والانحطاط في الشّؤون الحيوية للإنسان؛ أنَّها من نوع الحركة الدّودية، التي تحصل بالاندفاع والانقباض، وذلك أنَّ الإنسان يُولَدُ وهو أعجزُ حراكاً وإدراكاً من كُلِّ حيوان، ثمَّ يأخذ في السّير، تدفعه (الرغائب) النّفسية والعقلية وتقبضه (الموانع) الطّبيعية والمزاحمة. وهذا سرُّ أنَّ الإنسان يتنابه الخير والشّر. وهو سرُّ ما ورد في القرآن الكريم من ابتلاء الله النّاس بالخير وبالشر، وهو معنى ما ورد في الأثر بأنَّ الخير مربوط بذيل الشّر، والشّر مربوط بذيل الخير وهو المراد من أقوال الحكماء

(216) دود أسود يمتصُّ الدّم. يكون في الماء الآسن، إذا شربَتْهُ الدّابة علق بحلقها. مفرده علقة.

نحو: على قدر النّعمة تكون النّقمة، على قَدْر الهِمَمِ تأتي العزائم، بين السّعادة والشّقاء حرب سجال، العاقل مَنْ يستفيد من مصيبته، والكيِّس مَنْ يستفيد من مصيبته ومصيبة غيره، والحكيم مَنْ يبتهج بالمصائب ليقطف منها الفوائد، ما كان في الحياة لذّة لو لم يتخلّلها آلام.

فإذا تقرّر هذا فليعلم أيضاً أنّ سبيل الإنسان هو إلى الرّقي، مادام جناحا الاندفاع والانقباض فيه متوازيَيْن كتوازن الإيجابية والسّلبية في الكهربائية، وسبيله القهقرى إنْ غلبته الطّبيعة أو المزاحمة. ثمّ إنّ الاندفاع إذا غلب فيه العقلُ النَّفْسَ، كانت الوجهة إلى الحكمة، وإنْ غلبتْ النَّفْسُ العقلَ، كانت الوجهة إلى الزّيغ. أمّا الانقباض؛ فالمعتدل منه هو السّائق للعمل، والقوي منه مُهلِكٌ مُسكِنٌ للحركة، والاستبداد المشؤوم الذي نبحث فيه هو قابض ضاغط مسكن، والمبتلون به هم المساكين. نعم: أُسَراء الاستبداد أحَقُّ بوصف المساكين من عجزة الفقراء.

ولو ملك الفقهاء حريّة النّظر لخرجوا من الاختلاف في تعريف المساكين الذين جعل لهم الله نصيباً من الزّكاة فقالوا: هم عبيد الاستبداد، ولجعلوا كفّارات فَكّ الرّقاب تشمل هذا الرّقّ الأكبر.

أُسَراء الاستبداد حتّى الأغنياء منهم كُلّهم مساكين لا حراك فيهم، يعيشون مُنحطّين في الإدراك، مُنحطّين في الإحساس، مُنحطّين في الأخلاق. وما أظلم توجيه اللوم عليهم بغير لسان الرّأفة والإرشاد، وقد أبدع مَنْ شَبَّه حالتهم بدود تحت صخرة، فما أليق باللائمين أنْ يكونوا مشفقين يسعون في رفع الصّخرة ولو حتّاً بالأظافر ذرّة بعد ذرّة.

قد أجمع الحكماء على أنَّ أهمَّ ما يجب عمله على الآخذين بيد الأمَّة، الذين فيهم نسمة مروءة وشرارة حمية، الذين يعرفون ما هي وظيفتهم بإزاء الإنسانية، الملتمسين لإخوانهم العافية، أنْ يسعوا في رَفْع الضّغط عن العقول لينطلق سبيلها في النّمو فتُمَزِّق غيوم الأوهام التي تمطر المخاوف، شأن الطّبيب في اعتنائه أوَّلاً بقوَّة جسم المريض، وأنْ يكون الإرشاد متناسباً مع الغفلة خِفَّةً وقوَّة: كالساهي يُنَبِّهُه الصّوت الخفيف، والنّائم يحتاج إلى صوت أقوى، والغافل يلزمه صياح وزَجْرٌ. فالأشخاص من هذا النّوع الأخير، يقتضي لإيقاظهم الآن بعد أنْ ناموا أجيالاً طويلة أنْ يسقيهم النّطاسي البارع مُرّاً من الزّواجر والقوارس عَلَّهم يفيقون، وإلا فهم لا يفيقون، حتَّى يأتي القضاء من السّماء. : فتبرق السّيوف، وترعد المدافع وتمطر البنادق، فحينئذ يصحون، ولكنْ؛ صحوة الموت!.

بعض الاجتماعيين في الغرب يرون أنَّ الدِّين يُؤثِّرُ على التَّرقِّي الإفرادي، ثمَّ الاجتماعي تأثيراً مُعَطِّلاً كفعل الأفيون في الحسِّ، أو حاجباً كالغيم يغشى نور الشّمس. وهناك بعض الغُلاة يقولون: الدِّين والعقل ضدَّان مُتزاحمان في الرّؤوس، وإنَّ أوَّل نقطة من التّرقِّي تبتدئ عند آخر نقطة من الدِّين. وإنَّ أصدق ما يُستَدَلُّ به على مرتبة الرّقي والانحطاط في الأفراد أو في الأمم الغابرة والحاضرة، هو مقياس الارتباط بالدِّين قوَّة وضعفاً.

هذه الآراء كُلُّها صحيحة لا مجال للرّد عليها، ولكنْ؛ بالنّظر إلى الأديان الخرافية أساساً أو التي لم تقف عند حَدِّ الحكمة، كالدِّين المبني على تكليف العقل بتصوُّر أنَّ الواحد ثلاثة والثّلاثة واحد. لأنَّ مُجرَّد الإذعان لما

يعقل برهان على فساد بعض مراكز العقل، ولهذا أصبح العالَمُ المتمدِّنَ يَعُدُّ الانتساب إلى هذه العقيدة من العار؛ لأنَّه شعار الحمق.

أمَّا الأديان المبنية على العقل المحض كالإسلام الموصوف بدين الفطرة، ولا أعني بالإسلام ما يدين به أكثر المسلمين الآن، إنَّما أريد بالإسلام: دين القرآن؛ أيّ الدِّين الذي يقوى على فَهْمِهِ من القرآن كُلُّ إنسان غير مُقَيَّد الفكر بتفصُّح زيد أو تحكُّم عمرو.

فلا شك أنَّ الدِّين إذا كان مبنياً على العقل، يكون أفضل صارف للفكر عن الوقوع في مصائد المخرِّفين، وأنفع وازع يضبط النَّفْس من الشَّطَط، وأقوى مُؤثِّر لتهذيب الأخلاق، وأكبر معين على تحمُّل مشاقّ الحياة، وأعظم مُنَشِّط على الأعمال المهمَّة الخطرة. وأَجَلَّ مُثَبِّت على المبادئ الشّريفة، وفي النّتيجة يكون أصحّ مقياس يُستَدَلُّ به على الأحوال النّفسية في الأمم والأفراد رقياً وانحطاطاً.

هذا القرآن الكريم إذا أخذناه وقرأناه بالتّروِّي في معاني ألفاظه العربية وأسلوب تركيبه القرشي، مع تَفَهُّم أسباب نزول آياته وما أشارت إليه، ومع التّبصُّر في مقاصده الدّقيقة وتشريعه السّامي، ومع أخذ بعض التّوضيحات من السُّنَّة العملية النّبوية أو الإجماع إنْ وُجدا، وقلما يوجدان، فحينئذ لا نرى فيه من أوّله إلى آخره غير حِكَمٍ يتلقَّاها العقل بالإجلال والإعظام، إلى درجة انقياد العقل طوعاً أو كرهاً للإيمان إجمالاً بأنَّ تلك الحِكَمَ حِكَمٌ عزيزة إلهية، وأنَّ الذي أنزلها الله على قلبه هو أفضل مَنْ أرسله الله مُرشداً لعباده.

وتوضيح ذلك: أنَّ النّاظر في القرآن حقّ النّظر يرى أنَّه لا يُكلِّف الإنسان قطّ بالإذعان لشيء فوق العقل، بل يُحذِّره وينهاه من الإيمان اتِّباعاً

لرأي الغير أو تقليداً للآباء. ويراه طافحاً بالتّنبيه إلى إعمال الإنسان فكره ونظره في هذه الكائنات وعظيم انتظامها، ثمّ الاستدلال بذلك إلى أنّ لهذه الكائنات صانعاً أبدعها من العدم، ثمّ الانتقال إلى معرفة الصّفات التي يستلزم العقل أنْ يكون هذا الصّانع متّصفاً بها، أو منزّهاً عنها، ثمّ يرى القرآن يُعَلّم الإنسان بعض أعمال وأحكام وأوامر ونواهي كُلّها لا تبلغ المائة عدداً، وكُلّها بسيطة معقولة، إلا قليلاً من الأمور التّعبُّدية التي شُرِّعت لتكون شعاراً يعرف به المسلم أخاه، أو يستطلع من خلال قيامه بها أو تهاونه فيها أخلاقه، فيستدلّ مثلاً بالتّكاسل عن الصّلاة على فَقْد النّشاط، وبترك الصّوم على عدم الصّبر، وبالسُّكْر على غلبة النَّفْس العقل ونحو ذلك.

وكفى بالإسلامية رُقيّاً في التّشريع، رقيّها بالبشر إلى منزلة حصرها أسارة[217] الإنسان في جهة شريفة واحدة وهي (الله)، وعتقها عقلَ البشر عن تَوَهُّم وجود قوّة ما، في غير الله، من شأنها أنْ تأتي للإنسان بخير ما، أو تدفع عنه شراً ما. فالإسلامية تجعل الإنسان لا يرجو ولا يهاب من رسول أو نبيّ، أو ملك أو فلك، أو وَليّ أو جنيّ، أو ساحر أو كاهن، أو شيطان أو سلطان.

وأعظِم بهذا التّعليم الذي يرمي الإنسان عن عاتقه جبالاً من الخوف والأوهام والخيالات، جبالاً اعتقلها منذ كان يسرح مع الغيلان، أو ورثها من أبيه آدم الذي طغاه شيطان النَّفْس. أوَ ليس العتيق[218] من الأوهام يصبح صحيح العقل، قويّ الإرادة، ثابت العزيمة، قائده الحكمة، سائقه

---

(217) عبودية.

(218) الذي يُعتق.

الوجدان، فيعيش حرّاً، فرحاً صبوراً فخوراً. لا يبالي حتّى بالموت لعلمه بالسّعادة التي يستقبلها، التي يُمَثِّلُها له القرآن بالجنان، فيها الرّوح والرّيحان، والحور والغلمان، فيها كلما تشتهي النَّفْس وتقرّ به العينان؟!

وأظنُّ أنَّ هؤلاء المنكرين فائدة الدِّين، ما أنكروا ذلك إلا من عدم اطّلاعهم على دين صحيح مع يأسهم من إصلاح ما لديهم، عجزاً عن مقاومة أنصار الفساد. وإذا نظرنا في أنَّ هؤلاء أنفسهم هم في آنٍ واحد يُشَدِّدون النّكير على الدِّين من جهة، قائلين: إنَّ ضرره أكبر من نفعه، ويهيجون من جهة أخرى مُؤثِّرات أدبية وهمية محضاً يرون أنَّه لابُدَّ منه في بناء الأمم، وذلك مثل حُبٍّ الوطن وخيانته، وحبّ الإنسانية والإساءة إليها والسّمعة الحسنة وعكسها، والذّكر التّاريخي بالخير أو الشّر ونحو ذلك ممّا هو لا شيء في ذاته، ولا شيء أيضاً بالنّسبة إلى تأثير طاعة الله والخوف منه، لأنَّ (الله) حقيقة لا ريب فيها، بل ولا خلاف إلا في الأسماء بين (الله) وبين (مادة) أو (طبيعة). ولولا أنَّ المادِّيِّين والطّبيعيِّين يأبون الاسترسال في البحث في صفات ما يُسمّونه مادّة أو طبيعة، لالتقوا ـ ولا شك ـ مع الإسلام في نقطة واحدة، فارتفع الخلاف العلمي وأسلم الكُلّ لله.

وعلى ذكر اللوم الإرشادي لاح لي أنْ أُصَوِّر الرّقي والانحطاط في النَّفْس، وكيف ينبغي للإنسان العاقل أنْ يعاني إيقاظ قومه، وكيف يرشدهم إلى أنّهم خُلقوا لغير ما هم عليه من الصّبر على الذّلّ والسّفالة، فَيُذكّرهم، ويُحرّك قلوبهم، ويُناجيهم، ويُنذرهم بنحو الخطابات الآتية:

- يا قومُ: ينازعني واللهِ الشّعور، هل موقفي هذا في جَمْعٍ حَيٍّ فأُحيّيه بالسّلام؟ أم أنا أخاطب أهل القبور فأُحييهم بالرّحمة؟ يا هؤلاء، لستُم

بأحياء عاملين، ولا أموات مستريحين، بل أنتم بَيْنَ بَيْنَ: في برزخ يُسمّى التّنبُّت، ويصحُّ تشبيهه بالنّوم! يا ربّاه: إنّي أرى أشباح أناس يُشبهون ذوي الحياة، وهم في الحقيقة موتى لا يشعرون، بل هم موتى؛ لأنّهم لا يشعرون".

"يا قوم: هداكم الله، إلى متى هذا الشّقاء المديد والنّاس في نعيم مقيم، وعزٍّ كريم، أ فلا تنظرون؟ وما هذا التّأخُّر، وقد سبقتْكُم الأقوام ألوف مراحل، حتّى صار ما بعد ورائكم أماماً[219]! أ فلا تتبعون؟ وما هذا الانخفاض والنّاس في أوج الرّفعة، أ فلا تغارون؟ أناشدكم الله؛ هل طابت لكم طول غيبة الصّواب عنكم؟ أم أنتم كأهل ذلك الكهف ناموا ألف عام ثمّ قاموا، وإذا بالدّنيا غير الدّنيا، والنّاس غير النّاس، فأخذتهم الدّهشة والتزموا السّكون؟".

"يا قومُ: وقاكم الله من الشّر، أنتم بعيدون عن مفاخر الإبداع وشرف القدوة، مُبتلون بداء التّقليد والتّبعية في كُلِّ فكر وعمل، وبداء الحرص على كُلِّ عتيق كأنّكم خُلقتم للماضي لا للحاضر: تشكون حاضركم وتسخطون عليه، ومن لي أنْ تدركوا أنَّ حاضركم نتيجة ماضيكم، ومع ذلك أراكم تُقَلِّدون أجدادكم في الوساوس والخرافات والأمور السّافلات فقط، ولا تُقَلِّدونهم في محامدهم! أين الدّين؟ أين التّربية؟ أين الإحساس؟ أين الغَيْرة؟ أين الجسارة؟ أين الثّبات؟ أين الرّابطة؟ أين المَنَعَة؟ أين الشّهامة؟ أين النّخوة؟ أين الفضيلة؟ أين المواساة؟ هل تسمعون؟ أم أنتم صُمٌّ لاهون؟"

"يا قومُ: عافاكم الله، إلى متى هذا النّوم؟ وإلى متى هذا التَّقَلُّب على فراش البأس ووسادة اليأس؟ أنتم مُفتَّحةٌ عيونكم ولكنكم نيام، لكم أبصار

---

(219) في (ط. ق): (ما بعد وراءكم وراء).

ولكنكم لا تنظرون، وهكذا لا تعمى الأبصار، ولكنْ؛ تعمى القلوب التي في الصّدور! لكم سَمْعٌ ولسانٌ ولكنكم صُمٌّ بُكْمٌ، ولكم شبيه الحسِّ، ولكنكم لا تشعرون به ما هي اللذائذ حقّاً وما هي الآلام، ولكم رؤوس كبيرة ولكنها مشغولة بمزعجات الأوهام والأحلام، ولكم نفوس حَقُّها أنْ تكون عزيزة، ولكنْ؛ أنتم لا تعرفون لها قَدْراً ومقاماً".

"يا قومُ: قَاتلَ اللهُ الغباوةَ، فإنَّها تملأ القلوب رعباً من لا شيء، وخوفاً من كُلِّ شيء، وتفعم الرّؤوس تشويشاً وسخافة. أليست هي الغباوة جعلتكم كأنَّكم قد مَسَّكم الشّيطان، فتخافون من ظلِّكم وترهبون من قوتكم، وتُجيِّشون منكم عليكم جيوشاً ليقتل بعضكم بعضاً؟ تترامون على الموت خوف الموت، وتحبسون - طول العمر - فكركم في الدّماغ ونطقكم في اللسان وإحساسكم في الوجدان خوفاً من أنْ يسجنكم الظّالمون، وما يسجنون غير أرجلكم أياماً، فما بالكم يا أحلاس[220] النّساء مع الذّلِّ تخافون أنْ تصيروا جُلاَّس الرّجال في السّجون؟".

"يا قومُ: أُعيذكم بالله من فساد الرّأي، وضياع الحزم، وفَقْدِ الثّقة بالنَّفس، وتَرْكِ الإرادة للغير، فهل ترون أثراً للرّشد في أنْ يُوكِّل الإنسان عنه وكيلاً ويُطلق له التّصرُّف في ماله وأهله، والتّحكُّم في حياته وشرفه والتّأثير على دينه وفكره، مع تسليف هذا الوكيل العفو عن كُلِّ عبث وخيانة وإسراف وإتلاف؟ أم ترون أنَّ هذا النّوع من الجنة به يظلم الإنسان نفسه؟ هل خلق الله لكم عقلاً لتفهموا به كُلَّ شيء؟ أم لتهملوه كأنَّه لا شيء؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[221].

---

(220) الأحلاس: الملازمون (ك).

(221) يونس: 44.

" يا قومُ: شفاكم الله، قد ينفع اليوم الإنذار واللوم، وأما غداً إذا حَلَّ القضاء، فلا يبقى لكم غير النّدب والبكاء. فإلى متى هذا التّخادع والتّخاذل؟ وإلى متى هذا الإهمال؟ هل طاب لكم النّوم على الوسادة اللينة، وسادة الخمول؟ أم طاب لكم السّكون وتَوَدُّون لو تسكنون القبور؟ أم عاهدتُم أنفسكم أنْ تَصِلوا غفلة الحياة بالممات، فلا تفيقوا من السّبات قبل صباح يوم النّشور، يوم تعلو السّيوف رقابكم وتصمي المدافع آذانكم فتمسون الأذلاء حقّاً، وحقّ لكم أنْ تذلوا؟ ".

" يا قومُ: رحمكم الله، ما هذا الحرص على حياة تعيسة دنيئة لا تملكونها ساعة! ما هذا الحرص على الرّاحة الموهومة وحياتكم كُلُّها تعب ونصب! هل لكم في هذا الصّبر فخرٌ أو لكم عليه أجر؟ كلا؛ واللهِ ساء ما تتوهّمون، ليس لكم إلا القهر في الحياة، وقبيح الذّكر بعد الممات؛ لأنّكم ما أفدتُم الوجود شيئاً، بل أتلفتُم ما ورثتُم عن السّلف وصرتُم بئس الواسطة للخَلَف. ألستُم يا ناس مديونين للأسلاف بكُلٍّ ما أنتم فيه من التّرقّي عن إنسان الغابات؟ فإذا لم تكونوا أهلاً للمزيد فكونوا أهلاً للحِفْظِ، وهذه العجماوات تنقل رقيها لنسلها بأمانة ".

" يا قومُ: حماكم الله، قد جاءكم المستمتعون من كُلِّ حدب ينسلون، فإنْ وجدوكم أيقاظاً عاملوكم كما يتعامل الجيران ويتجامل الأقران، وإنْ وجدوكم رقوداً لا تشعرون سلبوا أموالكم، وزاحموكم على أرضكم، وتحيّلوا على تذليلكم، وأوثقوا ربطكم، واتّخذوكم أنعاماً، وعندئذ لو أردتُم حراكاً لا تقوون، بل تجدون القيود مشدودة والأبواب مسدودة لا نجاة ولا مخرج ".

" يا قومُ: هَوَّنَ الله مصابكم، تشكون من الجهل ولا تُنفقون على التّعليم نصف ما تصرفون على التّدخين، تشكون من الحُكّام، وهم اليوم منكم، فلا تسعون في إصلاحهم، تشكون فَقْدَ الرّابطة، ولكم روابط من وجوه لا تُفكِّرون في إحكامها. تشكون الفقر ولا سبب له غير الكسل. هل ترجون الصّلاح وأنتم يُخادع بعضكم بعضاً ولا تخدعون إلا أنفسكم؟. ترضون بأدنى المعيشة عجزاً تُسمّونه قناعة، وتهملون شؤونكم تهاوناً تُسمّونه توكُّلاً! تُموِّهون عن جهلكم الأسباب بقضاء الله وتدفعون عار المُسبَّبات بعطفها على القَدَرَ، ألا والله ما هذا شأن البشر! ".

" يا قومُ: سامحكم الله، لا تظلموا الأقدار، وخافوا غَيْرة المنعم الجبَّار. ألم يخلقكم أكفاءاً أحراراً طلقاء لا يثقلكم غير النّور والنّسيم، فأبيتُم إلا أنْ تحملوا على عواتقكم ظلم الضّعفاء وقهر الأقوياء؟! لو شاء كبيركم أنْ يُحمِّل صغيركم كرةَ الأرض لحنى له ظهره، ولو شاء أنْ يركبه لطأطأ له رأسه. ماذا استفدتُم من هذا الخضوع والخشوع لغير الله؟ وماذا ترجون من تقبيل الأذيال والأعتاب وخفض الصّوت ونكس الرّأس؟ أليس منشأ هذا الصّغار كُلّه هو ضعف ثقتكم بأنفسكم، كأنّكم عاجزون عن تحصيل ما تقوم به الحياة، وحسب الحياة لُقيمات من نبات يقمن صلع ابن آدم، وقد بذلها الخلّاق لأضعف الحيوان، هذه الوحوش تجد فرائسها أينما حلّت، وهذه الهوام لا تفقد قوتها؟ فما بال الرّجل منكم يضع نفسه مقام الطّفل الذي لا ينال من الكبير مراده إلا بالتّذلُّل والبكاء، أو موضع الشّيخ الفاني الذي لا ينال حاجته إلا بالتّملُّق والدّعاء؟ ".

" يا قومُ: رَفَعَ الله عنكم المكروه، ما هذا التّفاوت بين أفرادكم وقد خَلَقَكم ربكم أكفاء في البنية، أكفاء في القوّة، أكفاء في الطّبيعة، أكفاء في

الحاجات، لا يفضل بعضكم بعضاً إلا بالفضيلة، لا ربوبية بينكم ولا عبودية؟ واللّه؛ ليس بين صغيركم وكبيركم غير برزخ من الوهم. ولو درى الصَغير بوهمه، العاجز بوهمه، ما في نفس الكبير المُتَألّه من الخوف منه لزال الإشكال وقضي الأمر الذي فيه تشقون! يا أعزاء الخلقة، جهلاء المقام، كان النّاس في دور الهمجية، فكان دُهاتهم بينهم آلهة وأنبياء، ثمَّ ترقَّى النّاس، فهبط هؤلاء لمقام الجبابرة والأولياء، ثمَّ زاد الرّقي فانحطَّ أولئك إلى مرتبة الحُكّام والحكماء، حتَّى صار النّاس ناساً فزال العَمَاء، وانكشف الغطاء، وبان أنَّ الكُلَّ أكفاء. فأناشدكم الله في أيّ الأدوار أنتم؟ ألا تُفكّرون؟".

"يا قومُ: جعلكم الله من المهتدين، كان أجدادكم لا ينحنون إلا ركوعاً لله، وأنتم تسجدون لتقبيل أرجل المُنعِمين ولو بلقمة مغموسة بدم الإخوان، وأجدادكم ينامون في قبورهم مستوين أعزاء، وأنتم أحياء معوجَّة رقابكم أذلاء! البهائم تودُّ لو تنتصب قاماتها وأنتم من كثرة الخضوع كادت تصير أيديكم قوائم. النّبات يطلب العلو وأنتم تطلبون الانخفاض. لَفَظَتْكُم الأرض لتكونوا على ظهرها وأنتم حريصون على أنْ تنغرسوا في جوفها، فإنْ كانت بطن الأرض بغيتكم، فاصبروا قليلاً لتناموا فيها طويلاً".

"يا قومُ: ألهمكم اللهُ الرّشدَ، متى تستقيم قاماتكم وترتفع من الأرض إلى السّماء أنظاركم، وتميل إلى التّعالي نفوسكم، فيشعر أحدكم بوجوده في الوجود، فيعرف معنى الأنانية ليستقلَّ بذاته لذاته، ويملك إرادته واختياره ويثق بنفسه وربِّه، لا يَتَّكِلُ على أحد من خَلْق الله اتّكال النّاقص في الخَلْق على الكامل فيه، أو اتّكال الغاصب على مال الغافل أو الكُلِّ على

سعي العامل، بل يرى أحدكم نفسه إنساناً كريماً يعتمد على المبادلة والتّعاوض فيسلف، ثمَّ يستوفي، ويستدين على أنْ يفي، بل ينظر في نفسه أنّه هو الأمَّة وحده، وما أجدر بأحدكم أنْ يعمل لدنياه بنفسه لنفسه، فلا يَتَّكِل على غيره، كما يعمل الإنسان ليعبد الله بشخصه لا ينيب عنه غيره؟ فإذا فعلتُم ذلك أظهرَ الله بينكم ثمرة التّضامن بلا اشتراط، والتّقاضي بلا محاشرة، فتصيرون بنعمة الله إخواناً".

"يا قومُ: أبْعَدَ الله عنكم المصائب وبَصَّرَكُم بالعواقب. إنْ كانت المظالم غَلَّت أيديكم، وضَيَّقَتْ أنفسكم، حتَّى صغرت نفوسكم، وهانت عليكم هذه الحياة وأصبحت لا تساوي عندكم الجهد والجدّ وأمسيتُم لا تبالون أ تعيشون أم تموتون، فهلا أخبرتموني لماذا تُحكِّمون فيكم الظّالمين حتَّى في الموت؟ أ ليس لكم من الخيار أنْ تموتوا كما تشاؤون، لا كما يشاء الظّالمون؟ هل سَلَبَ الاستبداد إرادتكم حتَّى في الموت؟ كلا والله: إنْ أنا أحببتُ الموت أموتُ كما أحبُّ، لئيماً أو كريماً، حتفاً أو شهيداً[222]، فإنْ كان الموت ولابُدَّ، فلماذا الجبانة؟ وإنْ أردتُ الموتَ، فليَكُنْ اليوم قبل الغد، وليَكُنْ بيدي لا بيد عمرو. أ ليس:

وطعم الموت في أمرٍ صغيرٍ كطعم الموت في أمرٍ عظيمِ[223]

"يا قومُ: أناشدكم الله، ألا أقول حقّاً إذا قلتُ إنّكم لا تحبُّون الموت، بل تنفرون منه، ولكنكم تجهلون الطّريق فتهربون من الموت إلى الموت، ولو اهتديتُم إلى السّبيل لعلمتُم أنَّ الهربَ من الموت موتٌ، وطَلَبَ الموت

(222) على فراش المنزل.

(223) البيت من البحر الوافر، وهو للمتنبي.

حياةٌ[224]، ولعرفتُم أنَّ الخوف من التّعب تعبٌ، والإقدامَ على التّعب راحةٌ، ولَفَطِنْتُم إلى أنَّ الحريَّة هي شجرة الخلد وسُقياها قطرات من الدّم الأحمر المسفوح، والأسارة هي شجرة الزّقوم، وسُقياها أنهر من الدّم الأبيض؛ أي الدّموع، ولو كبرت نفوسكم لتفاخرتُم بتزيين صدوركم بورد الجروح لا بوسامات الظّالمين؟!".

"يا قومُ: وأعني منكم المسلمين،.. أيها المسلمون: إنِّي نشأتُ وشبتُ وأنا أفكر في شأننا الاجتماعي، عسى أهتدي لتشخيص دائنا، فكنتُ أتقصَّى السّبب بعد السّبب، حتَّى إذا وقعتُ على ما أظنُّه عاماً، أقول: لعلَّ هذا هو جرثومة الدّاء، فأتعمَّق فيه تمحيصاً وأُحَلِّله تحليلاً، فينكشف التّحقيق عن أنَّ ما قام في الفكر هو سبب من جملة الأسباب، أو هو سبب فرعي لا أصلي، فأخيب وأعود إلى البحث والتّنقيب. وطالما أمسيتُ وأصبحتُ أُجهد الفكر في الاستقصاء، وكثيراً ما سعيتُ وسافرتُ لأستطلعَ آراء ذوي الآراء، عسى أهتدي إلى ما يشفى صدري من آلام بحث أتعبني به ربِّي. وآخر ما استقرَّت عليه سفينة فكري هو:

إنَّ جرثومة دائنا هي خروج ديننا عن كونه دين الفطرة والحكمة، دين النِّظام والنّشاط، دين القرآن الصّريح البيان، إلى صيغة أنَّا جعلناه دين الخيال والخبال، دين الخلل والتّشويش، دين البدَع والتّشديد، دين الإجهاد. وقد دَبَّ فينا هذا المرض منذ ألف عام، فتمكَّنَ فينا وأثَّر في كُلِّ شؤوننا، حتَّى بلغ فينا استحكام الخلل في الفكر والعمل أننا لا نرى في

(224) إشارة إلى المثل العربي : (احرصْ على الموت تُوهبْ لك الحياة).

الخالق - جَلَّ شأنه - نظاماً فيما اتَّصف، نظاماً فيما قضى، نظاماً فيما أمر، ولا نطالب أنفسنا فضلاً عن آمرنا أو مأمورنا بنظام وترتيب واطّراد ومثابرة.

وهكذا أصبحنا واعتقادنا مُشوَّش، وفكرنا مُشوَّش، وسياستنا مُشوَّشة، ومعيشتنا مُشوَّشة. فأين منا والحالة هذه؛ الحياة الفكرية، الحياة العملية، الحياة العائلية، الحياة الاجتماعية، الحياة السّياسية؟!".

"يا قومُ: قد ضيَّع دينَكم ودنياكم سَاسَتُكُم الأوَّلون وعلماؤُكم المنافقون، وإنِّي أرشدكم إلى عمل إفرادي لا حرج فيه علماً ولا عملاً:
أليس بين جنبَيْ كُلِّ فرد منكم وجدان يميز الخير من الشّر والمعروف من المنكر ولو تمييزاً إجمالياً؟ أما بلغكم قول مُعلِّم الخير نبيكم الكريم عليه أفضل الصّلاة والتّسليم: "لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر أو ليُسَلِّطَنَّ الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم"[225]، وقوله "مَنْ رأى منكم منكراً فليُغيِّره بيده، وإنْ لم يستطعْ فبلسانه، وإنْ لم يستطعْ فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"؟![226]

"وأنتم تعلمون إجماع أئمَّة مذاهبكم كُلِّها على أنَّ أنكر المنكرات بعد الكُفْر هو الظّلم الذي فَشَا فيكم، ثمَّ قتل النّفس، ثمَّ، وثمَّ، . . وقد أوضح العلماء أنَّ تغيير المنكر بالقلب هو بغض المُتَلبِّس فيه بغضاً في الله. بناءً عليه؛

(225) لفظ الحديث: (أو ليُسَلِّطَنَّ الله عليكم شراركم، ثمَّ يدعوا خياركم، فلا يستجيب لهم) رواه البزّاز عن عمر والطبراني عن أبي هريرة، وسندهما ضعيف. وللترمذي من حديث حذيفة نحوه إلا أنّه قال: (أو ليوشكنَّ الله أنْ يبعث عليكم عقاباً منه، ثمَّ تدعونه فلا يستجيب لكم) وقال: حديث حسن. ا. هـ.

(226) رواه أحمد ومسلم والأربعة عن أبي سعيد.
وجاء في الأصل مرسوماً: فإنْ لم يستطيع.

فَمَنْ يعامل الظّالم أو الفاسق غير مُضطر، أو يجامله ولو بالسّلام، يكون قد خسر أضعف الإيمان والعياذ بالله".

" ولا أظنكم تجهلون أنَّ كلمة الشّهادة، والصّوم والصّلاة، والحج والزّكاة، كُلّها لا تغني شيئاً مع فَقْدِ الإيمان، إنَّما يكون القيام حينئذ بهذه الشّعائر، قياماً بعادات وتقليدات وهوسات تضيع بها الموال والأوقات".

" بناءً عليه؛ فالدِّين يُكَلِّفُكُم إنْ كنتم مسلمين، والحكمة تُلزِمكم إنْ كنتُم عاقلين: أنْ تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر جهدكم، ولا أقلّ في هذا الباب من إبطانكم البغضاء للظّالمين والفاسقين، وأظنُّكم إذا تأمَّلتُم قليلاً ترون هذا الدّواء السّهل المقدور لكُلِّ إنسان منكم، يكفي لإنقاذكم ممَّا تشكون. والقيام بهذا الواجب مُتَعَيِّن على كُلِّ فرد منكم بنفسه، ولو أهمله كافَّة المسلمين. ولو أنَّ أجدادكم الأوَّلين قاموا به لما وصلتُم إلى ما أنتُم عليه من الهوان. فهذا دينكم، والدِّين ما يدين به الفرد لا ما يدين به الجَمْعُ، والدِّين يقينٌ وعملٌ، لا علمٌ وحِفْظٌ في الأذهان. أليس من قواعد دينكم فرض الكفاية وهو أنْ يعمل المسلم ما عليه غير مُنتظرٍ غيره؟!"

" فأناشدكم اللّهَ يا مسلمين: أنْ لا يغرَّكم دِين لا تعملون به وإنْ كان خير دين، ولا تغرَّنكم أنفسكم بأنَّكم أمَّة خير أو خير أمَّة، وأنتم المتواكلون المقتصرون على شعار: لا حول ولا قوَّة إلا بالله العلي العظيم. ونِعْمَ الشّعار شعار المؤمنين، ولكنْ؛ أين هم؟ إني لا أرى أمامي أمَّة تعرف حقَّاً معنى لا إله إلا الله، بل أرى أمَّة خبلتْهَا عبادة الظّالمين!".

"ياقومُ: وأعني بكم النّاطقين بالضّاد من غير المسلمين، أدعوكم إلى تناسي الإساءات والأحقاد، وما جناه الآباء والأجداد، فقد كفى ما

فعل ذلك على أيدي المثيرين ، وأجلُكم من أنْ لا تهتدوا لوسائل الاتِّحاد وأنتُم المهتدون السّابقون. فهذه أمم أوستريا[227] وأمريكا قد هداها العلم لطرائق شتَّى وأصول راسخة للاتِّحاد الوطني دون الدِّيني ، والوفاق الجنسي[228] دون المذهبي ، والارتباط السّياسي دون الإداري. فما بالنا نحن لا نفتكر في أنْ نتبع إحدى تلك الطّرائق أو شبهها. فيقول عقلاؤنا لمثيري الشّحناء من الأعجام[229] والأجانب[230] : دعونا يا هؤلاء نحن نُدَبِّرُ شأننا ، نتفاهم بالفصحاء ، ونتراحم بالإخاء ، ونتواسى في الضّراء ، ونتساوى في السّراء.

دعونا نُدَبِّرُ حياتنا الدّنيا ، ونجعل الأديان تحكم في الأخرى فقط. دعونا نجتمع على كلمات سواء ، ألا وهي : فلتحي[231] الأمّة ، فليحي الوطن ، فلنحي طلقاء أعزاء".

"أدعوكم وأخصّ منكم النُّجَباء للتّبصُّر والتّبصير فيما إليه المصير ، أليس مطلق العربي أخفّ استحقاراً لأخيه من الغربي؟ هذا الغربي قد أصبح ماديّاً لا دين له غير الكسب ، فما تظاهرُهُ مع بعضنا بالإخاء الدِّيني إلا مُخادعة وكَذِباً. هؤلاء الفرنسيس يطاردون أهل الدِّين ، ويعملون على أنَّهم يتناسونه ، بناءً عليه ؛ لا تكون دعواهم الدِّين في الشّرق ، إلا كما يُغَرِّدُ الصّياد وراء الأشباك!

(227) النّمسا.

(228) الوطني أو القومي.

(229) العثمانيون.

(230) الفرنسيون والإنكليز.

(231) صواب الكلمة بالألف الممدودة : فلتحيا.

لو كان للدِّين تأثير عند الغربي لما كانت البغضاء بين اللاتين والسّكسون، بل بين الطّليان والفرنسيس، ولما كانت بين الألمان والفرنسيين الغربيين.

الغربي أرقى من الشرقي علماً وثروةً ومنعةً، فَلَهُ على الشرقيين إذا واطنهم السيادة الطبيعية. أمَّا الشرقيون فيما بينهم، فمتقاربون لا يتغابنون.

الغربي يعرف كيف يسوس، وكيف يتمتَّع، وكيف يأسر، وكيف يستأثر. فمتى رأى فيكم استعداداً واندفاعاً لمجاراته أو سبقه، ضغط على عقولكم لتبقوا وراءه شوطاً كبيراً كما يفعل الرّوس مع البولونيين، واليهود والتّاتار، وكذلك شأن كُلِّ المستعمرين. الغربي مهما مَكَثَ في الشّرق لا يخرج عن أنّه تاجر مُستمتع، فيأخذ فَسَائلَ الشّرق ليغرسها في بلده التي لا يفتأ يفتخر برياضها ويحنُّ إلى أرياضها.

قد مضى على الهولانديين في الهند وجزائرها، وعلى الرّوس في قاوزان، مثل ما أقمنا في الأندلس، ولكنْ؛ ما خدموا العلم والعمران بعشر ما خدمناها، ودخل الفرنساويون الجزائر منذ سبعين عاماً[232]، ولم يسمحوا بعد لأهلها بجريدة واحدة تُقرأ. نرى الإنكليزي في بلادنا يُفَضِّل قديد بلاده، وسمك بحاره، على طريِّ لحمنا وسمكنا. فهلا والحالة هذه تبصرون يا أولي الألباب. ؟ .

وأنتَ أيها الشّرق الفخيم رعاكَ اللّه. ماذا دهاكَ؟ ماذا أقعدكَ عن مسراكَ؟ أليست أرضكَ تلك الأرض ذات الجنان والأفنان، ومنبت العلم والعرفان، وسماؤك تلك السّماء مصدر الأنوار، ومهبط الحكمة والأديان،

---

(232) أي في عام (1830م).

وهواؤك ذاك النّسيم العدل، لا العواصف والضّباب. وماؤك ذاك العذب الغدق[233]، لا الكدر ولا الأجاج؟ ·[234]

· رعاكَ اللّه يا شرق، ماذا أصابكَ فأخلَّ نظامك، والدّهر ذاك الدّهر ما غيَّر وضعكَ، ولا بَدَّلَ شرعه فيكَ؟ ألم تزل مناطقكَ هي المعتدلة، وبنوكَ هم الفائقون فطرةً وعدداً؟ أليس نظام الله فيكَ على عهده الأوّل، ورابطة الأديان في بنيكَ مُحكمة قويمة، مُؤسَّسة على عبادة الصّانع الوازع؟ أليست معرفة المنعم حقيقة راهنة أشرقت فيكَ شمسها، أيّدت بها عزّ النّفس، وأحكمتَ بها حُبَّ الوطن وحُبَّ الجنس؟ · .

· رعاك اللّه يا شرق، ماذا عراكَ وسَكَّنَ منك الحراك؟ ألم تزل أرضكَ واسعة خصبة، ومعادنكَ وافية غنية، وحيوانكَ رابياً متناسلاً، وعمرانكَ قائماً متواصلاً، وبنوكَ على ما ربَّيْتهم أقرب للخير من الشّرّ؟ أليس عندهم الحلم المسمَّى عند غيرهم ضعفاً في القلب، وعندهم الحياء المسمَّى بالجبانة، وعندهم الكرم المسمَّى بالإتلاف، وعندهم القناعة المسمَّاة بالعجز، وعندهم العفَّة المسمَّاة بالبلاهة، وعندهم المجاملة المسمَّاة بالذّلّ؟ نعم؛ ما هم بالسّالمين من الظّلم، ولكنْ؛ فيما بينهم، ولا من الخدع، ولكنْ؛ لا يفتخرون به، ولا من الإضرار، ولكنْ؛ مع الخوف من الله · .

· رعاكَ اللّه يا شرق، لا نرى من غير الدّهر فيكَ ما يستوجب هذا الشّقاء لبنيكَ، ويستلزم ذلّهم لبني أخيكَ. فلماذا قد أصبحت إذا انقطع عنك مَدَدُ أخيك بمصنوعاته، يبقى أبناؤك عُراة حفاة في ظلام، بل يُمَنِّيهم

(233) الغزير.

(234) لا الماء العكر ولا المالح المرّ.

فَقْدُ الحديد بالرّجوع إلى العصر النّحاسي، بل الحجري الموصوف بعصر التّعفين؟".

" رعاكَ اللّه يا شرق، بل رعى الله أخاكَ الغرب، العائل بنفسه والعائل فيكَ، وقَاتَلَ اللهُ الاستبدادَ، بل لَعَنَ اللهُ الاستبدادَ، المانع من التَّرقّي في الحياة، المنحطّ بالأمم إلى أسفل الدّركات. ألا بُعْداً للظّالمين".

" رعاكَ اللّهُ يا غربُ، وحَيَّاكَ وبيَّاكَ، قد عرفتَ لأخيكَ سابق فضله عليكَ، فوفيتَ، وكفيتَ، وأحسنتَ الوصاية وهديتَ، وقد اشتدَّ سَاعدُ بعض أولاد أخيكَ، فهلا ينتدب بعض شيوخ أحرارك لإعانة أنجاب أخيكَ على هدم ذاك السّور، سور الشّؤم والشّرور، ليخرجوا بإخوانهم إلى أرض الحياة، أرض الأنبياء الهداة، فيشكرون فضلك والدّهر مكافأة؟".

" يا غَرْبُ، لا يحفظ لك الدِّين غير الشّرق إنْ دامت حياته بحريته، وفَقْدُ الدِّين يُهدِّدُك بالخراب القريب. فماذا أعددتَ للفوضويين إذا صاروا جيشاً جراراً؟ وماذا أعددتَ لديارك الحبلى بالثّورة الاجتماعية؟ هل تُعدُّ المواد المتفرقعة، وقد جاوزتْ أنواعها الألف؟ أم تُعدُّ الغازات الخانقة وقد سهل استحضارها على الصّبيان؟".

" يا قومُ: وأريد بكم شبابَ اليوم؛ رجالَ الغد، شبابَ الفكر؛ رجالَ الجد، أُعيذكم من الخزي والخذلان بتفرقة الأديان، وأُعيذكم من الجهل، جهل أنَّ الدَّينونة لله، وهو سبحانه وَليُّ السّرائر والضّمائر ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[235].

(235) هود: 118.

" أناشدكم يا ناشئة الأوطان، أنْ تعذروا هؤلاء الواهنة الخائرة قواهم إلا في ألسنتهم، المعطَّل عملهم إلا في التّثبيط، الذين اجتمع فيهم داء الاستبداد والتّواكل فجعلاهما آلة تُدار ولا تدير. وأسألكم عفوهم من العتاب والملام، لأنَّهم مرضى مُبتَلُون، مُثقَلُون بالقيود، مُلجَمُون بالحديد، يقضون حياة خير ما فيها أنَّهم آباؤكم! ".

" قد علمتُم يا نُجَبَاء من طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد جُمَلاً كافية للتّأمُّل والتّدبُّر، فاعتبروا بنا[236] واسألوا الله العافية:

نحن أَلِفْنَا الأدب مع الكبير ولو داسَ رقابنا. أَلِفْنَا الثّباتَ ثباتَ الأوتاد تحت المطارق، أَلِفْنَا الانقيادَ ولو إلى المهالك. أَلِفْنَا أنْ نعتبر التّصاغرَ أدباً والتّذلُّلَ لطفاً، والتّملُّقَ فصاحة، واللكنةَ رزانةً، وتركَ الحقوق سماحةً، وقبولَ الإهانة تواضعاً، والرّضا بالظُّلم طاعة، ودعوى الاستحقاق غروراً، والبحثَ عن العموميات فضولاً، ومَدَّ النّظر إلى الغد أملاً طويلاً، والإقدامَ تهوُّراً، والحميةَ حماقةً، والشّهامةَ شراسةً، وحريَّةَ القول وقاحةً، وحريَّةَ الفكر كُفْراً، وحُبَّ الوطن جنوناً.

أما أنتُم، حماكم الله من السّوء، فنرجو لكم أنْ تنشؤوا على غير ذلك، أنْ تنشؤوا على التّمسُّك بأصول الدِّين، دون أوهام المُتَفَنِّنين، فتعرفوا قَدْرَ نفوسكم في هذه الحياة فتكرموها، وتعرفوا قَدْرَ أرواحكم وأنَّها خالدة تُثاب وتُجزى، وتَتَبَّعوا سُنَنَ النَّبِيِّين فلا تخافون غير الصّانع الوازع العظيم. ونرجو لكم أنْ تبنوا قصور فخاركم على معالي الهمم ومكارم الشّيم، لا على عظام نخرة. وأنْ تعلموا أنَّكم خُلقتم أحراراً لتموتوا كراماً،

---

(236) أو: بها.

فاجهدوا على أنْ تحيوا ذلكما اليومَيْن حياة رضية، يتسنَّى فيها لكُلٍّ منكم أنْ يكون سلطاناً مُستقلاً في شؤونه لا يحكمه غير الحقّ، ومديناً وفياً لقومه لا يضنُّ عليهم بعين أو عون، وولداً باراً لوطنه، لا يبخل عليه بجزء من فكره ووقته وماله، ومُحباً للإنسانية يعمل[237] على أنَّ خير النّاس أنفعهم للنّاس، يعلم أنَّ الحياة هي العمل ووباء العمل القنوط، والسّعادة هي الأمل، ووباء الأمل التّردُّد، ويفقه أنَّ القضاء والقَدَر هما عند اللّه ما يعلمه ويمضيه، وهما عند النّاس السّعي والعمل، ويوقن أنَّ كُلَّ أثر على ظهر الأرض هو من عمل إخوانه البشر، وكُلَّ عمل عظيم قد ابتدأ به فَرْدٌ، ثمَّ تعاوَرَهُ غيره إلى أنْ كمل، فلا يتخيَّل الإنسان في نفسه عجزاً، ولا يتوقَّع إلا خيراً، وخير الخير للإنسان أنْ يعيش حُرّاً مقداماً، أو يموت".

"وكأنِّي بسائلكم يسألني تاريخ التّغالب بين الشّرق والغرب، فأجيب: بأنَّا كُنَّا أرقى من الغرب علماً، فنظاماً، فَقُوَّة، فَكُنَّا له أسياداً! ثمَّ جاء حِينٌ من الدّهر لحق بنا الغرب، فصارت مزاحمة الحياة بيننا سجالاً: إنْ فُقْناه شجاعة فاقنا عدداً، وإنْ فُقْناه ثروة فاقنا باجتماع كلمته. ثمَّ جاء الزّمن الأخير ترقَّى فيه الغرب علماً، فنظاماً، فقوَّة. وانضمَّ إلى ذلك أوَّلاً: قوَّة اجتماعه شعوباً كبيرة. ثانياً: قوَّة البارود؛ حيثُ أبطل الشّجاعة وجعل العبرة للعدد. ثالثاً: قوَّة كشفه أسرار الكيمياء والميكانيك. رابعاً: قوَّة الفحم الذي أهدته له الطّبيعة. خامساً: قوَّة النّشاط بكسره قيود الاستبداد. سادساً: قوَّة الأمن على عقد الشّركات المالية الكبيرة. فاجتمعت هذه القوَّات فيه وليس عند الشّرق ما يقابلها غير الافتخار بالأسلاف، وذلك

(237) المعنى: يعلم أنَّ خير النّاس أنفعهم للناس، ويعمل وفق علمه.

حُجَّة عليه، والغرور بالدِّين خلافاً للدِّين، فالمسلمون يقابلون تلك القوات بما يقال عند اليأس وهو: ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾، ويخالفون أمر القرآن لهم بأنْ يُعِدّوا ما استطاعوا من قوَّة، لا ما استطاعوا من صلاة وصوم.

وكأني بسائلكم يقول: هل بعد اجتماع هذه القوات في الغرب واستيلائه على أكثر الشّرق من سبيل لنجاة البقية؟. فأجيب قاطعاً غير مُتَرَدِّد: إنَّ الأمر مقدور ولعلَّه ميسور. ورأس الحكمة فيه كسر قيود الاستبداد. وأنْ يكتب النّاشئون على جباههم عشر كلمات، وهي:

1 ـ ديني ما أُظهر وما أُخفي.

2 ـ أكون؛ حيثُ يكون الحقُّ ولا أُبالي.

3 ـ أنا حُرٌّ وسأموتُ حُرّاً.

4 ـ أنا مُستقلٌّ لا أَتَّكِلُ على غير نفسي وعقلي.

5 ـ أنا إنسان الجدّ والاستقبال، لا إنسان الماضي والحكايات.

6 ـ نفسي ومنفعتي قبل كُلِّ شيء.

7 ـ الحياة كُلُّها تَعَبٌ لذيذٌ.

8 ـ الوقت غالٍ عزيز.

9 ـ الشرف في العلم فقط.

10 ـ أخاف اللّه لا سواه.

" وأنتَ أيها الوطن المحبوب: أنتَ العزيز على النّفوس، المقدّس في القلوب، إليكَ تحنُّ الأشباح وعليك تئنُّ الأرواح... أيها الوطن الباكي ضعافه: عليك تبكي العيون، وفيكَ يحلو المنون. إلى متى يعبث خلالك اللئام الطّغام؟ يظلمون بنيك ويذلّون ذويك. يطاردون أنجالك الأحباب ويمسكون على المساكين الطُّرُقَ والأبواب، يُخرِّبون العمران ويُقفرون الدّيار؟.

أيها الوطن العزيز: هل ضاعت رحابكَ عن أولادكَ؟ أم ضاقت أحضانكَ عن أفلاذكَ؟ . . . كلا؛ إنَّما فَقَدْتَ الأُباة، فَقَدْتَ الحُمَاة، فَقَدْتَ الأحرارَ. أيها الوطن الملتهب فؤاده: أما رويتَ من سُقيا الدّموع والدّماء؟ ولكنْ؛ دموع بناتك الثّاكلات ودماء أبنائكَ الأبرياء، لا دموع النّادمين ولا دماء الظّالمين. ألا فاشرب هنيئاً ولا تأسَفْ على البُلْهِ الخاملين، ولا تحزنْ، فما هم كرائماً وكراماً، لَسْنَ هُنَّ كرائماً باكيات محمسات، وليسوا هم كراماً أعزَّة شهداء، إنَّما هم - غَفَرَ الله لهم - مَنْ علمتَ، قَلَّ فيهم الحُرُّ الغيور، قَلَّ فيهم مَنْ يقول أنا لا أخاف الظّالمين.

أيها الوطن الحنون: كَوَّنَ الله عناصر أجسامنا منكَ، وجعل الأمهات حواضن، ورزقنا الغذاء منكَ، وجعل المرضعات مجهزات، نعم؛ خَلَقَنَا الله منكَ فحقَّ لكَ أنْ تحبَّ أجزاءَكَ وأنْ تحنَّ على أفلاذكَ. كما يحقّ لك في شرع الطّبيعة أنْ لا تحبَّ الأجنبي الذي يأبى طبعهُ حُبَّكَ، الذي يؤذيكَ ولا يواليكَ، ويزاحم بنيكَ عليكَ ويشاركهم فيكَ، وينقل إلى أرضه ما في جوفك من نفيس العناصر وكنوز المعادن، فيفقركَ ليغني وطنه، ولا لوم عليه، بل بارك الله فيه! ".

"يا قومُ: جعلكم الله خيرة اليوم وعدَّة الغد، هـذا خطابي إليكـم فيمـا هو التَّرقِّي وما هو الانحطاط، فإنْ وعيتُم ولو شذرات، فيا بشراي والسّـلام عليكم، وإلا فيما[238] ضياع الأنفاس، وعلى الرّفاة السّلام".

الاستبداد الذي يبلغ في الانحطاط بالأمَّة إلى غايـة أنْ تموت، ويموت هو معها، كثير الشّواهد في قديم الزّمـان وحديثه، أمَّا بلـوغ الـتّرقِّي بـالأمم إلى المرتبة القصوى السّامية التي تليق بالإنسانية، فهذا لم يسمح الزّمان حتّى الآن بأمَّة تصلح مثالاً له، لأنَّه إلى الآن لم توجد أمَّة حكمت نفسها برأيها العام حُكْماً لا يشوبه نوع من الاستبداد ولو باسم الوقار والاحترام، أو بنوع من الإغفال ولو ببذر الشّقاق الدِّيني أو الجنسي بين النّاس.

فكأنَّ الحكمة الإلهية لم تزل ترى البشر غير متأهِّلين لنوال سعادة الأخوة العمومية بالتّحابب بين الأفراد، والقناعة بالمساواة الحقوقية بين الطّبقات. نعم؛ وُجد للتَّرقِّي القريب من الكمال بعض أمثال قليلة في القرون الغابرة، كالجمهورية الثّانية للرّومان، وكعهد الخلفاء الرّاشدين، وكالأزمنة المُتقَطِّعَة في عهد بعض الملوك المنظّمين لا الفاتحين مثل أنو شروان وعبد الملك الأموي[239] ونور الدِّين الشّهيد وبطرس الكبير. وكبعض الجمهوريات الصّغيرة والممالك الموفقة لأحكام التّقييد الموجودة في هذا الزّمان. وإنّي أقتصر على وصف منتهى التَّرقِّي الذي وصلت إليه تلك

(238) في (ط. ق) : (فيا) وهي الأولى.

(239) عبد الملك بن مروان (26 ـ 86هـ=646 ـ 705م)خامس الخلفاء الأمويين (66 ـ 86هـ =685 ـ 705م) أحسن إدارة الدّولة، وارتفع بنفسه فوق الأحزاب القبلية. بدأت في عهده حركة تعريب الدّواوين، كما أُقيمت دُور لِسَكّ العملة.

الأمم وصفاً إجمالياً، وأترك للمطالع أنْ يوازن بينها ويقيس عليها درجات سائر الأمم.

وربما يستريب في ذلك المطالع المولود في أرض الاستبداد، الذي لم يدرس أحوال الأمم في الوجود، ولا عتب عليه فإنَّه كالمولود أعمى لا يُدرك للمناظر البهية معنى.

قد بلغ التَّرقِّي في الاستقلال الشّخصي في ظلال الحكومات العادلة، لأنْ يعيش الإنسان المعيشة التي تشبه في بعض الوجوه ما وعدتْهُ الأديان. لأهل السّعادة في الجنان. حتَّى إنَّ كُلَّ فرد يعيش كأنَّه خالد بقومه ووطنه، وكأنَّه أمين على كُلِّ مطلب، فلا هو يُكَلِّف الحكومة شَططاً ولا هي تهمله استحقاراً:

1 ـ أمين على السّلامة في جسمه وحياته بحراسة الحكومة التي لا تغفل عن محافظته بكُلِّ قوتها في حضره وسفره بدون أنْ يشعر بثقل قيامها عليه، فهي تحيط به إحاطة الهواء، لا إحاطة السّور يلطمه كيفما التفت أو سار.

2 ـ أمين على الملذَّات الجسمية والفكرية باعتناء الحكومة في الشّؤون العامَّة، المتعلّقة بالتّرويضات الجسمية والنّظرية والعقلية حتَّى يرى أنَّ الطّرقات المسهلة، والتّزيينات البلدية، والمتنزهات، والمنتديات، والمدارس، والمجامع، ونحو ذلك، قد وُجدت كُلُّها لأجل ملذَّاته، ويعتبر مشاركة النّاس له فيها لأجل إحسانه، فهو بهذا النّظر والاعتبار لا ينقص عن أغنى النّاس سعادة.

3 ـ أمين على الحريَّة، كأنَّه خُلق وحده على سطح هـذه الأرض، فـلا يعارضه معارض فيما يخصُّ شخصه من دين وفكر وعمل وأمل.

4 ـ أمين على النّفوذ، كأنَّه سلطان عزيز، فلا ممانع له ولا معاكس فـي تنفيذ مقاصده النّافعة في الأمَّة التي هو منها.

5 ـ أمين على المزية، كأنَّه في أمَّة يساوي جميـع أفرادهـا منزلـة وشـرفاً وقوَّة، فـلا يفضـل هـو علـى أحـد ولا يفضـل أحـد عليـه، إلا بمزيـة سـلطان الفضيلة فقط.

6 ـ أمين علــى العـدل، كأنَّـه هـو القـابض علـى مـيزان الحقـوق، فـلا يخـاف تطفيفـاً، وهـو المثمـن فـلا يحـذر بخسـاً، وهـو المطمئـن علـى أنَّــه إذا استحقَّ أنْ يكون ملكاً صار ملكاً، وإذا جنى جناية نال جزاءه لا محالة.

7 ـ أمين على المال والملك، كأنَّ ما أحرزه بوجهه المشروع قليلاً كان أو كثيراً، قد خلقه الله لأجله فلا يخاف عليه، كمـا أنَّـه تقلـع عينـه إنْ نظـر إلـى مال غيره.

8 ـ أمين على الشّرف بضمان القانون، بنصرة الأمَّة، ببذل الدّم، فلا يرى تحقيراً إلا لدى وجدانه، ولا يعرف طعماً لمرارة الذّلِّ والهوان.

أمَّا الأسير ـ ولا أُحزن المطـالع بوصـف حالتـه ـ فـأكتفي بـالقول: إنَّـه لا يملك ولا نفسه، وغير أمين حتَّى على عظامه في رمسه، إذا وقع نظـره علـى المستبدِّ أو أحد من جماعته على كثرتهم يتعوَّذ بالله، وإذا مرَّ من قرب إحـدى دوائر حكومته أسرع وهــو يكـرِّر قولـه: «حمـايتكَ يـا ربّ، إنَّ هـذا الـدّار، بئس الدّار، هـي كـالمجزرة كُـلُّ مَـنْ فيـها إمَّـا ذابـح أو مذبـوح. إنَّ هـذه الـدّار كالكنيف لا يدخله إلا المضطر».

وقد يبلغ التَّرقِّي في الاستقلال الشّخصي مع التّركيب بالعائلة والعشيرة، أنْ يعيش الإنسان مُعتبراً نفسه من وجه غنياً عن العالمين، ومن وجه عضواً حقيقياً من جسم حَيٍّ هو العائلة، ثمَّ الأمَّة، ثمَّ البشر.

ويُنظر إلى انقسام البشر إلى أمم، ثمَّ إلى عائلات، ثمَّ إلى أفراد، وهو من قبيل انقسام الممالك إلى مدن، وهي إلى بيوت، وهي إلى مرافق، وكما أنَّه لابُدَّ لكُلِّ مرفق من وظيفة معينة يصلح لها وإلا كان بناؤه عبثاً يستحقُّ الهدم، كذلك أفراد الإنسان لابُدَّ أنْ يَعُدَّ كُلٌّ منهم نفسه لوظيفة في قيام حياة عائلته أوَّلاً، ثمَّ حياة قومه ثانياً.

ولهذا يكون العضو الذي لا يصلح لوظيفة، أو لا يقوم بما يصلح له، حقيراً مهاناً. وكُلُّ مَنْ يريد أنْ يعيش كَلاً على غيره، لا عن عجز طبيعي، يستحقُّ الموت لا الشّفقة، لأنَّه كالدّرن في الجسم أو كالزّائد من الظّفر يستحقَّان الإخراج والقطع، ولهذا المعنى حَرَّمت الشّرائع السّماوية الملاهي التي ليس فيها ترويض، والسُّكْر المُعَطِّل عن العمل عقلاً وجسماً، والمقامرة والرِّبا لأنَّهما ليسا من نوع العمل والتّبادل فيه. وقد فَضَّلَ الله الكَنَّاسَ على الحجَّام وصانع الخبز على ناظم الشّعر؛ لأنَّ صَنْعَتَهُمَا أنفع للجمهور.

وقد يبلغَ تَرَقِّي التّركيب في الأمم إلى درجة أنْ يصير كُلُّ فرد من الأمَّة مالكاً لنفسه تماماً، ومملوكاً لقومه تماماً. فالأمَّة التي يكون كُلُّ فرد منها مُستعداً لافتدائها بروحه وبماله، تصير تلك الأمَّة بحجَّة هذا الاستعداد في الأفراد، غنية عن أرواحهم وأموالهم.

التَّرقِّي في القوَّة بالعلم والمال يتميَّز على باقي أنواع التّرقِّيات السّالفة البيان تَمَيُّز الرّأس على باقي أعضاء الجسم، فكما أنَّ الرّأس بإحرازه مركزية العقل، ومركزية أكثر الحواس، تميَّز على باقي الأعضاء واستخدمها في حاجاته، فكذلك الحكومات المنتظمة يترقَّى أفرادها ومجموعها في العلم والثّروة، فيكون لهم سلطان طبيعي على الأفراد أو الأمم التي انحطَّ بها الاستبداد المشؤوم إلى حضيض الجهل والفقر.

بقي علينا بحث التَّرقِّي في الكمالات بالخصال والأثرة، وبحث التَّرقِّي الذي يتعلَّق بالرّوح؛ أي بما وراء هذه الحياة، ويرقى إليه الإنسان على سُلَّم الرّحمة والحسنات، فهذه أبحاث طويلة الذيل، ومنابعها حكميات الكُتُب السّماوية ومُدوّنات الأخلاق، وتراجم مشاهير الأمم.

وأكتفي بالقول في هذا النّوع: إنَّه يبلغ بالإنسان مرتبة أنْ لا يرى لحياته أهمية إلا بعد درجات، فَيَهُمّه أوَّلاً: حياة أمّه، ثمَّ امتلاك حريته، ثمَّ أمنه على شرفه، ثمَّ محافظته على عائلته، ثمَّ وقايته حياته، ثمَّ ماله، ثمَّ، وثمَّ... وقد تشمل إحساساته عالم الإنسانية كُلّه، كأنَّ قومه البشر لا قبيلته، ووطنه الأرض لا بلده، ومسكنه؛ حيثُ يجد راحته، لا يتقيَّد بجدران بيت مخصوص يستتر فيه ويفتخر به كما هو شأن الأُسَراء.

وقد يترفَّع الإنسان عن الإمارة لما فيها من معنى الكبر، وعن التّجارة لما فيها من التّمويه والتّبذُّل، فيرى الشّرف في المحراث، ثمَّ المطرقة، ثمَّ القلم، ويرى اللَّذَّة في التّجديد والاختراع، لا في المحافظة على العتيق، كأنَّ له وظيفةً في تَرَقِّي مجموع البشر.

وخلاصة القول: إنَّ الأمم التي يُسعدها جدُّها لتبديد استبدادها، تنال من الشّرف الحسي والمعنوي ما لا يخطر على فكر أُسَراء الاستبداد. فهذه بلجيكا أبطلت التّكاليف الأميرية برُمَّتِهَا، مكتفية في نفقاتها بنماء فوائد بنك الحكومة[240]. وهذه سويسرا يصادفها كثيراً أنْ لا يوجد في سجونها محبوس واحد. وهذه أمريكا أَثْرَتْ حتَّى كادت تخرج الفضَّة من مقام النّقد إلى مقام المتاع. وهذه اليابان أصبحت تستنزف قناطير الذّهب من أوروبا وأمريكا ثمن امتيازات اختراعاتها وطبع تراجم مُؤلَّفاتها.

وقد تنال أيضاً تلك الأمم حظّاً من الملذَّات الحقيقية، التي لا تخطر على فكر الأُسَراء، كلَذَّة العلم وتعليمه، ولَذَّة المجد والحماية، ولَذَّة الإثراء والبذل، ولَذَّة إحراز الاحترام في القلوب، ولَذَّة نفوذ الرّأي الصّائب، ولَذَّة الحُبِّ الطّاهر، إلى غير هذه الملذَّات الرّوحية. وأمَّا الأُسَراء والجهلاء فَمَلذَّاتهم مقصورة على مشاركة الوحوش الضّارية في المطاعم والمشارب واستفراغ الشّهوة، كأنَّ أجسامهم ظروف تُملأ وتُفرغ، أو هي دمامل تُولدُ الصّديد وتدفعه.

وأنفع ما بلغه التَّرقِّي في البشر؛ هو إحكامهم أصول الحكومات المنتظمة ببنائهم سَدّاً متيناً في وجه الاستبداد، والاستبداد جرثومة كُلِّ فساد، وبجعلهم ألا قوَّة ولا نفوذ فوق قوَّة الشّرع، والشّرع هو حبل الله المتين. وبجعلهم قوَّة التّشريع في يد الأمَّة، والأمَّة لا تجتمع على ضلال. وبجعلهم المحاكم تحاكم السّلطان والصّعلوك على السّواء، فتحاكي في عدالتها المحكمة

---

(240) في الواقع أنَّ بلجيكا كانت في ذلك الوقت دولة استعمارية، وما كان ما يقوله الكواكبي إلا بسبب نهبها ثروات بلاد الكونغو الغنية بالمعادن والمحاصيل.

الكبرى الإلهيــة . ويجعلــهم العمَّــال لا ســبيل لــهم علــى تَعَــدِّي حــدود وظائفهم، كأنَّهم ملائكة لا يعصون أمراً، ويجعلهم الأمَّة يقظة ساهرة علـى مراقبة سير حكومتها، لا تغفل طرفة عين، كمـا أنَّ الله - عَزَّ وجَلَّ - لا يغفـل عمَّا يفعل الظّالمون.

هذا مبلغ التَّرقِّي الذي وصلت إليه الأمم منذ عُرف التّـاريخ، علـى أنَّـه لم يقم دليل إلى الآن على تَرَقِّي البشر في السّعادة الحيوية عمَّا كانوا عليه في العصور الخالية حتَّى الحجرية، حتَّى منذ كانوا عراة يسرحون أسراباً، والآثار المشهودة لا تـدلُّ على أكثر مـن تَرَقِّـي العلـم والعمـران؛ وهمـا آلتــان كمـا يصلحان للإسعاد، يصلحان للإشقاء، وترقّيهما هـو مـن سُنَّة الكـون التـي أرادها الله تعالى لهذه الأرض وبنيها، ووصف لنا ما سيبلغ إليه تَرَقِّـي زينتـها واقتدار أهلها بقوله عز شأنه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾(241). وهذا يدلُّ علـى أنَّ الدّنيـا وبنيـها لـم يـزالا فـي مقتبـل التَّرقِّي، ولا يعارض هذا أنَّ ما مضـى مـن عمرهـا هـو أكثر ممـا بقـي حسبما أخبرتْ به الكُتُب السّماوية، لأنَّ العمر شيء، والتَّرقِّي شيء آخر.

(241) يونس : 24.

الاستبداد والتّخلُّص منه

ليس لنا مدرسة أعظم من التّاريخ الطّبيعي، ولا برهان أقوى من الاستقراء، مَنْ تَتَبّعْهُمَا يرى أنَّ الإنسان عاش دهراً طويلاً في حالة طبيعية تُسمَّى " دور الافتراس "، فكان يتجوَّل حول المياه أسراباً تجمعه حاجة الحضانة صغيراً، وقصد الاستئناس كبيراً، ويعتمد في رزقه على النّبات الطّبيعي وافتراس ضعاف الحيوان في البرِّ والبحر، وتسوسه الإرادة فقط، ويقوده من بنيته أقوى إلى؛ حيثُ يكثر الرّزق.

ثمَّ تَرَقَّى الكثير من الإنسان إلى الحالة البدوية التي تُسمَّى " دور الاقتناء ": فكان عشائر وقبائل، يعتمد في رزقه على ادِّخار الفرائس إلى حين الحاجة، فصارت تجمعه حاجة التّحفُّظ على المال والأنعام، وحماية المستودعات والمراعي والمياه من المزاحمين، ثمَّ انتقل - ولا يقال ترقَّى - قسم كبير من الإنسان إلى المعيشة الحضرية: فَسَكَنَ القرى يستنبت الأرض الخصبة في معاشه، فأخصب، ولكنْ؛ في الشّقاء، ولعلَّه استحقَّ ذلك بفعله؛ لأنَّه تعدَّى قانون الخالق، فإنَّه خلقه حُرّاً جَوَّالاً، يسير في الأرض، ينظر آلاء الله، فَسَكَنَ، وسكن إلى الجهل وإلى الذّل، وخَلَقَ اللهُ الأرضَ مباحةً، فاستأثر بها، فَسَلَّطَ الله عليه مَنْ يغصبها منه ويأسره. وهذا القسم يعيش بلا جامعة، تحكمه أهواء أهل المدن وقانونه: أنْ يكون ظالماً أو مظلوماً.

ثمَّ تَرَقَّى قسم من الإنسان إلى التّصرُّف إمّا في المادة وهم الصنّاع، وإمّا في النّظريات وهم أهل المعارف والعلوم. وهؤلاء المُتصرّفون هم سكان المدن الذين هم وإنْ سجنوا أجسامهم بين الجدران، لكنّهم أطلقوا عقولهم في الأكوان، وهم قد توسّعوا في الرّزق كما توسّعوا في الحاجات، ولكنَّ أكثرهم لم يهتدوا حتّى الآن للطّريق المُثلى في سياسة الجمعيات الكبرى. وهذا هو سبب تَنوُّع أشكال الحكومات وعدم استقرار أُمَّةٍ على شكل مُرضٍ عام. إنّما كُلُّ الأمم في تقلُّبات سياسية على سبيل التّجريب، وبحسب تغلُّب أحزاب الاجتهاد أو رجال الاستبداد.

وتقرير شكل الحكومة هو اعظم وأقدم مشكلة في البشر، وهو المعترك الأكبر لأفكار الباحثين، والميدان الذي قلَّ في البشر مَنْ لا يجول فيه على فيل من الفكر، أو على جمل من الجهل، أو على فرس من الفراسة، أو على حمار من الحمق، حتّى جاء الزّمن الأخير فجال فيه إنسان الغرب جولة المغوار الممتطي في التّدقيق مراكبَ البخار. فَقَرَّر بعض قواعد أساسية في هذا الباب تضافر عليها العقل والتّجريب، وحَصْحَصَ فيها الحقّ اليقين، فصارت تُعَدُّ من المُقرَّرات الاجتماعية عند الأمم المترقِّية، ولا يعارض ذلك كون هذه الأمم لم تزل أيضاً مُنقسمة إلى أحزاب سياسية يختلفون شيعاً؛ لأنَّ اختلافهم هو في وجوه تطبيق تلك القواعد وفروعها على أحوالهم الخصوصية.

وهذه القواعد التي قد صارت قضايا بديهية في الغرب، لم تزل مجهولة أو غريبة، أو منفوراً منها في الشّرق؛ لأنّها عند الأكثرين منهم لم تطرق سمعهم، وعند البعض لم تنل التفاتهم وتدقيقهم، وعند آخرين لم تحز قبولاً؛ لأنّهم ذوو غرض، أو مسروقة قلوبهم، أو في قلوبهم مرض.

وإنـي أطـرح لتدقيـق المطـالعين رؤوس مسـائل بعـض المبـاحث التـي تتعلّق بـها الحيـاة السّياسـية. وقبـل ذلـك أذكِّرهـم بأنَّـه قـد سـبق فـي تعريـف الاستبداد بأنَّه: "هـو الحكومـة التـي لا يوجـد بينـها وبـين الأمَّـة رابطـة معينـة معلومة مصونة بقانون نافذ الحُكْم". كمـا أَسْتلفتُ نظرهـم إلـى أنَّـه لا يوثـق بوعـد مَنْ يتولَّـى السّلطة أياً كـان، ولا بعـهده ويمينـه علـى مراعـاة الدِّيـن، والتّقـوى، والحـقّ، والشّـرف، والعدالــة، ومقتضيـات المصلحـة العامـة، وأمثال ذلك من القضايا الكلية المبهمة التي تدور على لسان كُـلِّ برٍّ وفـاجر. وما هي في الحقيقة إلا كلام مبهم فارغ؛ لأنَّ المجرم لا يعدم تأويلاً؛ ولأنَّ من طبيعة القوَّة الاعتساف؛ ولأنَّ القوَّة لا تُقابَلُ إلا بالقوَّة.

ثمَّ فلنرجع للمباحث التي أريد طرحها لتدقيق المطالعين وهي:

1 ـ مبحث ما هي الأمَّة؛ أي الشَّعب:

هـل هـي ركـامُ مخلوقـات ناميـة، أو جمعيـة، عبيـد لمـالك مُتغلّـب، وظيفتهم الطّاعة والانقياد ولو كرهاً؟ أم هي جَمْعٌ بينهم روابط دين أو جنس أو لغة، ووطن، وحقوق مشتركة، وجامعة سياسية اختيارية، لكُلِّ فرد حقُّ إشـهار رأيـه فيـها توفيقاً للقـاعدة الإسـلامية التـي هـي أسـمى وأبلـغ قـاعدة سياسية وهي: "كُلُّكم راعٍ، وكُلُّكُم مسؤول عن رعيته"؟.

2 ـ مبحث ما هي الحكومة:

هـل هـي سـلطة امتـلاك فـرد لجمـع، يتصـرَّف فـي رقابـهم، ويتمتَّـع بأعمالهم ويفعل بإرادته ما يشاء؟ أم هي وكالة تُقام بإرادة الأمَّـة لأجـل إدارة شؤونها المشتركة العمومية؟.

3 ـ مبحث ما هي الحقوق العمومية:

هل هي حقوق آحاد الملوك، ولكنّها تُضاف للأمم مجازاً؟ أم ـ بالعكس ـ هي حقوق جموع الأمم، وتُضاف للملوك مجازاً، ولهم عليها ولاية الأمانة والنّظارة على مثل الأراضي والمعادن، والأنهر والسّواحل، والقلاع والمعابد، والأساطيل والمعدات، وولاية الحدود، والحراسة على مثل الأمن العام، والعدل والنّظام، وحفظ وصيانة الدِّين والآداب، والقوانين والمعاهدات، والاتّجار، إلى غير ذلك مما يحقّ لكُلٍّ فرد من الأمّة أنْ يتمتّع به وأنْ يطمئنّ عليه؟

4 ـ مبحث التّساوي في الحقوق:

هل للحكومة التّصرُّف في الحقوق العامّة الماديّة والأدبية كما تشاء بذلاً وحرماناً؟ أم تكون الحقوق محفوظة للجميع على التّساوي والشّيوع، وتكون المغانم والمغارم العمومية مُوزّعة على الفصائل والبلدان والصّنوف والأديان بنسبة عادلة، ويكون الأفراد متساوين في حَقّ الاستنصاف؟

5 ـ مبحث الحقوق الشّخصية:

هل الحكومة تملك السّيطرة على الأعمال والأفكار؟ أم أفراد الأمّة أحرار في الفكر مطلقاً، وفي الفعل ما لم يخالف القانون الاجتماعي؛ لأنّهم أدرى بمنافعهم الشّخصية، والحكومة لا تتداخل إلا في الشّؤون العمومية؟

6 ـ مبحث نوعية الحكومة:

هل الأصلح هي الملكية المطلقة من كُلِّ زمام؟ أم الملكية المقيّدة؟ وما هي القيود؟ أم الرّئاسة الانتخابية الدّائمة مع الحياة، أو المؤقّتة إلى

أجل؟ وهل تُنال الحاكمية بالوراثة ، أو العهد ، أو الغلبة؟ وهل يكون ذلك كما تشاء الصُّدفة ، أم مع وجود شرائط الكفاءة ، وما هي تلك الشّرائط؟ وكيف يصير تحقيق وجودها؟ وكيف يُراقَبُ استمرارها؟ وكيف تستمرُّ المراقبة عليها؟ .

7 ـ مبحث ما هي وظائف الحكومة:

هل هي إدارة شؤون الأمَّة حسب الرّأي والاجتهاد؟ أم تكون مُقيَّدة بقانون موافق لرغائب الأمَّة وإنْ خالف الأصلح؟ وإذا اختلفت الحكومة مع الأمَّة في اعتبار الصّالح والمضر ، فهل على الحكومة أنْ تعتزل الوظيفة؟

8 ـ مبحث حقوق الحاكمية:

هل للحكومة أنْ تُخَصِّصَ بنفسها لنفسها ما تشاء من مراتب العظمة ، ورواتب المال ، وتُحابي مَنْ تريد بما تشاء من حقوق الأمَّة وأموالها؟ أم يكون التّصرُّف في ذلك كُلِّه إعطاءً وتحديداً ومنعاً منوطاً بالأمَّة؟

9 ـ مبحث طاعة الأمَّة للحكومة:

هل الإرادة للأمَّة ، وعلى الحكومة العمل؟ أم الإرادة للحكومة وعلى الأمَّة الطّاعة؟ وهل للحكومة تكليف الأمَّة طاعة عمياء بلا فهم ولا اقتناع؟ أم عليها الاعتناء بوسائل التّفهيم والإذعان لتتأتّى الطّاعة بإخلاص وأمانة؟

10 ـ مبحث توزيع التّكليفات:

هل يكون وضع الضّرائب مُفوَّضاً لرأي الحكومة؟ أم الأمَّة تُقرِّرُ النّفقات اللازمة وتُعَيِّن موارد المال ، وتُرتِّب طرائق جبايته وحفظه؟ .

11 ـ مبحث إعداد المَنَعَة:

هل يكون إعداد القُوَّة بالتّجنيد والتّسليح استعداداً للدّفاع مفوضاً لإرادة الحكومة إهمالاً، أو إقلالاً، أو إكثاراً، أو استعمالاً على قهر الأمَّة؟ أم يلزم أنْ يكون ذلك برأي الأمَّة وتحت أمرها؛ بحيثُ تكون القوَّة مُنَفِّذَة رغبة الأمَّة لا رغبة الحكومة؟

12 ـ مبحث المراقبة على الحكومة:

هل تكون الحكومة لا تُسأل عما تفعل؟ أم يكون للأمَّة حَقُّ السّيطرة عليها؛ لأنَّ الشّأن شأنها، فلها أنْ تُنيب عنها وكلاء لهم حَقُّ الاطلاع على كُلِّ شيء، وتوجيه المسؤولية على أيٍّ كان، ويكون أهمّ وظائف النّوّاب حِفْظ الحقوق الأساسية المُقرَّرة للأمَّة على الحكومة؟

13 ـ مبحث حفظ الأمن العام:

هل يكون الشّخص مُكَلَّفاً بحراسة نفسه ومُتعلّقاته؟ أم تكون الحكومة مُكَلَّفة بحراسته مقيماً ومسافراً حتَّى من بعض طوارئ الطّبيعة بالحيلولة لا بالمجازاة والتّعويض؟

14 ـ مبحث حفظ السُّلطة في القانون:

هل يكون للحكومة إيقاع عمل إكراهي على الأفراد برأيها؛ أي بدون الوسائط القانونية؟ أم تكون السُّلطة منحصرة في القانون، إلا في ظروف مخصوصة ومؤقَّتة؟

15 ـ مبحث تأمين العدالة القضائية:

هل يكون العدل ما تراه الحكومة؟ أم ما يراه القضاة المصون وجدانهم من كُلِّ مؤثر غير الشّرع والحقّ، ومن كُلِّ ضغط حتّى ضغط الرّأي العام؟

16 ـ مبحث حفظ الدِّين والآداب:

هل يكون للحكومة ـ ولو القضائية ـ سلطة وسيطرة على العقائد والضّمائر؟ أم تقتصر وظيفتها في حفظ الجامعات الكبرى كالدِّين، والجنسية، واللغة، والعادات، والآداب العمومية على استعمال الحكمة ما أغنت عن الزّواجر، ولا تتداخل الحكومة في أمر الدِّين ما لم تُنتهك حرمته؟ وهل السّياسة الإسلامية سياسة دينية؟ أم كان ذلك في مبدأ ظهور الإسلام، كالإدارة العرفية عقب الفتح؟

17 ـ مبحث تعيين الأعمال بقوانين:

هل يكون في الحكومة ـ من الحاكم إلى البوليس ـ مَنْ يُطلق له عنان التّصرف برأيه وخبرته؟ أم يلزم تعيين الوظائف، كُلّياتها وجزئياتها، بقوانين صريحة واضحة، لا تسوغ مخالفتها ولو لمصلحة مهمّة، إلا في حالات الخطر الكبير؟

18 ـ مبحث كيف تُوضَعُ القوانين:

هل يكون وضعها منوطاً برأي الحاكم الأكبر، أو رأي جماعة ينتخبهم لذلك؟ أم يضع القوانين جمع مُنتخَبٌ من قبل الكافَّة ليكونوا عارفين حتماً بحاجات قومهم وما يلائم طبائعهم ومواقعهم وصوالحهم، ويكون حكمه عاماً أو مختلفاً على حسب تخالُف العناصر والطّبائع وتغيُّر الموجبات والأزمان؟

19 ـ مبحث ما هو القانون وقوته:

هل القانون هو أحكام يحتجُّ بها القويُّ على الضّعيف؟ أم هو أحكام مُنتزَعَة من روابط النّاس بعضهم ببعض، وملاحظ فيها طبائع أكثرية الأفراد، ومن نصوص خالية من الإبهام والتّعقيد وحكمها شامل كُلّ الطّبقات، ولها سلطان نافذ قاهر مصون من مُؤثّرات الأغراض، والشّفاعة، والشّفقة، وبذلك يكون القانون هو القانون الطّبيعي للأمّة فيكون مُحترماً عند الكافّة، مضمون الحماية من قِبَلِ كُلِّ أفراد الأمّة؟

20 ـ مبحث توزيع الأعمال والوظائف:

هل يكون الحظُّ في ذلك مخصوصاً بأقارب الحاكم وعشيرته ومُقرّبيه؟ أم تُوزَّعُ كتوزيع الحقوق العامّة على كافّة القبائل والفصائل، ولو مناوبة مع ملاحظات الأهمية والعدد؛ بحيثُ يكون رجال الحكومة أنموذجاً من الأمّة، أو هم الأمّة مصغرة، وعلى الحكومة إيجاد الكفاءة والأعداد ولو بالتّعليم الإجباري؟

21 ـ مبحث التّفريق بين السّلطات السّياسية والدّينية والتّعليم:

هل يُجمع بين سلطتَيْن أو ثلاث في شخص واحد؟ أم تُخصَّصُ كُلُّ وظيفة من السّياسة والدِّين والتّعليم بمَنْ يقوم بها بإتقان، ولا إتقان إلا بالاختصاص، وفي الاختصاص، كما جاء في الحكمة القرآنية: ﴿ مَّا جَعَلَ

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾[242]، ولذلك لا يجوز الجمع منعاً لاستفحال السّلطة.

22 ـ مبحث التّرقّي في العلوم والمعارف:

هل يُترك للحكومة صلاحية الضّغط على العقول كي يقوى نفوذ الأمّة عليها؟ أم تُحمل على توسيع المعارف بجعل التّعليم الابتدائي عمومياً بالتّشويق أو الإجبار، وبجعل الكمالي منه سهلاً للمتناول، وجعل التّعليم والتّعلّم حُرّاً مطلقاً؟

23 ـ مبحث التّوسيع في الزّراعة والصّنائع والتّجارة:

هل يُترك ذلك للنّشاط المفقود في الأمّة؟ أم تلزم الحكومة بالاجتهاد في تسهيل مضاهاة الأمم السّائرة، لا سيما المزاحمة والمجاورة، كيلا تهلك الأمّة بالحاجة لغيرها أو تضعف بالفقر؟

24 ـ مبحث السّعي في العمران:

هل يُترك ذلك لإهمال الحكومة المميت لعزّة نفس السُّكّان، أو لانهماكها فيه إسرافاً وتبذيراً؟ أم تحمل على اتّباع الاعتدال المتناسب مع الثّورة العمومية؟

25 ـ مبحث السّعي في رفع الاستبداد:

هل يُنتظر ذلك من الحكومة ذاتها؟ أم نوال الحريّة ورفع الاستبداد رفعاً لا يترك مجالاً لعودته، من وظيفة عقلاء الأمّة وسراتها ؟

(242) الأحزاب : 4.

هذه خمسة وعشرون مبحثاً، كُلٌّ منها يحتاج إلى تدقيق عميق، وتفصيل طويل، وتطبيق على الأحوال والمقتضيات الخصوصية. وقد ذكرتُ هذه المباحث تذكرةً للكُتّاب ذوي الألباب وتنشيطاً للنُّجباء على الخوض فيها بترتيب، اتّباعاً لحكمة إتيان البيوت من أبوابها. وإنّي أقتصر على بعض الكلام فيما يتعلّق بالمبحث الأخير منها فقط؛ أعني مبحث السّعي في رفع الاستبداد فأقول:

1 ـ الأمّة التي لا يشعر كُلُّها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحقُّ الحريّة.

2 ـ الاستبداد لا يُقاوَمُ بالشّدة إنما يُقاوَمُ باللين والتّدرُّج.

3 ـ يجب قبل مقاومة الاستبداد، تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد.

هذه قواعد رفع الاستبداد، وهي قواعد تُبعد آمال الأُسَراء، وتسرُّ المستبدِّين؛ لأنَّ ظاهرها يُؤمِّنهم على استبدادهم. ولهذا أُذكِّر المستبدِّين بما أنذرهم به الفياري[243] المشهور؛ حيثُ قال: "لا يفرحنَّ المستبدُّ بعظيم قوّته ومزيد احتياطه، فكم من جبار عنيد جُنِّدَ له مظلوم صغير"، وإني أقول: كم من جبّار قهّار أخذه الله أخذ عزيز منتقم.

مبنى قاعدة كون الأمّة التي لا يشعر أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحقُّ الحريّة هو:

إنَّ الأمّة إذا ضُربت عليها الذلّة والمسْكَنَة وتوالت على ذلك القرون والبطون، تصير تلك الأمّة سافلة الطّباع حسبما سبق تفصيله في الأبحاث

(243) فيتوريو الفياري (1749 ـ 1803م) شاعر إيطالي، وُلد في استي من أعماله: ما هو الاستبداد؟ (1777)، مسرحية ساول (1782) بروتوس الثّاني (1789).

واقتباس الكواكبي مأخوذ من كتاب الفياري: ما هو الاستبداد؟

السّالفة، حتَّى إنَّها تصير كالبهائم، أو دون البهائم، لا تسأل عن الحريَّة، ولا تلتمس العدالة، ولا تعرف للاستقلال قيمة، أو للنّظام مزية، ولا ترى لها في الحياة وظيفة غير التّابعية للغالب عليها، أحسنَ أو أساءَ على حَدٍّ سواء، وقد تنقم على المستبدِّ نادراً، ولكنْ؛ طلباً للانتقام من شخصه لا طلباً للخلاص من الاستبداد، فلا تستفيد شيئاً، إنما تستبدل مرضاً بمرض؛ كمغصٍ بصداع.

وقد تقاوم المستبدَّ بِسَوْقِ مستبدٍّ آخر تتوسَّم فيه أنَّه أقوى شوكة من المستبدِّ الأوَّل، فإذا نجحت لا يغسل هذا السّائق يديه إلا بماء الاستبداد، فلا تستفيد أيضاً شيئاً، إنما تستبدل مرضاً مزمناً بمرض حد[244]، وربما تُنال الحريَّة عفواً، فكذلك لا تستفيد منها شيئاً؛ لأنَّها لا تعرف طعمها، فلا تهتمُّ بحفظها، فلا تلبث الحريَّة أنْ تنقلب إلى فوضى، وهي إلى استبداد مُشوَّش أشدّ وطأة كالمريض إذا انتكس[245]. ولهذا؛ قَرَّرَ الحكماء أنَّ الحريَّة التي تنفع الأمَّة هي التي تحصل عليها بعد الاستعداد لقبولها، وأمَّا التي تحصل على أثر ثورة حمقاء فقلّما تفيد شيئاً؛ لأنَّ الثّورة ـ غالباً ـ تكتفي بقطع شجرة الاستبداد ولا تقتلع جذورها، فلا تلبث أنْ تنبت وتنمو وتعود أقوى مما كانت أوَّلاً.

فإذا وُجد في الأمَّة الميتة مَنْ تدفعه شهامته للأخذ بيدها والنّهوض بها فعليه أوَّلاً: أنْ يبثَّ فيها الحياة وهي العلم؛ أي علمها بأنَّ حالتها سيئة، وإنَّما بالإمكان تبديلها بخير منها، فإذا هي علمت يبتدئ فيها الشّعور بآلام الاستبداد، ثمَّ يترقَّى هذا الشّعور بطبعه من الآحاد

(244) في (ط . ق) : جديد.

(245) حتَّى هنا تنتهي هذه القاعدة في (ط . ق)، وكُلُّ ما يرد بعد ذلك هو إضافة جديدة خلال الصّفحتَيْن الآتيتَيْن.

إلى العشرات، إلى إلى...، حتّى يشمل أكثر الأمّة، وينتهي بالتّحمّس ويبلغ بلسان حالها إلى منزلة قول الحكيم المعري:

إذا لم تَقُمْ بالعدل فينا حكومةٌ فنحن على تغييرها قُدَرَاء[246]

وهكذا ينقذف فِكْرُ الأمّة في وادِ ظاهرِ الحكمة يسير كالسيل، لا يرجع حتّى يبلغ منتهاه.

ثمّ إنّ الأمم الميتة لا يندر فيها ذو الشّهامة، إنما الأسف أنْ يندر فيها مَنْ يهتدي في أوّل نشأته إلى الطّريق الذي به يحصل على المكانة التي تُمَكّنه في مستقبله من نفوذ رأيه في قومه. وإني أُنبّهُ فِكْرُ النّاشئة العزيزة أنّ مَنْ يرى منهم في نفسه استعداداً للمجد الحقيقي فليحرص على الوصايا الآتية البيان:

1 ـ أنْ يجهد في ترقية معارفه مطلقاً لاسيما في العلوم النّافعة الاجتماعية كالحقوق والسّياسة والاقتصاد والفلسفة العقلية، وتاريخ قومه الجغرافي والطّبيعي والسّياسي، والإدارة الدّاخلية، والإدارة الحربية، فيكتسب من أصول وفروع هذه الفنون ما يمكنه إحرازه بالتّلقّي، وإنْ تَعَذّرَ فبالمطالعة مع التّدقيق.

2 ـ أنْ يُتقن أحد العلوم التي تكسبه في قومه موقعاً محترماً وعلمياً مخصوصاً؛ كعلم الدّين والحقوق أو الإنشاء أو الطّب.

3 ـ أنْ يحافظ على آداب وعادات قومه غاية المحافظة ولو أنّ فيها بعض أشياء سخيفة.

---

(246) بيت المعري من البحر الطّويل.

4 ـ أنْ يُقَلِّلَ اختلاطه مع النّـاس حتّـى رفقائـه فـي المدرسـة، وذلـك حفظاً للوقار وتحفُّظـاً مـن الارتبـاط القـوي مـع أحـد كيلا يسـقط تبعـاً لسـقوط صاحب له.

5 ـ أنْ يتجنَّبَ كُلِّياً مصاحبة الممقوت عند النّاس لاسيما الحُكَّام ولو كان ذلك المقت بغير حَقٍّ.

6 ـ أنْ يجتهد ما أمكنه في كَتْمِ مزيته العلمية على الذين هم دونـه في ذلك العلم لأجـل أنْ يـأمن غوائـل حسدهـم، إنمـا عليـه أنْ يظـهر مزيتـه لبعض مَنْ هم فوقه بدرجات كثيرة.

7 ـ أنْ يتخيَّر له بعض مَنْ ينتمي إليه من الطّبقة العليا، بشـرط: أنْ لا يُكثر التّردُّد عليه، ولا يشاركه في شؤونه، ولا يظهر لـه الحاجـة، ويتكتّـم في نسبته إليه.

8 ـ أنْ يحرص على الإقلال من بيان آرائه وإلاّ يؤخذ عليـه تبعـة رأي يراه أو خبر يرويه.

9 ـ أنْ يحرص علـى أنْ يُعـرفَ بـحُسْن الأخـلاق، لاسيما الصّدق والأمانة والثّبات على المبادئ.

10 ـ أنْ يُظهر الشّفقة على الضّعفاء والغَـيرة علـى الدِّيـن والعلاقـة بالوطن.

11 ـ أنْ يتباعد ما أمكنـه مـن مقاربـة المسـتبدِّ وأعوانـه إلا بمقـدار مـا يأمن به فظائع شَرِّهِم إذا كان مُعرَّضاً لذلك.

فَمَنْ يبلغ سنَّ الثّلاثين فما فوق حائزاً علـى الصّفـات المذكـورة، يكـون قد أَعَدَّ نفسه على أكمل وجه لإحراز ثقة قومه عندما يريـد فـي برهـة قليلـة، وبهذه الثّقة يفعل ما لا تقوى عليـه الجيـوش والكنـوز. ومـا ينقصـه مـن هـذه الصّفات يُنقـص مـن مكانتـه، ولكـنْ؛ قـد يستغني بمزيـد كمـال بعضـها عن فقدان بعضها الآخر أو نقصه. كما أنَّ الصّفات الأخلاقية قد تكفي في بعض الظّروف عن الصّفات العلمية كُلّها ولا عكس. وإذا كـان المتصـدّي للإرشـاد السّياسـي فـاقد الثّقـة فقدانـاً أصلياً أو طارئـاً، يمكنـه أنْ يسـتعمل غـيره مِمَّـنْ تنقصه الجسارة والهمّة والصّفات العلمية.

والخلاصة: أنَّ الرّاغـب في نهضـة قومـه، عليـه أنْ يُـهيِّئ نفسـه ويـزن استعداده، ثمَّ يعزم مُتوكّلاً على الله في خَلْق النّجاح.

ومبنى قاعدة أنَّ الاسـتبداد لا يُقـاوَمُ بالشّـدَّة، إنّمـا يُقـاوَمُ بالحكمـة والتّدريج هو: أنَّ الوسيلة الوحيدة الفعَّالـة لقطـع دابر الاسـتبداد هـي تَرَقِّـي الأمَّة في الإدراك والإحساس، وهذا لا يتأتّى إلا بالتّعليم والتّحميس. ثمَّ إنَّ اقتناع الفكر العام وإذعانه إلى غير مألوفه، لا يتأتّى إلا في زمـن طويـل، لأنَّ العوام مهما تَرقّوا فـي الإدراك لا يسـمحون باسـتبدال القشـعريرة بالعافيـة إلا بعد التّروِّي المديد، وربما كانوا معذورين في عدم الوثوق والمسارعة؛ لأنَّـهم أَلِفوا أنْ لا يتوقّعوا من الرّؤساء والدّعاة إلا الغشَّ والخداع غالباً. ولهذا كثيراً مـا يحـبُّ الأُسـراء المسـتبدَّ الأعظـمَ إذا كـان يقـهر معـهم بالسّـوية الرّؤسـاءَ والأشرافَ، وكثيراً مـا ينتقـم الأُسَـراء مـن الأعـوان فقـط ولا يمسّـون المسـتبدَّ بسوء؛ لأنَّهم يرون ظالمهم مباشرةً هم الأعوان دون المستبدِّ، وكم أحرقوا من عاصمة لأجل محض التّشفّي بإضرار أولئك الأعوان.

ثمَّ إنَّ الاستبداد محفوف بأنواع القُوَّات التي فيها قوَّة الإرهاب بالعظمة وقوَّة الجند، لاسيما إذا كان الجند غريب الجنس، وقوَّة المال، وقوَّة الإلفة على القسوة، وقوَّة رجال الدِّين، وقوَّة أهل الثّروات، وقوَّة الأنصار من الأجانب، فهذه القُوَّات تجعل الاستبداد كالسيف لا يُقابَلُ بعصا الفكر العام الذي هو في أوَّل نشأته يكون أشبه بغوغاء، ومن طبع الفكر العام أنَّه إذا فار في سنة يغور في سنة، وإذا فار في يوم يغور في يوم، بناءً عليه؛ يلزم لمقاومة تلك القُوَّات الهائلة مقابلتها بما يفعله الثّبات والعناد المصحوبان بالحزم والإقدام.

الاستبداد لا ينبغي أنْ يُقاوَمَ بالعنف، كي لا تكون فتنة تحصد النّاس حصداً. نعم؛ الاستبداد قد يبلغ من الشّدَّة درجة تنفجر عندها الفتنة انفجاراً طبيعياً، فإذا كان في الأمَّة عقلاء يتباعدون عنها ابتداءً، حتَّى إذا سكنت ثورتها نوعاً وقضت وظيفتها في حَصْد المنافقين، حينئذ يستعملون الحكمة في توجيه الأفكار نحو تأسيس العدالة، وخير ما تُؤسَّس يكون بإقامة حكومة لا عهد لرجالها بالاستبداد ولا علاقة لهم بالفتنة.

العوام لا يثور غضبهم على المستبدِّ غالباً إلا عقب أحوال مخصوصة مُهَيِّجَة فورية. منها:

1- عقب مشهد دموي مؤلم يوقعه المستبدُّ على مظلوم يريد الانتقام لناموسه.

2- عقب حرب يخرج منها المستبدُّ مغلوباً، ولا يتمكَّن من إلصاق عار الغلب بخيانة القواد.

3- عقب تظاهر المستبدِّ بإهانة الدِّين إهانة مصحوبة باستهزاء يستلزم حدَّة العوام.

4 ـ عقب تضييق شديد عام مقاضاةً لمالٍ كثير لا يَتَيَسَّر إعطاؤه حتَّى على أواسط النّاس.

5 ـ في حالة مجاعة أو مصيبة عامّة لا يرى النّاس فيها مواساة ظاهرة من المستبدِّ.

6 ـ عقب عمل للمستبدِّ يستفزُّ الغضب الفوري، كتعرُّضه لناموس العرض، أو حرمة الجنائز في الشّرق، وتحقيره القانون أو الشّرف الموروث في الغرب.

7 ـ عقب حادث تضييق يوجب تظاهر قسم كبير من النّساء في الاستجارة والاستنصار.

8 ـ عقب ظهور موالاة شديدة من المستبدِّ لِمَنْ تعتبره الأمَّة عدوّاً لشرفها.

إلى غير ذلك من الأمور المماثلة لهذه الأحوال التي عندها يموج النّاس في الشّوارع والسّاحات، وتملأ أصواتهم الفضاء، وترتفع فتبلغ عنان السّماء، ينادون: الحقّ الحقّ، الانتصار للحقّ، الموت أو بلوغ الحقّ.

المستبدُّ مهما كان غبياً لا تخفى عليه تلك المزالق، ومهما كان عتياً لا يغفل عن اتّقائها، كما أنَّ هذه الأمور يعرفها أعوانه ووزراؤه.

فإذا وُجد منهم بعض يريدون له التّهلكة يُهوِّرونه على الوقوع في إحداها، ويُلصقونها به خلافاً لعادتهم في إبعادها عنه بالتّمويه على النّاس.
إنَّ رئيس وزراء المستبدِّ أو رئيس قُوَّاده، أو رئيس الدِّين عنده، هم أقدر

النّاس على الإيقاع به، وهو يداريهم تحذُّراً من ذلك، وإذا أراد إسقاط أحدهم فلا يوقعه إلا بغتة.

لمثيري الخواطر على الاستبداد طرائق شتَّى يسلكونها بالسّرّ والبطء، يستقرُّون تحت ستار الدِّين، فيستنبتون غابة الثّورة من بذرة أو بذورات يسقونها بدموعهم في الخلوات. وكم يلهون المستبدَّ بِسَوقِهِ إلى الاشتغال بالفسوق والشّهوات، وكم يُغرونه برضاء الأمَّة عنه، ويُجَسِّرونه على مزيد التّشديد، وكم يحملونه على إساءة التّدبير، ويكتمونه الرّشد، وكم يُشَوِّشون فكره بإرباكه مع جيرانه وأقرانه. يفعلون ذلك وأمثاله لأجل غاية واحدة، هي إبعاده عن الانتباه إلى سَدِّ الطّريق التي فيها يسلكون، أمّا أعوانه، فلا وسيلة لإغفالهم عن إيقاظه غير تحريك أطماعهم المالية مع تركهم ينهبون ما شاؤوا أنْ ينهبوا.

ومبنى قاعدة أنّه يجب قبل مقاومة الاستبداد، تهيئة ماذا يُستبدَل به الاستبداد هو: إنَّ معرفة الغاية شرط طبيعي للإقدام على كُلِّ عمل، كما أنَّ معرفة الغاية لا تفيد شيئاً إذا جهل الطّريق الموصل اليها، والمعرفة الإجمالية في هذا الباب لا تكفي مُطلقاً، بل لابُدَّ من تعيين المطلب والخطة تعييناً واضحاً موافقاً لرأي الكُلِّ، أو الأكثرية التي هي فوق الثّلاثة أرباع عدداً أو قوَّة بأس وإلا فلا يتمّ الأمر، ؛ حيثُ إذا كانت الغاية مُبهمة نوعاً يكون الإقدام ناقصاً نوعاً، وإذا كانت مجهولة بالكُلِّيَّة عند قسم من النّاس أو مخالفة لرأيهم، فهؤلاء ينضمُّون إلى المستبدِّ، فتكون فتنة شعواء، وإذا كانوا يبلغون مقدار الثّلث فقط، تكون حينئذ الغلبة في جانب المستبدِّ مطلقاً.

ثمَّ إذا كانت الغاية مبهمة ولم يكن السّير في سبيل معروف، ويوشك أنْ يقع الخلاف في أثناء الطّريق، فيفسد العمل أيضاً وينقلب إلى انتقام وفتن. ولذلك يجب تعيين الغاية بصراحة وإخلاص وإشهارها بين الكافَّة، والسّعي في إقناعهم واستحصال رضائهم بها ما أمكن ذلك، بل الأوْلى حمل العوام على النّداء بها وطلبها من عند أنفسهم. وهذا سبب عدم نجاح الإمام علي ومَنْ وليه من أئمَّة آل البيت رضي الله عنهم، ولعلَّ ذلك كان منهم لا عن غفلة، بل مقتضى ذلك الزّمان من صعوبة المواصلات وفقدان البوستات(247) المنتظمة والنّشريات المطبوعة إذ ذاك.

والمراد أنَّ من الضّروري تقرير شكل الحكومة التي يُراد ويمكن أنْ يُستبدَل بها الاستبداد، وليس هذا بالأمر الهيِّن الذي تكفيه فكرة ساعات، أو فطنة آحاد، وليس هو بأسهل من ترتيب المقاومة والمغالبة. وهذا الاستعداد الفكري النّظري لا يجوز أنْ يكون مقصوراً على الخواص، بل لابُدَّ من تعميمه وعلى حسب الإمكان ليكون بعيداً عن الغايات ومعضوداً بقبول الرّأي العام.

وخلاصة البحث أنَّه يلزم أوّلاً تنبيه حسّ الأمَّة بآلام الاستبداد، ثمَّ يلزم حملها على البحث في القواعد الأساسية السّياسة المناسبةلها؛ بحيثُ يشغل ذلك أفكار كُلِّ طبقاتها، والأوْلى أنْ يبقى ذلك تحت مخض العقول سنين، بل عشرات السّنين حتَّى ينضج تماماً، وحتَّى يحصل ظهور التّلهُّف الحقيقي على نوال الحريَّة في الطّبقات العليا، والتّمنِّي في الطّبقات السّفلى.

---

(247) جمع كلمة (بوستة): بريد، من الإيطالية عن اللاتينية بمعنى المركبة المسقوفة، استُعملت - بعد اختراع السّيارات - للسّيارة الكبيرة. واستُعملت قديماً للبريد لأنَّها آلة حمله. ويُسمّون مَنْ يشتغل بالبوسطة البوسطجي. والبوسطة: حاملة البريد ذات الأربعة من الأحصنة.

والحذر كُلّ الحذر من أنْ يشعر المستبدُّ بالخطر، فيأخذ بالتّحذُّر الشّديد والتّنكيل بالمجاهدين، فيكثر الضّجيج، فيزيغ المستبدُّ ويتكالب، فحينئذ إمَّا أنْ تغتنم الفرصة دولة أخرى فتستولي على البلاد، وتُجَدِّد الأسر على العباد بقليل من التّعب، فتدخل الأمَّة في دور آخر من الرّقِّ المنحوس، وهذا نصيب أكثر الأمم الشّرقية في القرون الأخيرة، وإمَّا أنْ يساعد الحظّ على عدم وجود طامع أجنبي، وتكون الأمَّة قد تأهَّلت للقيام بأنْ تحكم نفسها بنفسها، وفي هذه الحال يُمكن لعقلاء الأمَّة أنْ يُكَلِّفوا المستبدَّ ذاته لِتَرْك أصول الاستبداد، واتِّباع القانون الأساسي الذي تطلبه الأمَّة. والمستبدُّ الخائر القوى لا يسعه عند ذلك إلا الإجابة طوعاً، وهذا أفضل ما يصادف. وإنْ أصرَّ المستبدُّ على القوَّة، قضوا بالزّوال على دولته، وأصبح كُلٌّ منهم راعياً، وكُلٌّ منهم مسؤولاً عن رعيته، وأضحوا آمنين، لا يطمع فيهم طامع، ولا يُغلبون عن قلَّة، كما هو شأن كُلِّ الأمم التي تحيا حياة كاملة حقيقية، بناءً عليه؛ فليتَبَصَّر العقلاء، وليتَّقِ الله المغرّون، وليُعلم أنَّ الأمر صعب، ولكنَّ تَصَوُّر الصّعوبة لا يستلزم القنوط، بل يثير همة الرّجل الأشّم.

ونتيجة البحث، أنَّ اللّه ـ جَلَّتْ حكمته ـ قد جعل الأمم مسؤولة[248] عن أعمال مَنْ تُحكِّمه عليها. وهذا حقٌّ. فإذا لم تُحسن أمَّة سياسة نفسها أذلَّها الله لأمَّة أخرى تحكمها، كما تفعل الشّرائع بإقامة القيِّم على القاصر أو السّفيه، وهذه حكمة. ومتى بلغت أمَّة رشدها، وعرفت للحريَّة قَدْرَها، استرجعت عِزَّها، وهذا عَدْلٌ.

(248) في الأصل: مسئولة، على طريقة الرّسم المستعمل في مصر.

وهكذا لا يظلم ربُّك أحداً، إنما هو الإنسان يظلم نفسه، كما لا يذلُّ الله قطّ أمَّة عن قلَّة، إنما هو الجهل يُسبِّبُ كُلَّ علَّة.

وإنِّي أختم كتابي هذا بخاتمة بشرى، وذلك أنَّ بواسق العلم وما بلغ إليه، تدلُّ على أنَّ يوم الله قريب. ذلك اليوم الذي يقلُّ فيه التّفاوت في العلم وما يفيده من القوَّة، وعندئذ تتكافأ القُوّات بين البشر، فتنحلّ السّلطة، ويرتفع التّغالب، فيسود بين النّاس العدل والتّوادد، فيعيشون بشراً لا شعوباً، وشركات لا دولاً، وحينئذ يعلمون ما معنى الحياة الطّيبة: هل هي حياة الجسم وحصر الهمَّة في خدمته؟ أم حياة الرّوح وغذاؤها الفضيلة؟ ويومئذ يتسنَّى للإنسان أنْ يعيش كأنَّه عالم مستقلٌّ خالد، كأنَّه نجمٌ مختصٌّ في شأنه، مشتركٌ في النّظام، كأنَّه ملكٌ، وظيفته تنفيذ أوامر الرّحمن الملهمة للوجدان.

تمّ الكتاب بعونه تعالى[249]

---

(249) في (ط. ق): بحمد الله وتوفيقه.

في (مخ): تمَّ الكتاب.

المصادر والمراجع

- الأفغاني، جمال الدِّين: الأعمال الكاملة لجمال الدِّين الأفغاني مع دراسة عن الأعمال الحقيقية الكاملة. تحقيق ودراسة محمد عمارة، القاهرة: المؤسَّسة المصرية العامة ؛ دار الكاتب العربي، 1968.

- أنطونيوس، جورج، يقظة العرب: تاريخ حركة العرب القومية، تقديم نبيه أمين فارس؛ ترجمة ناصر الدِّين الأسد وإحسان عباس، بيروت، دار العلم للملايين، 1962، ط5، بيروت، دار العلم للملايين، 1978.

- تابييرو، نوربير، الكواكبي المفكر الثائر، ترجمة علي سلامة، ط2، بيروت، دار الآداب، 1981، ط1، 1954.

- جدعان، فهمي، أُسُسُ التقدُّم عند مُفكِّري الإسلام في العالم العربي الحديث، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1979.

- الحصري، ساطع، البلاد العربية والدولة العثمانية، ط1، القاهرة، جامعة الدول العربية؛ معهد الدراسات العربية العالمية، 1957، ط3، بيروت، دار العلم للملايين، 1965.

- حمزة، محمد شاهين. عبد الرحمن الكواكبي، العبقرية الثائرة. القاهرة، المطبعة النموذجية ؛ منشورات المكتبة العالمية ومطبعتها، 1958، (سلسلة أعلام الحرية).

- حمود، ماجدة. فارس النهضة والأدب، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، 2001.

- داية، جان، صحافة الكواكبي، بيروت، مؤسسة فكر، 1984، سلسلة فجر النهضة 2.

- الدهان، سامي، عبد الرحمن الكواكبي، 1854 - 1902، القاهرة، دار المعارف، 1964، (نوابغ الفكر العربي ؛ 23).

- السحمراني، أسعد، الاستبداد والاستعمار وطرق مواجهتهما عند الكواكبي والإبراهيمي، ط2، بيروت، دار النفائس، 1987، ط1، 1984.

- سعيد، حسن، عبد الرحمن الكواكبي - جدلية الاستبداد والدّين، طهران، ط1، 2000.

- السيوطي، جلال الدّين، عبد الرحمن بن أبي بكر، تاريخ الخلفاء، تحقيق الرفاعي والعثماني، بيروت، دار القلم، 1406 هـ/ 1986 م.

- الشنقيطي، أحمد بن الأمين، الدرر اللوامع، ط2، بيروت، دار المعرفة، 1973، ج 2.

- الطباخ، محمد راغب، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، حلب، (د. ن.)، 1926، مج 7.

- طحّان، محمد جمال، الاستبداد وبدائله في فكر الكواكبي، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، 1992.

- طرازي، فيليب دي، تاريخ الصحافة العربية، بيروت، المطبعة الأدبية، 1913 - 1933، مج 4، ج 2.

- عبده، محمد، **الأعمال الكاملة**، جَمَعَها وحَقَّقَهَا وقَدَّمَ لها محمد عمارة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1972 - 1974، ج 6.

- العجلوني، إسماعيل بن محمد، **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**، أشرف على الطبع أحمد القلاش، ط4، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1405 هـ/ 1985 م. ج 2.

- العقاد، عباس محمود، **الرحالة (كاف) عبد الرحمن الكواكبي**، القاهرة، مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، 1959.

- عمارة، محمد، **العرب والتحدي الحضاري**، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1980، (سلسلة عالم المعرفة ؛ 30).

- قلعجي، قدري، **عبد الرحمن الكواكبي**، بيروت، دار الشرق الجديد، 1963، (سلسلة أعلام الفكر العربي ؛ 24).

- كتورة، جورج، **طبائع الكواكبي في طبائع الاستبداد**، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1987.

- كرد علي، محمد، **المذكرات**، دمشق، مطبعة التّرقّي، 1948 - 1949، ج 3.

- الكواكبي، سعد زغلول، **عبد الرحمن الكواكبي - السيرة الذاتية**، بيروت، ط1، دار بيسان، 1998.

- الكواكبي، عبد الرحمن، **الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي**، دراسة وتحقيق محمد جمال طحان، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1995.

- **أم القرى، وهو ضبط مفاوضات ومُقرَّرَات مؤتمر النهضة الإسلامية المنعقد في مكة المكرمة سنة 1316 هـ.** طبعات مختلفة. و ط حلب، المطبعة العصرية، 1959. دراسة وتحقيق: محمد جمال طحان. دار الأوائل/ جمعية العاديات، دمشق، 2002.

- **طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد.** طبعات مختلفة + مخطوطة. ط2، بيروت، نشر رياض كيالي؛ دار القرآن الكريم، 1973، ط1، 1957.